سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء السادس

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء السادس

ديوان غرفة شيراز

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء السادس: ديوان غرفة شيراز**

الطبعة الأولى

خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الديوانُ الإيطاليّ



قصـائدُ فُورْتَيْسّـا

«فورتَيسا قلعةٌ أتَمَّ النمساويون بناءَها في العام ١٨٣٨ في جنوبيّ التيرول (النمساويّ آنذاك)، تحسُّـباً من نابوليون الذي كان يدقّ على أبواب أوربا القديمة بجيش من الحفاة، وبرايات مثلثة الألوان، هي رايات الثورة الفرنسية.

أتيحتْ لي فرصة أن أزور القلعة، وأن أظل لها مجاوراً، بين الحادي عشر من نيسان ٢٠٠٨ والثامن عشر مـنـه.

استذكرتُ وتأمّلتُ، وتمّتعتُ بمرأى القمم الثلجية، وبهديرِ الماء المنحدرِ من الأعالي:

إنه الألْـب!

كتبتُ ثماني قصائد، مُـنَـجَّـمــةً كالآتي:

قلعة السماء البيضاء ١٢,٤ - سوق السبت في بولزانو ١٢,٤ - ليل البحيرة المتجلدة ١٢,٤ - الشمس التي لا تأتي ١٣,٤ - سأنتظر ١٤,٤ - الموعد ١٤,٤ - مدخل سِـرّيّ إلى قلعة فورتَيسّـا ١٥,٤- تهليلةٌ - ١٦,٤

القلعة الآن هي في الجانب الإيطاليّ، لكنها كانت حتى ١٩٢٠ جزءاً من التيرول النمساويّ».

Batzenhausl Bar with Algrein Wine

هذه القصيدة الأخيرةُ كُتِبَت في زيارتي الثانية، عند افتتاح القلعة.

س ي

قلعةُ السماءِ البيضاءِ
Fortezza

يأتي الربيعُ متأخراً. ليس لأن الشتاءَ طويلٌ.
الربيع يأتي متأخراً لأنه سيكون ثلاثةَ فصولٍ.
ثلوجُ نيسان لن تذوبَ كالآيس كْرِيم.
البحرُ الأسودُ يُلَوِّحُ لها من بعيدٍ: اذكُريني.
الدانوبُ
سيظلّ مترقرقَ الحصا. والفتياتُ يَغْدونَ أجملَ.
الصنوبرُ في الوادي سوف يصعد إلى السفح.

أسمعُ في الليلِ المطرَ المتناوِبَ والثلجَ
وأسمعُ في الليلِ الريحَ تئِنُّ على الشُّبّاكِ
وأسمعُ في الليلِ الصمتَ.
الساحةُ أصغرُ مِن أن نُبصرَها.
والقِمّةُ أقربُ
والفندقُ أحمرُ حتى الأذُنَين!

الجســـرُ الذي يحــفَظُ وحشيةَ الصخورِ والغابة
من إنسِــبْروك إلى فورتَــيــسّا
كيلومتراً بـــعدَ آخرَ،
هذا الجســـرُ يُتابعُ القطارَ الـمُـجهَدَ،
الجسرُ يشهقُ لامِعاً مثلَ سِـــوارٍ فضّـةٍ اســـتقامَ في يدِ الســاحرةِ.
الجسرُ ألقى شِباكَه على الجبلِ،
واصطادهُ كما يصطادُ يابانيٌّ نحيلٌ حوتاً في البحار الجنوبية.

أُبصِـــرُ، أحياناً، ما لا تبصرهُ القطّةُ.
هل أنّ محطَّة فورْتَـيسّا كانت آخرَ ما أبصرَهُ موسوليني الهاربُ؟
هل أن محطةَ فورتَـيسّا آخـرُ هذا الكونِ. . .
لتأتي بملائكةٍ ومجانينَ
وتُلقي من عرباتِ السفرِ الضيّقةِ القرنَ الحادي والعشرين؟

القطارُ يمضي شمالاً.
فيرونا تشتطُّ بنا إلى قارةٍ أخرى.
القطارُ يسعل مثل راكضٍ شيخٍ في ماراثون.
النبيذ المحلّـيّ خفيفٌ، صافٍ.
سنملأ كؤوسَنا ونتأمّلُ في الزجاجِ المُـضَـبَّب.
القطارُ يمضي شمالاً.

والذين يقرأون عن الأديرةِ، مسافرينَ،
لن تخدشَ خدودَهم المتورِّدةَ سـعْـفةُ نخلٍ جفّـفَها يورانيومُ القذائفِ.

أُحِسُّ بالعصافيرِ في الرابعة (صباحاً بالطبع).
احسُّ بالقطار الأولِ في الخامسة ورُبْعٍ.
أُحِسُّ بأني أرتعشُ...

فورتيـسّا، ١٢/ ٠٤/ ٢٠٠٨

سـوقُ السبت في بولزانو
Bolzano

الدربُ الضيِّقُ من عندِ رصيفِ محطّتِها حتى ما كان سيُدعى
كاثدرائيّتَها
كان السوقَ
(وأعني سوقَ السبتِ) الثاني عشرَ من نيسانَ
ولم تكن السوقُ مَعاشاً
كانت، وكما أوهَـمَني مَن في السوقِ، مَتاعاً
. . . .
. . . .
. . . .
الناسُ أقاموا في الدربِ مآدبَهم:
حفلاتِ الكوكتيلِ. . . إلخ.
أمّا الفقراءُ فليس لهم حتى في سوقِ السبتِ مكانٌ.
❋
إفريقيٌّ أسْـودُ
كان المتطفِّلَ:

ظلَّ يقولُ بصوتٍ مختنقٍ:
أنا جائعْ
أنا جائعْ....

بولزانو، ١٢/٠٤/٢٠٠٨

ليلُ البحيرةِ المتجلِّدة

جبلٌ على جبلٍ، وثَـمَّ مَـخاضــةٌ. . .
ماءٌ ولا كالماءِ
أشجارٌ ولكنْ شِـبْـهُ أحجارٍ
كأنّ هناكَ فُوَّهةً لِـبُركانٍ تَجَــمَّدَ منذُ آلافِ السنين
الشمسُ باردةٌ.
وطيرٌ واحدٌ سيجيءُ
طيرٌ سوف يحملُنا، وقتلانا، إلى باب الجحيم.

فورتَيسّا، ١٢/ ٠٤/ ٢٠٠٨

الشمسُ التي لا تأتي

في هذا الأحدِ المشدودِ إلى سفحِ الجبلِ اشتقتُ إلى بلدي
حيثُ الصيفُ يُطقطِقُ منذ الآن
وحيثُ الشمسُ تُسَلِّطُ بؤرتَها حتى في الظلِّ
(النخلُ بغيرِ ظِلالٍ). . .

في هذا الأحدِ الـمُبْتَلِّ ككلبِ الراعي اشتقتُ إلى بلدي
أنا منذُ الصبحِ أقولُ: اشتقتُ إلى بلدي.
وهَنَ العظمُ
ورأسي مشتعلٌ شَيباً. . .

في هذا الأحدِ المقرورِ اشتقتُ إلى بلدي
أمضيتُ صباحي في الساحةِ والمقهى
غمغمتُ على ضفةِ النهرِ الجبليّ صلاةً متأخرةً
لكني أرتعشُ
البردُ تَغلغلَ كالإبَرِ الثلجيةِ في الدمِ. . .

في هذا الأحدِ الـجَهْمِ اشتقتُ إلى بلدي

لكني لم أدركْ إلاّ الساعةَ
حين مررتُ بمقبرةِ القريةِ

أني، المسكينَ، بلا بلَـــد !

فورتَـيسّا، ١٣/ ٠٤/ ٢٠٠٨

سـأنتظِـرُ!

لم أجدْ طيراً على غُصْـــنٍ
ولا نحلَ على الأزهارِ. . .
قلتُ: اليومَ لم يستيقظِ الكونُ على الكونِ!
وهذا النهرُ
هذا الهادرُ
المنحدِرُ
الجارفُ كالثورِ. . .
ألا يهدأُ كي نلتقطَ الأصدافَ في القاعِ
وكي نسمعَ من حوريّـــةٍ أغنيةً؟
. . . .
. . . .
. . . .
أُرهِفُ ســـمعي:
طائرُ أجهلُ ما يُـسْـــمى
ينادي
مَن ينادي؟
الصبحُ لم يفتحْ على الفندقِ بوّابتَـهُ، بَعْـدُ
وهذا الجبلُ الأسوَدُ يَــدَّثَّــرُ في ريشِ الغراب. . .

فورتَيسّا، ١٤/ ٠٤/ ٢٠٠٨

المَـوعِــد

قلتُ: أمشي إلى آخرِ البلدةِ. . .
الشمسُ ناعمةٌ
والمحطّــةُ خاويةٌ (أحَــدٌ ضائعٌ في المواعيدِ)
أبصرتُ منعطَفاً في البعيدِ
انتهَيتُ إلى شِـــبْـــهِ منحدَرٍ يصِلُ النهرَ بالدربِ. . .
أهبِطُ
أهبِطُ
لم أبلُغِ النهرَ.
ثَـمَّـتَ تنتظرُ الشاحناتُ:
سيمضي الأحدْ
مثلَ ما جاءَ. . .
أمضي أنا
مثلَ ما جئتُ. . .
والفجرَ تستيقظُ الشاحناتُ على ضفةِ النهرِ
تنطلقُ الشاحنات!

فورتَيسّا، ١٤/ ٠٤/ ٢٠٠٨

مدخلٌ سرّيّ إلى قلعة فورتيسّــا

للعمالِ الذينَ يجعلون القلعةَ متحفــاً للأطفالِ والشعراءِ:

Stiegel Beer

بيرة ستيجل

Marlboro Cigarettes

سجائر مارلبورو

والجلاميدُ المسْوَدّةُ التي تنقلها الشاحناتُ المر سيدس المتوسطة لشـــركة

Wipptaler.Com

والمياهُ الآسنةُ التي يدفعُ بها نهرُ إيساركو إلى أسوارِ القلعةِ الغرانيت.

أمّا الكنيسةُ الصغيرةُ المحصّــنة في المدخل
فقد هيّــأها العمّالُ قبل الأوانِ، ليصلِّــي فيها ســـواهُم.

❊

القلعةُ ليست بعيدةً عن فندق:

Posta-Reifer Hotel

مثلَ ما أن القلعةَ ليست بعيدةً عن الذهب...

Burgomaster Josef Wild

Owner of Posta-Reifer Hotel

الـعُـمْـدةُ يوسف وايِلْد
مالكُ فندق بوستا رايفَر
لديه المفتاحُ الثالثُ إلى البوّابةِ الذهبية
مع آمرِ القلعةِ الهتلريّ
وممثلِ مصرف إيطاليا.
*
في الليلِ، تختلطُ القطاراتُ السريعةُ، وهي تهدُرُ، بالمطرْ
في الليلِ يختلفُ الشـــجرْ
ليكونَ بيتاً
أو دخاناً.
آنـها يتآمرُ الضبّاطُ...
سوف تكونُ فورتَيسّـــا مَزاغلَ للبنادق
أو مَرابضَ للمدافعِ
سوفَ يأتيها قياصرةٌ
ومحتالون.
سوفَ تكونُ سجناً يخنقُ السجناءَ في حلقاتِ فولاذٍ
وسَــدّاً للغناء...
*
أســـرى الحربِ الرّوس
أسمعُهُم في المطرِ الليليّ
أسمعُ أصواتَ مطارِقِهِم
ومَجارِفِهِم
كان الأســرى الروسُ يشقّونَ بقلبِ الجبلِ القاســي

نفَقـــــاً
وقبوراً من غيرِ شـــواهدَ.
اسمعُ أســرى الحربِ الروسَ يئِنّــون...
❋
رايةُ باريسَ مثلّـــثـــةُ الألوانِ
وجيشُ حُفاةٍ
وصعاليكَ
يدُقُّ على أبوابِ العالَــم
كان يدُقُّ بقبضاتِ دمٍ وأَناشـــيدَ
وكان قياصرةُ العالَمِ يرتجفون...
❋
لسنينَ، ظلّت الشرطة الإيطالية تراقبُ ليشيو جَـيلِـي Licio Gelli فتّشوا منزله، فيلاّ فاندا، مراراً. أمّا هذه المرّة، فلم يفتشوا الخزانةَ، بل بحثوا في الشرفة، داخل أصُصِ الأزهارِ. وهناك بين البيجونيا والجيرانيوم... الأزهار الأثيرة لدى ليشو جَيلي، أيامَ شبابه،، عثروا على ١٦٢ كيلوغراماً من الذهب الخالص في سبائك من كيلو واحدٍ، وعلى أربعين من قضبان الفضّةِ، وقد نُقِشَ عليها CCCP، أي اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية. حدثَ هذا في العام ١٩٩٨.
❋
«كان ليشيو جَيلي، عميلاً سرّياً مرموقاً لموسوليني والغستابو، كما يبدو أنه اشتغلَ لصالح الكومنفورم الشيوعيّ. إنه مصرفيٌّ، صحافيّ، كاتبٌ، شاعرٌ، حائزٌ على عدة جوائز أدبية هامّـة. لكن

شهرته الكبرى هي في رئاسته المحفل الماسونيّ المعروف (بي ٢) الذي ضمَّ نخبةً من أشهر موظفي الدولة والسياسيين والضباط ورجال الأعمال، ممّا منحه قدرةً سرّيةً على التحكم بالأحداث السياسية، في السنوات الخمسين التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.»

*

قلعةُ فورتَيسّــا
كانت تنهارُ قليلاً فقليلاً
فوقَ رؤوسِ قياصرةٍ
وجنودٍ
وســماســرةٍ
ولصوصِ سلاحٍ محترِفين.

قلعةُ فورتَيسّــا
تُبْنى ثانيةً تحتَ ســماءٍ أخرى
تُعْــلِنُ أن العالَمَ أجملُ دونَ قلاعٍ
حتى لو كانت تلك القلعةُ:
فورتيـسّـــــا!

فندق بوستا رايفر
Posta-Reifer Hotel
فورتيسّا، ١٥/٠٤/٢٠٠٨

تَـهْـلِـيـلـةٌ

سأرحلُ في قطارِ الفجرِ:
شَعري يموجُ، وريشُ قُـبَّـعَـتي رقيقُ
تناديني السماءُ لها بُروقٌ
ويدفعُني السبيلُ بهِ عُــــروقُ.
سأرحلُ...
إنَّ مُقتـبَــلِـي الطريقُ.

سلاماً أيها الولدُ الطليقُ!
حقائبُكَ الروائحُ والرحيقُ...
ترى الأشجارَ عندَ الفجرِ زُرقــاً
وتلقى الطيرَ قبلكَ يستفيقُ

سلاماً أيها الولَــدُ الطليقُ...
ستأتي عندكَ الغِزلانُ طَوعاً
وَتَـغْــذوكَ الحقولُ بما يليقُ.

سلاماً أيها الولدُ الطليقُ!
ســـلاماً آنَ تنعقدُ البروقُ...

فورتَيسّا، ١٦/٠٤/٢٠٠٨

Batzenhausl Bar with Algrein Wine

أنتَ، ضُحى هذا الأحدِ الأوّلِ، في هذي البلدةِ، من وادي الألْبِ، تُلامِسُ أشجارَ الغارِ، وتلمُسُ كاسَ نبيذٍ قرويٍّ أحمرَ. لم تذهبْ نحوَ محطّةِ فورْتيسّا لتُوَدِّعَ. كلُّ الفتياتِ استقلَلْنَ قطارَ شمالٍ، ومضَينَ. الفندقُ كان يتيماً. لا بأسَ. غداً أنتَ تغادرُ أيضاً.

حتى ضحكةُ منتصفِ الليلِ من الجِنِّيةِ سوف تذوبُ.

صخورُ الكاثدرائيةِ سوفَ تذوبُ. الساحةُ. والموسيقى. . .

ما أجملَ أن تكتبَ شِعراً يُنكِرُ هذا!

امرأتانِ من القلعةِ. . . كيفَ استوقفتاكَ بقلبِ السوقِ؟ أتذكرُ؟

قالت واحدةٌ: أمسِ سمِعتُكَ. أمّا الأخرى فقد ابتسمتْ.

في البارِ

شُجيرةُ غارٍ.

قلتَ: وداعاً!

هل أحسستَ بدفءِ الشمسِ؟

سلاماً. . .

هل أحسستَ بأنك سوف تموت؟

بولزانو (إيطاليا)، ٢٠/٠٧/٢٠٠٨

شِــعابٌ جَبَلِيّــةٌ
Mountain paths

قصيدةٌ كُتِبَتْ في ريفٍ إيطاليّ

A poem written in an Italian countryside

«هذه القصيدةُ مهداةٌ إلى سيلْفانا وفوزي الدليمي، اللذَينِ قدّما لي، ولِـجْوان، دارتَهُـما العامرةَ،العاليةَ، بجبالِ الأَبَنين، الإيطالية، غيرَ بعيدٍ عن ميلانو، منتبَذاً ومُصطافاً، حيثُ كتبتُ صفحاتي، واستردْتُ عافيتي، ونَعِمْتُ بالحُبّ، وبصداقةٍ لم أجدْ لها مثيلاً»

س ي

١

Costa Di Morsiano (Italy) 30 September 2008

البارحة، وفي حوالَي الساعة التاسعة مساءً، بَلَّغَنا فوزي الدليمي (أنا وجوان ماكنلي Joanne McNally) بسيارته المرسيدس كومبرسَّر، دارتَه، بأعلى الجبل، جنوبيّ ميلانو.
الليلُ كثيفٌ في تلك التلاعِ التي تُعتبَر تمهيداً للطريق إلى توسكانيا.
لمحْنا غزالاً، ثم خنزيراً برّيّاً. قال فوزي: لا تفاجأوا بالحيوانات البريّة في محيطِ الدارة. ثمّت أشجارُ تفّاحٍ. في الليلِ تأتي الخنازيرُ البرية لتزوركم. إنها تحبّ التفّاح!
لثلاث ساعاتٍ، ظلّت المرسيدس المتدفقةُ بالعزيمة، تتناهبُ الطريقَ من مطار ليناتا الميلانيّ، إلى الدارة العالية،
بادئةً بمسارِبِ الطريقِ السريعِ ومنتهيةً بالدرب الضيّقِ المُطِلّ على وديانٍ سحيقةٍ، تلتمعُ أضواءُ منازِلِها القليلةِ مثل النجومِ.
لِـمَ إغراءُ العزلةِ؟
لِمَ الالتجاء إلى رحمةِ الطبيعةِ العاريةِ إلاّ من طبيعتِها؟
لِمَ الاحتماء بالحَجر؟

كان ثَمَّ المساءُ
المساءُ الـمُرَصّعُ بالنجمِ

ذاكَ المساءُ الرحيمُ بغزلانه وفراشاتِ أزهارِهِ. . .
سوف أسألُهُ أن يكونَ رحيماً بنا
نحن، أبنائـــهِ المتعَبين
نحن، أبنائهِ الخَـيِّـــرين. . .
نحن، نحن الحُفاةِ، طريدي ذئابِ الـمُدُنْ.

غامت السماءُ، للمرة الأولى منذ أشهرٍ، كما فهمتُ. لستُ أريد العودةَ إلى لندن، حتى عبرَ هذه السماءِ الغائمةِ للمرة الأولى منذ أشهُرٍ. لديَّ ما أفعلُهُ هنا. أن أتمشّى عبر الحقول ذواتِ الهشيمِ اليابسِ غيرَ متهيِّبِ الصِّلالَ. أن أذهبَ إلى سوقِ القريةِ لأشتري زجاجتَي نبيذٍ محليٍّ. أن أراقبَ قطّتَينِ نصفَ متوحشتَينِ. أن أسألَ: لماذا أضعتُ كلَّ تلك السنين من حياتي بين جدرانٍ لا تريدُ أن تجد باباً. جوان واقفةٌ عند الباب. جوان بكل بهائها تسألني: هل أريد قهوةً؟
نعم.
مع سُـــكّرٍ، وقُـبْــلـــــةٍ!

*

٢

Costa Di Morsiano 1 October 2008

صـــنوبرةٌ في السماء
صنوبرةٌ في أعالي المساء
صنوبرةٌ هي ثالثةُ الناسِ في غرفةِ النومِ
أولى النساء. . .
صنوبرةٌ في الفضاء.
صنوبرةٌ تسهرُ الليلَ، تحرسنا من ظلامِ التلالِ
التلالِ المحيطةِ
والحَجرِ الجَهْـــــمِ
تحرسُنا من دواعي الكلام!

*

بدأ الصباحُ مشمساً، دافئاً. نذهب مشياً إلى مقهى القرية الوحيد. السيدة «باولا» مالكة المقهى، هيّأتْ مطعماً أيضاً. رجوناها أن تحجز لنا مائدة لمساء الجمعة. سيلفانا، زوجة فوزي، ستأتي من ميلانو لتلتحق بنا في عطلة الأسبوع. سوف تتعرّف على جوان،

وسوف تجدان سبيلاً ما للتفاهم، بالرغم من حاجز اللغة. هكذا الأمرُ دوماً مع مِهاد الصداقة والودّ. اللغة، وحدها، غير كافيةٍ للتفاهم.

في دكّان القرية، الوحيد، الذي تديرُه امرأةٌ أيضاً، تجد كل شــيء، من النبيذ المحليّ إلى الجبن الآتي من ســردينيا. الخبز طازجٌ دائماً، والموزيرللا كذلك.

على نَشَــــــزٍ قريبٍ من الدارة التي نحن فيها، منزلٌ ريفيٌّ متداعٍ مهجورٌ.

قلتُ: سأشتري المكان!

قال فوزي: لكنّ عليك أن تشتري الأرضَ المحيطةَ أيضاً.

قلتُ: لا أريد أن أكون مالكَ أرضٍ. أنا شــيوعيّ!

وأضافَ فوزي: عليكَ، كذلك، أن تخصصَ مبلغاً للترميم قد يفوقُ مبلغ شــراءِ الخِرْبةِ. . .

قالت جوان: لكل حُلمٍ نهايةٌ. لكنّ هذه أســرعُ نهايةٍ!

*

قلتُ إن الصباح بدأ مشمساً دافئاً، لكننا الآن نقترب من منتصف النهار، وثمّتَ سحبٌ ســودٌ تقترب منا. بدأت الشمس تتضاءل. ريحٌ باردةٌ سلبَتْنا بحبوحةَ الدفءِ العميم.

نظرت جوان إلى البعيد، حيث اختلطت التلالُ بالغيم.

قالت: إنها تمطرُ هناك. . .

*

أربعُ غزلانٍ كُنَّ على منحَدَرٍ يلعبْنَ
الغابةُ ساكنةٌ مثلَ غديرٍ
والأشجارُ لها مَرأى الغيمِ . . .
الغزلانُ الأربعُ يلعبْنَ
وحين تَهِل الأمطارُ
سيدخُلْنَ عميقاً في الغابةِ
مثلَ جذورٍ مكشـــوفةْ .

*

نسيتُ أن أذكرَ أننا ذهبنا، البارحةَ، إلى قرية كوارا Quara القريبة، التي ليس بيننا وبينها سوى كيلومتراتٍ ثمانيةٍ. كان ضرورياً أن نذهب إليها، فالنبيذ هناك أجودُ، ومحطة الوقود فيها هي الأقرب إلينا .

تعلّمت جوان كيف تقود سيارةَ الباندا .

اليومَ عاد فوزي إلى ميلانو، بعد أن اطمأنّ علينا، وتأكّدَ أننا سنتدبّر أمورَنا بأنفسِنا .

لقد عرّفَنا على أهل القرية .

نحن مطْمَئنّانِ .

وقد نبدأُ، غداً، جولاتِنا في المنطقة، وقراءة الخرائط .

سوف نستخدمُ الباندا .

من أين نبدأ؟

في الغالب سنبدأُ من مونت فيورينو
Montefiorino

حيث أعلنَ الشيوعيون الإيطاليون، جمهوريةَ المقاوَمة، قبلَ الطلقاتِ الأخيرةِ للحرب العالمية الثانية.

لقد أعلنوا جمهوريةً.

وأقاموا متحفاً مفتوحاً للجميع.

غداً، سنكون هناك!

❇

٣

Costa Di Morsiano 02 October 2008

ســـلامٌ على الداليةْ
سلامٌ على الغيمِ يهبطُ حتى يَمَسّ شُجَيرةَ أَرْزٍ
سلامٌ على الخبزِ أسمرَ مِثلي
سلامٌ على قهوةٍ في الصباحِ الذي يتمشّى وئيداً
سلامٌ على جارَتَيَّ
سلامٌ على قطّتي
وسلامٌ على الكلبِ، يُـقْـرِئُـني، بالنباحِ الخفيضِ الســـلام!
ســـــلامٌ على مريم
والسلامُ على الطفلِ، أيّانَ ناغَى، و أيّانَ نامْ. . .

*

فجرَ هذا اليومِ، بلغَ فِعْـلُـنا الحبَّ، مبلغَ الكمال!
وسنذهبُ إلى مونت فيورينو متدفقَينِ حماسةً. . .
بدأ النهارُ بقطراتِ مطرٍ شحيحة. الفلاحون ينتظرون المطر قلِقينَ. لقد حرثوا الحقول، وهيّأوها للبذار، لكن المطر لم يأتِ. السماءُ تغيمُ منذ أمدٍ، كل يوم، لكنْ لا مطر. هذا اليوم، كالأيام التي سلفتْ، لا يَعِدُ الفلاحين بخير.
جوان تنطلقُ بسيارة الفيات «باندا» على الطريق الضيّقة.

نتوقّف لنتركَ غزالاً من الغابة يراقبنا على مهلٍ.
قطرات المطر الشحيحة توقّفت.
ليس من مَـهَـبِّ ريح.
في مفرق جيرادولو ألمحُ مخزناً لبيع الخمور المحلية بالجملة. أقول لجوان: في عودتنا من مونت فيورينو نتوقف هنا لنبتاع شيئاً نتزوّدهُ.
مونت فيورينو تبعد أحد عشر كيلومتراً من المفرق هذا.
نبلغ هدفَنا:
متحف المقاومة...
نرقى السلالمَ إلى أعلى مرتفعٍ بالمدينة. نبلغ المتحف. البوابة مُشْــرَعةٌ. ندخل. المتحف مغلَقٌ!
أقولُ لجوان: ؛ لقد بلغْنا مقصدَنا.
الطريق إلى إيثاكا أجملُ من إيثاكا.
ألم يقُلْ كافافي ذلك؟
ندخل مقهى لنأخذ قهوةً لذيذةً وغْرابّـا Grappa. من الشرفة يتألّق مشهدٌ جليلٌ من مَشاهدِ الألْب. المقهى يزدحم فجأةً بالنسوةِ المرحاتِ. نترك مونت فيورينو عائدَينِ. جوان ترتبك في محاولة العثور على مخزن الخمور. أقولُ لها: من هنا.
تجيبني ضاحكةً: أنت لاتعرف من الإتجاهات إلاّ ما أشارَ إلى حانة أو إلى حانوتِ خمرٍ!
نتزوّد ست زجاجاتٍ لهنّ هديرٌ من نبيذ Centurione الأحمر الثخين.

*

٤

Costa Di Morsiano 03 October 2008

في هذا الوادي الشاسعِ
هذا الوادي الموحشِ
هذا الوادي الـمُـلْـتَزِّ كئيباً بين جبالٍ زرقاءَ
أتمشّى
وأراقبُ طيراً يُجْفِلُ أو غصناً أثقَـلَــهُ تُفّاحُ النحلِ
وأحياناً ألمحُ أزهاراً آتيةً من فردوسِ الألْبِ:
بنفسجةَ الوادي
زرقاءَ الثلجِ...
كأنّ الوادي
هذا الشاسعَ
هذا الموحشَ
هذا الـمُـلْـتَـــــزَّ
يسيرُ، بطيئاً، سِــرِّيّاً، كي يبلُغَ يوماًما فردوسَ الألْب!

*

وأنت... إلى أين تسير؟ منذ إيليا أبو ماضي، والناسُ تردِّدُ مع الشاعر: لستُ أدري. لكنّ الزمانَ اختلفَ. الأطفالُ أنفسُهم، في

أوربا، مع التعليم المتقدم المتطور، يدرون بما حولهم، وبما ينفع أو يَضرّ. إذاً على الشاعر، أن يتعلّم من الأطفال. عليه أن يكون دارياً بما حوله، وبما في دواخله أيضاً، وإلاّ كان هُـزأةً ومَسْخَرةً.

بودلَير في أواسط القرن التاسع عشــر أرادَ أن يفتحَ عيونَ الشعرِ على البوليفار (الجديد آنذاك) وعلى حياة الناس العاديّين: Paris Spleen. لكنّ ما حدثَ في ما يُسْـمى «قصيدة النثر العربية» كان على الضدّ ممّا اقترحه بودلير المؤسس، لا جهلاً بما اقترحَه الرجلُ، لكنْ خوفاً من التبِعاتِ، لأن المتنفذين في «قصيدة النثر العربية» هــم صحافيون محترفون، في صحافةٍ محترفة، أي فاسدةٍ. بمعنى أن أيّ موقفٍ حقيقيّ من أهوالِ المنطقة قد يُعَرِّضُ مَن اتّخذه إلــى سوء المصير. هكذا انصرفوا إلى ذواتهم التافهة الخاوية، يحلبونها كما يُحْلَبُ التَّيسُ. وهكذا صارَ لهم مقلِّدونَ وحُواةٌ ممّن يجهلونَ حتى اللغةَ التي يستعملونَها أداةً.

هل وُلِدتْ «قصيدة النثر العربية» ميتةً؟

لستُ أدري.

لكني أدري تماماً أنها في قطيعةٍ مع الحياة.

*

حول الدارةِ، دروبٌ صاعدةٌ هابطةٌ، كما هو الشأنُ في دروبِ الوعْرِ. أحياناً ألقى عنَتاً وأنا أحاولُ هذا الدربَ أو ذاك، بسببٍ من ضغطٍ في الدمِ مرتفعٍ. لقد أوصتني طبيبتي السيدة دَيل Dale بأن أمشي حتى لو آلَمَني المشيُ!

أنا أفعلُ هذا مرتَينِ في اليوم، وألقى العنَتَ مرّتينِ في اليوم أيضاً.

أمسِ الأول، رأيتُ الرجلَ: كان فلاّحاً حقيقياً من إيطاليا، يلبسُ السواد على جسدٍ في منتهى النحول. وكان يجمعُ التفّاحَ الـمُسّاقِطَ، ويختار الصالحَ القليلَ. شجرةُ التفاحِ كانت من أشجار الله، ثمارُها للنحل والطير والبشر.

وأمسِ، رأيتُ الفلاّحَ ذاتَه، يدفعُ أمامه عربةً من ذوات العجلة الواحدةِ، وقد أوسَقَها جذوعاً وأغصاناً، وقوداً لناره في الشتاء الذي يقتربُ.

قلتُ في نفسي: لقد التقيتُ فلاّحاً!

هذا الرجلُ الذي لو نفختَه لطارَ، يصعد دروبَ الوعرِ ويهبطُها في خفّة السنجاب...

وأنتَ، الـمُـدّعي طَيَراناً، توجعُكَ خطوةٌ صاعدةٌ!

السيدة دَيل، أَمَرتْكَ، وعليك الطاعةُ...

وثمّتَ أمرٌ آخر:

لِمَ لا تتعلّمْ من الفلاّحِ الإيطاليّ؟

أليس هو حليفَكَ في الثورةِ التي طالَ ما أسرفتَ في الكلامِ والكتابةِ عنها؟

*

اليومَ أيضا، تَـهَدّدَتْنا السماءُ بمطرٍ، فأتتنا بقَطْرٍ كقَطر الندى!

أخذنا الباندا في اتجاهٍ غير اتجاه «كْوارا» المألوف، عبر طريقٍ جبليّ يضيقُ كلّما مضينا فيه.

يبدو أن المنطقة جنةٌ للطيور!

في العودة توقّفنا عند «مقهى - مطعم - بار البلفدير» على ناصية

الطريق. ليس في المقهى أحدٌ ســـوى امرأةٍ هي مالكةُ المقهى.
طلبنا نبيذاً، كأسَينِ. جاءتنا بنبيذ من نوع كابرنيت سوفينيون.
استغربتُ. فحصتُ الزجاجةَ، كان النبيذ من الشيلي!
قلتُ للسيدة: من أين أنتِ؟
أجابت: من إسبانيا.
سألتُ: من أين في إسبانيا؟
قالت: من إشبيلية.
الأندلس؟
نعم!
الآنَ فهمتُ لِمَ جاء النبيذ من الشيلي. أليست الشيلي البعيدةُ فِلْذةً من إسبانيا؟
ضحكت السيدة، وظلت معنا في حديث ســـرياليّ، حتى دخل جيوفاني....

*

٥

Costa Di Morsiano 04 October 2008

تنظرُ جْوانُ، عَبْرَ الزجاجِ، إلى الأفْقِ. لا أُفْقَ. ثَمّ الـجِـبالُ
تَلِيها الجبالُ، تليها الجبالُ، تليها الجبـــــــــالُ. . .
وقد أسألُ جْوانَ: هل آنَ أن نعرفَ السهلَ؟ ماذا يخبئُ
هذا الذي لا نراهُ؟ الحقيقةُ قائمةٌ في الأساطيرِ، أم هـــيَ
نائمةٌ في الدروبِ التي نتحدّر فيهِنَّ أو نعتلي؟
تنظرُ جْوانُ عبرَ الزجاج. . .

*

البارحةَ انضمّتْ سيلفانا إلينا قادمةً مع فوزي من ميلانو. اكتمل الشملُ. آخر مرةٍ رأيتُ فيها سيلفانا، كانت أوائلَ التسعينيات، بدمشق. كانت تزور مع فوزي العاصمة السورية للمرة الأولى. وقد أحبّتْ دمشق.

وهنا، في مورسيانو، سهرنا حتى وقتٍ متأخرٍ في مطعم «باولا» الذي اكتظَّ بالطاعِمين مع بداية عطلة الأسبوع. كان العشاء فاخراً على الطريقة الإيطالية، والنبيذ محليّاً مـتدفقاً. استهلكنا، نحن الأربعة، لتراً كاملاً ونصفَ اللتر!

لا يبدو الصباحُ مهدِّداً. الريحُ هدأتْ حتى صمتتْ أشجارُ الحَــوْرِ

عن موسيقاها الأبدية. والغيومُ عاليةٌ شِبْهُ بيضاءَ. لَكأنّ دفئاً ما ينتشرُ في المنزلِ والساحةِ المحيطةِ.

اختفتْ سيلفانا!

ذهبتْ إلى بلدةٍ قريبةٍ، تتابِعُ أمراً يتّصلُ بتوسيع الطريق الضيّق المؤدي إلى الدارة.

إذ حدثَ أن سيارتَها الباندا انزلقت ذاتَ شتاءٍ ثلجيّ، فانكسر ضلعانِ من أضلاعها...

الشتاء قادمٌ، والمرأةُ ليست مستعدّةً لمحنةٍ جديدةٍ تصيبُ أضلاعَها.

الشمسُ، ذاتُ حرارةٍ ونورٍ، اليومَ.

لا بدّ أن قلعة مونت فيورينو، مقر جمهورية المقاومة، تتألّقُ في الأعالي.

الشيوعيون الإيطاليون، أعلنوا جمهورية المقاومة، في ١٩٤٤ بعد أن حرروا المنطقة والجبال (نحن في سلسلة الأبَنين). كان عُمرُ الجمهورية شهراً.

اجتاحَها الجيشُ الألمانيّ المدجّج، وأبادَ المقاوِمين جميعاً.

السؤالُ الآنَ: مَن المنتصرُ؟

مَن أعلى رايةَ الحريةِ؟

مَن يرفعُ اليومَ أسطورةَ النشيدِ؟

مونت فيورينو، ستظلُّ الأغنيةَ!

*

٦

Costa Di Morsiano 06 October 2008

حَوْرٌ وصفصافٌ. صنوبرةٌ وشجرة بلّوط. آسٌ وقرنفلٌ
عوسجٌ ونعناعٌ بَرِّيٌّ. زيتونةٌ. ونخلةٌ من الهِمَلايا
داليةٌ من توسكانيا. توتةٌ شاميّةٌ من الغوطة. حَلْفاءُ
من الجنوب الجزائريّ. سَروةٌ من الأطلس الأوسط.
نبعةُ ريحانٍ من سِيدي بوسْعِيد. دمعةٌ من عينَيّ المرهقَتينِ
أزرعُها كلَّها على تربتِكَ يا محمود درويش. يا صديقي.
أيها الثاوي برام الله...

*

مساءَ أمسِ، في متحف البحر، بِجَنُوَا Genova، جاؤوا جميعاً.
كلوديو بوتسّاني، وفوزي الدليمي، و لُوقا، وجوان ماكنلي
التي لم تعرفْها بَعدُ.
جاؤوا جميعاً إليك، وأنا برفقتِهم. الإيطاليون جاؤوا، وصيّادو
السمك. طاهي المطعم الذي تناولتَ فيه آخرَ وجبةِ
سَمكٍ. والساقيةُ. بحّارةُ السفنِ الغارقةِ جاؤوا، والقراصنةُ
المتقاعدون. الفتياتُ الجميلاتُ منهنّ وغيرُ الجميلاتِ. أنت أيضاً
جئتَ. كنتَ

تُحَدِّثُنا عن ضيفٍ ثقيلٍ يحملُ مسدّساً. كنتَ تقرأُ جالساً، على غيرِ عادتك. هل أنت متعَبٌ من ذلك القلبِ المشاكِس؟ ستكون المدنُ شاحبةً في المساءِ المبكِّرِ. عيناك الذكيّتانِ لن تكشفا ألقَها السرِّيّ. نحن أيضاً امسَينا سوانا. مَن سيحملُ عبءَ صداقاتِنا الفاترة؟ مَن سيسألُ عن عشائنا وملابسِ أولادِنا؟ الحفلةُ التي أقمتَها لفلسطينَ والعالَم اطفأتْ أضواءَها لتتّقدَ أنت. أنت الذي جعلَ اللغةَ مختلفةً. مساءَ أمسِ في متحف البحرِ، كنتَ البحّارَ الأكثرَ إبحاراً وغرَقاً. ناقوسُ السفينةُ البرونزُ الهائلُ سيظلّ يحمِلُ اسمكَ منقوشاً بألفِ لغةٍ. والعربيةُ؟ هل سيقرأُ العربُ موجاتِ الصَّنجِ الهائلةَ؟ هل سيتحمّلونَ صوتَكَ الأدقَّ رنيناً الآنَ؟

*

٧

Costa Di Morsiano 07-08 October 2008

في كْـــــــوارا Quara

شيخٌ إيطاليٌّ يجلسُ في بابِ المقهى. يجلسُ في الشمسِ ضُحىً.
الناسُ يجيئونَ. الفتياتُ يجِئنَ. و كان يناديهِم بالأســـماءِ.
يناديهِم بالأسماءِ جميعاً. باولو!باولا... وإلخ. لكنّ الناسَ
جميعاً لا يلتفتون. المقهى يزدحمُ. السوقُ الأسبوعيةُ تبتدئُ.
الشيخُ الجالسُ في بابِ المقهى. في الشمسِ ضحىً. يتركُ كرسيَّ
المقهى، ويغيبُ بمنعطَفٍ يأخذهُ نحوَ سبيلٍ مجهول....

*

للمرةِ الأولى، منذ مجيئي إلى قرية مورسيانو بسلسلة جبال الأبَنِين الإيطالية، سمعتُ ناقوسَ الكنيسة، وقد حملَ السكونُ الشاملُ رنينَه إلى ناحيتنا. كانت الساعة الثانية عشرةَ تماماً، منتصفَ النهارِ. اليومَ لم أسمعْ هذا الناقوسَ، لا نهاراً ولا ليلاً! قيل لـي إن الناسَ هنا غيرُ متديِّنين، لأسبابٍ تاريخيةٍ، منها أن هذه المنطقةَ كانت ضمن جمهورية المقاوَمة التي أعلنَها الشيوعيون الإيطاليون في العام ١٩٤٤، الجمهورية التي اتخذت مـــــونت فيورينو عاصمةً لها،

وقلـــــــعةَ (صخرة) مونت فيورينو مقرّاً لقيادتِها، قبلَ أن يجتاحَها الجيشُ الألمانيُّ.

على أي حالٍ. . .
على الطاولة التي جلسنا إليها في المقهى، حيث كان الشيخُ، ورقةٌ عريضة، إعــــلانٌ أو شِبْهُ إعلان.
الفضول دفعَني إلى محاولة قراءة الورقة:

الأحد، الثاني عشر من أكتوبر ٢٠٠٨
الذكرى الرابعة والستون لأحداث توانو

تضمّنَ الإعلانُ تفاصيلَ الحفل، وفيها خُطَبٌ وموسيقى، كما أوردَ الإعلانُ أسماءَ المقاوِمين الأحدَ عشـــرَ الذين قُتِلوا يوم الثاني عشر من أكتوبر ١٩٤٤

لويجي تشيرفي Luigi Cervi
نينو فانتوسّي Nino Fantuzzi
والتر غانديني Walter Gandini
إنريكو كامبارَللي Enrico Gambarelli
كلودوفيو غاللي Clodoveo Galli
أليتي باغلياني Alete Pagliani

فيتورير روفرسي Vittorio Roversi
فرانكو سبيسّاني Franco Spezzani
ماريو فيروني Mario Veroni
فنتشينزو فالاّ Vencenzo Valla
فالتر ستيروني Walter zironi

مَن يدري؟
أكان الشيخُ، شيخُ المقهى المختفي، ينادي سِرّاً أو علَناً أولئك المقاومين الأحدَ عشـرَ؟
لقد كان قريباً منا، يراقبنا، ونحن نتفحّص الإعلانَ.

*

٨

Costa Di Morsiano 09 October 2008

شـــــجرةُ اللهِ

كلَّ خريفٍ تنفضُ أشجارُ التفّاحِ، التفّاحَ،
وتُبقِي الأوراقَ. . .
الأوراقَ الخُضرَ، الأوراقَ المشدودةَ كالجِلْدِ إلى الأغصانِ
كأنّ الأشجارَ تقولُ:
الأثمارُ طعامُ الإنسانِ
ولكنّ الأوراقَ بيارقُ مملكتي. . .

*

أسميتُ شجرةَ التفّاحِ، عند استدارةِ الـمَمشـــى من الدارةِ إلى الطريق العامّ، بالقرية، شجرةَ الله.
لأسبابٍ منها أن الشاعرَ حِسَب الشيخ جعفر أسْمى نخلتَه الشهيرةَ نخلةَ الله، ومنها أن شجرةَ التفّاحِ هذه يأكلُ منها النحل والطيرُ والظبيُ والخنزيرُ البرّيّ، ويأكلُ منها الفقراءُ أمثالي. الشجرةُ تنفضُ أثمارَها، ليلاً كما يبدو، أو نهاراً حين تتحرّكُ الريحُ. مرّةً واحدةً سقطتْ منها تفّاحةٌ على

رأسي. لم أشعرْ بأذىً. ربّما قدّرتْ التفاحةُ الساقطةُ ما أنوءُ به من عناءٍ. أمسِ الأولَ رأيتُ امرأةً متّشحةً بالسوادِ تجمعُ ما تختارُه من تفّاحٍ مُسّاقِطٍ. آنَ اقتربتُ أسرعتْ مبتعدةً!

لكنّي لا أجدُ حرَجاً في أن أجمعَ الصالحَ من التفّاحِ. التفاحةُ الساقطةُ تنفلجُ أو تتعفّرُ. وعليكَ أن تجدَ تفّاحاتِكَ اللواتي ستُباهي بهِنَّ الأممَ!

الفلاّحُ الذي كان يدفعُ، أمامه، عربةً من ذواتِ العجلةِ الواحدةِ، هو مثلي، لا يجدُ حرَجاً في أن يجمعَ الصالحَ من التفّاحِ. النحلةُ تفعلُ ذلك، والطيرُ، والظبيُ، والخنزيرُ البرّيّ.

مَن قالَ إن تفّاحَ شجرةِ الله فاسدٌ؟

في صحنٍ عريضٍ على مائدة المنزلِ، كان تفّاحٌ أخضرُ مشترىً.

جئتُ بتفّاحاتِ شجرةِ الله ووضعتُها في الصحن جوارَ التفّاح الأخضر المشترى. تفّاحُ شجرةِ الله كان يتيه بألوانهِ: الخدّ والخدّ. . .

رائحةُ المكان اختلفتْ. لقد دخلت الغابةُ. دخلت شجرةُ الله إلى هذه الحجرة من الدارةِ العاليةِ!

*

ما أكتبُه اليومَ، هو من ملحوظاتِ أمسِ.

كانت جْوان تبحثُ عن موضوعٍ لقصيدةٍ تكتبُها.

مررنا بشجرةِ الله.

قلتُ لجوان: هل أقترحُ لكِ موضوعاً؟

قالت: مرحباً!

قلتُ لها: شجرةُ التفّاحِ تُسقِطُ تفّاحَها، وتُبقي على الأوراقِ. . .
كانت أرضُ الممشـــى مفروشـــةً بالتفّاحِ. شجرةُ اللهِ تتألق، تحتَ شمسٍ خريفيةٍ ساطعةٍ، متباهيةً بورقٍ أخضر، لا أزهى ولا أبهى من خضرته، بينما شجرة البلّوطِ المجاورة تنثر ورقَها الأصفرَ على الممشـــى نفســـه.

٩

Costa Di Morsiano 10 October 2008

حُــــمْـــــرةٌ

فَجأةً، حتى بلا معنىً . . . تَمادى الكونُ في الـحُمرةِ.
وجهُ المرأةِ احمَرَّ. صدارُ الصوفِ يَحْـمَـــــرُّ. المماشـي
في الشِّعابِ احمرَّت. الغيمةُ والسَّــروةُ تَـحْمَــــــرّانِ.
والأوراقُ في الأشجارِ والأحلام تَحْـمَـــرُّ. خريـــفُ
الأبَنِـين. الخمرُ والجَوزُ. عروقُ الكفِّ إذْ تُمسِـــكُ
بالكأسِ. أهذا ما نُسَــمِّـيهِ الخريف؟

*

قد كنتُ سَمعتُ عمّا يطرأُ على الطبيعةِ من تحوُّلٍ في شهر أكتوبر (أنا أتحدّث عن الطبـــيعة في أوربا). لكنني هنا، في هذه المنطقة المنقطعةِ من سلسلة جبال الأبَنين، أرقَبُ بفضولٍ واستمتاعٍ،
ما تهَبُهُ الأرضُ لساكنيها من نبْتٍ و بشرٍ وحيوان. الهِبةُ، هنا، وفي أواسط أكتوبر، هي الجمالُ مُـطْلَقاً. نقّارُ الخشبِ أخضرُ في الأبَنين، يطيرُ في شبهِ تمَـوُّجٍ. إنها المرّةُ الأولى في حياتي التي

أرى فيها نقّارَ خشبٍ أخضرَ اللونِ. نقّارَ خشبٍ يطيرُ. كنتُ أراه دائماً مُكِبّاً على الجذع: تِكْ تِكْ تِكْ!

الأوراقُ في تحوُّلٍ. اصفر. جوزيّ. بُنّيّ. أحمر. أحمرُ فاقعٌ. أحمرُ نحاسـيّ. أحمرُ ناريٌّ. أحمرُ لا يُسَمّى.

الظباءُ تتجوّلُ حرّةً. أحياناً تتوقّفُ محَدِّقةً فيكَ، متسائلةً: مَن جاء بك إلى حارتِنا؟ طيرُ الحَجَلِ لا يجفلُ منكَ. الطيورُ تَسْرحُ كالأنعامِ. النبيذُ الجديدُ، فوّاراً (كما يحبُّهُ أهلُ المنطقةِ) وغيرَ فوّارٍ سيُقيمُ مهرجانَه بعد يومَين. سوف نذهبُ كالحجيجِ إلى تلك القرية المبارَكـة!

المساءُ شـرعَ يهبطُ.

كان الغيمُ أحمرَ ورديّـاً.

*

جاءتْ إليّ يمامتانِ

وحطَّتا فوقَ الوسادةِ في الصباحِ...

وقالتا:

سنكونُ، يا سعدي، جناحَيكَ!

انتبِهْ!

إن الحياةَ كريهةٌ

لو عِشْـتَها مُتَتَبِّعاً مَن هَبَّ أو دَبَّ...

الحياةُ كريمةٌ

لو عِشْتَها كالطيرِ... يا سعدي!

*

انقشعَ الضبابُ ســريعاً، هذا الصباح. بدت البيوتُ على السفح المقابلِ واضحةً. كان شــيءٌ من ندى الليلِ يبلل الممشــى، خارجَ الدارةِ، حتى ليتوهّم المرءُ أن المطر جاء في الليل.

القطةُ تعرف قبلَ غيرِها أن المطر لم يأتِ ليلاً، ولن يأتي اليومَ أيضاً. القطةُ تشحذ مخالبَها على جذعِ شجرةِ بلّوطٍ معيّنــةٍ.

لستُ أدري إنْ كنّا سنذهبُ، هذا النهارَ، في جولةٍ ما.

جاءت سيلفانا مع فوزي، من ميلانو، في الصباح الباكرِ.

قالت إن أباها المقيم في مأوى للشيوخ في فيلاّ مينوسّــو القريبة، هو في حالةٍ صحيةٍ ليست حسنةٍ.

أخبروها ذلك بالهاتف.

رجوتُها مع فوزي أن يدخلا.

قالا: علينا أن نسرعَ إلى فيلاّ مينوسّــو.

قد يكون الطبيب هناك.

والدُ سيلفانا يبلغ الرابعةَ والثمانين. نتمنى له العافيةَ والعمرَ المديدَ...

ونحن نستخدمُ سيارتَه الباندا!

في حوالَي الساعةِ الواحدةِ ظُهراً، عُدنا من جولتنا الصباحيةِ لنجد سيلفانا وفوزي في المنزل.

قالت سيلفانا إن أباها بخير.

*

الساعة الثالثة عصراً.

أنا في الشرفةِ.

جْوان ذهبتْ في ما عبّرتْ عنه بالجولة الطويلةِ مشياً.
ربما ذهبتْ مستاءةً مني لأني كنتُ منهمكاً، كنقّارِ الخشب، بالكومبيوتر: تِكْ تِكْ تِكْ!
لم أُجِبْها إلى ندائها المتكرر حول صحنِ الغَداء...
بدأ الجوّ يتغيّر قليلاً، أعني أن نسيماً بارداً أخذ يهبّ. هذا النسيمُ قد يتحوّلُ إلى ريحٍ، والريحُ غيرُ مأمونةٍ في هذه الجهاتِ.
ثمّ أننا في أواسط أكتوبر!
الشمسُ لا تزالُ تبعثُ الدفءَ في مفاصلي. لكنّ عليّ الدخولَ إلى الدارةِ إذْ أن الّلابتوب (الكومبيوتر المحتضَن) لا يُقرأُ واضحاً في الشمس.
جْوان لم تأتِ بَعدُ.
لقد طالت جولتُها...
لستُ قلِقاً، فالناسُ في هذه المنطقة الجبلية النائية من إيطاليا مُفعَمونَ ودّاً ونخوةً وخُلُقاً رفيعاً.
سوف أُنهي هذه الصفحةَ العشرين من كتاباتي الأَبَنينيّةِ الآنَ.
وقد استمتعُ بقيلولةٍ متأخرةٍ جداً مقايَسَةً بأهلِ المنطقة!
لن أقول: مساء الخير.
المساء لن يأتي سريعاً.
الغيومُ الشفيفةُ ستتلوّن بالورديّ أكيداً.
آنَها يحقُّ لي أن أقول: مساء الخير!

١٠

Costa Di Morsiano 1October ¡

أغنيـــــــةٌ

يا ما أخذتُ الهَـــوى
بالحُلْمِ والأحضانْ...
أغفو على نِـعْـمةٍ
أطفو على ريحانْ.
والبَدرُ في راحتي
والوردُ في البستانْ...
يا ليتَ شمسَ الضحى
حَـنّتْ على الولهانْ!

❊

مساءَ أمسِ، كانت سفوحُ الجبالِ لا تكادُ تَبِيْـــنُ. ضبابٌ كثيفٌ أطبَقَ على هذه الجهة من الأبَنِين. لا يكادُ المرءُ يتبيَّنُ شيئاً، بشراً، أو شجراً، أو حَجَراً. ليلٌ مُنذِرٌ!
لكنه ليس كليلِ النابغة أكيداً.
ربّما سمعَ المرءُ قِباعَ خنزيرٍ برّيٍّ. هذا كلُ ما في الأمر.

الليلُ دافئ.
هل سيكون الصباحُ دافئاً؟
قد كنتُ ألـمَحْتُ إلى أنني أشكو من ارتفاعٍ ما في ضغطِ الدمِ أدّى إلى آلامٍ في ساقي اليسرى تُعرقِلُ حركتي الحرّةَ حين أمشـــي.
أوصتْني طبيبتي بتناولِ قُرصٍ واحدٍ يومياً لتخفيض الضغطِ، وبالمشيِ حتى لو عانيتُ من ألمٍ.
وقد صَدَعْتُ بما أمَرَتْ!
لكني لم أشعرْ بآلامٍ في ساقي اليسرى، هذا الصباحَ. أكان ذلك بسببٍ من الدفء العميم؟
أكان ذلكَ بسببِ ليلةِ حُبٍّ غامرةٍ؟
أنا سعيدٌ على أيّ حالٍ!

*

اليومَ، سنحتفل بعيد ميلاد سيلفانا!
سوف نذهب إلى مكان (قريبٍ؟) بمقاييس المنطقةِ من فيلّلا مينوسّو. نذهب إلى ممرّ برادَرِينا، Passo Di Pradarena وثمّتَ مطعمٌ شـــهيرٌ يطلُّ على الوادي.
سننطلق من مورسيانو في الساعة الثانية عشـــرةَ تماماً!
بعد حوالَي ســـاعتَينِ من ارتقاءِ الجبال في طريقٍ جيدٍ لكنْ شـــديدِ التعرُّجِ، بلغْنا المكانَ:
كان يرتفع أربعة آلافِ قدم عن سطح البحر.
الشجرُ زانٌ احمرّتْ أوراقُهُ حتى غدا الجبلُ أحمرَ.
و تَنّوبٌ اخضرَّتْ أوراقُهُ إلى أبد الآبدين!

ما إن تهبط من المطعم حتى ينفتحَ أمامك الطريقُ إلى توسكانيا،
الطريقُ إلى بلدة لوقا Lucca القديمة، البلدةِ ذاتِ الأسوارِ، أسوارِ
القرونِ الوســطى.
أمضينا في المطعمِ ساعةً ونصفَ الساعةِ.
الغداء فاخرٌ. لحومٌ من المنطقة. خمرٌ من المنزل. خبزٌ توسكانيّ.
معجَّناتٌ مع الفِطْرِ، فــطْرِ الغابة.
في العودةُ ســهَّلَ المنحدَرُ عبءَ الطريقِ الطويلِ.
مررنا بـ Sologno ســولونيو، التي سيقامُ فيها غداً، الأحَدَ،
مهرجانُ النبيذِ الجديدِ. . .
البلدةُ هذه، من القرون الوسطى أيضاً، لكنها غيرُ ذاتِ أســوارٍ.
ولسوفَ نكونُ هناك.
لكنْ ليس مع الفجرِ الأولِ، إذ أننا سننامُ حتى الضحى!
ليكُنْ عيدُ ميلادِكِ، يا سيلفانا، الأبهى بين الأعيادِ!

*

١١

Costa Di Morsiano 12 October 2008

أشجارُ الزانِ بأعلى الجبلِ العالي

اندفعَتْ تحتَ سماءٍ صافيةٍ ســـقفاً للعالَمِ . . .

أشجارُ الزانِ تلوِّنُ هذا الجبلَ العالي

سقفَ العالَمِ

بالأحمرِ والجَوزيّ، وبالأصفرِ والورديّ.

أحاورُ غصنَ الزانِ

أحاولُ أن ألْـمُـســَـــهُ

أن أتقرّى باللمسِ الأوراقَ

الأوراقَ الحمراءَ

الصفراءَ

الورديّةَ . . .

كان الورقُ الجوزيّ يُطقطِقُ تحت أصابعيَ

الورقُ الأحمرُ يرتجفُ

الورقُ الأصفرُ يخشوشِنُ كالجِلْـــدِ

الورقُ الورديّ يدغدغُني . . .

يا شجرَ الزانِ بأعلى الجبلِ العالي
هل ترضى بي غصناً في سقفِ العالَم؟
هل ترضى بي واحدةً من أوراقِكَ؟
واحدةً حمراءَ . . .

❋

في الساعة الحاديةَ عشرةَ، كنتُ مع جْوان في سولونيو، حيث مهرجانُ النبيذِ الجديد.
المهرجاناتُ، في هذه النواحي من إيطاليا، متواضعةٌ، لكنها حقيقية. أعني أن المبالَغة أمرٌ قد يرفضه الناس.
النبيذ الجديدُ أقربُ في طعمه إلى الحلاوة.
وهو يقَدَّمُ مجّاناً!
أخذتُ ثلاثَ كؤوسٍ منه، كذلك فعلتْ جْوان.
أمضَينا في البلدةِ ساعتَينِ.

❋

اخترتُ العزلةَ التامّةَ.
سعيدٌ بأنني لم أعُدْ متلهفاً على البريد الإلكترونيّ.
سعيدٌ بأنني لا أفتحُ جهازَ التلفزيون.
سعيدٌ بأنني لا أسمعُ الأخبارَ، ولا أسألُ عنها.
سعيدٌ بأنّ رنينَ الهاتفِ همَدَ تماماً.
سعيدٌ بأنني لم أعُدْ أتذكّرُ أحداً من المدينةِ التي غادرتُها قبل أسبوعَينِ.

❋

هل بإمكانِ المرءِ أن يُعِيدَ تشكيلَ ذاكرتِهِ؟
أن يستبعدَ قديماً، ويستعيدَ جديداً؟
أعتقدُ أن الأمرَ ممكنٌ.
أليسَ الإنسانُ أذكى من الآلةِ؟
الكومبيوتر يفعل ذلكَ. لِمَ لا يفعلُ الإنسانُ الأمرَ ذاتَه؟

١٢

Costa Di Morsiano 13 October 2008

هل هذا الليلُ طويلٌ حقّاً؟ غابتْ شمسٌ باردةٌ خلفَ جبالٍ.
واختفت القطةُ بين العشبِ العالي كالنَّـمِرِ. القمرُ المكتـــملُ
أستقبلَ شُـــرفةَ دارتِنا ومضى يسألني عن أقمارٍ نائـــمةٍ
في مخطوطاتٍ جِـلْــدٍ. أسمعُ خشخشـــةً في قاعِ النهرِ اليابسِ
أهُوَ الخنزيرُ الوحشـيُّ؟ الخنزيرُ القاتلُ في قِرْطاجَـنّـــــةَ؟
أَمْ أنّ ظِباءً ضلّتْ مسلكَها إذْ فزِعَتْ من طلقةِ صيّادٍ كـــــان
يجرِّبُ أن يُصْلِحَ في الليلِ سلاحاً خابَ نهاراً؟ لا أسمـــعُ
طيراً. لا مِن كلبٍ ينبحُ. ثَمَّ ســـماءٌ صافيةٌ من دونِ نجومٍ.
ثَمَّ تهاويلُ الشجرِ، البلّوطـةِ في منعطفِ الممشـــــــى،
والتفّاحةِ عندَ الوهْدةِ. أطلالُ النَّــهدةِ لا تبدو أطــلالاً.
هل هذا الليلُ طويلٌ حقّاً؟

❊

إنجليز اشـترَوا أرضاً، هنا في الأبَنين، غيرَ بعيدِينَ عن دارةِ سيلفانا وفوزي. بل أن بمقدوركَ أن ترى أملاكهم حين تخرج من الدارة العالية، إذ أنهم في ما يشبهُ الوهدةَ مقايسةً بموقع الدارةِ.

المنزل الإنجليزيّ من خشبٍ جوزيّ اللونِ. المنزلُ واسعٌ تسوِّرُهُ حديقةٌ ذاتُ ممشىً ضيّقٍ كالخندق.

سيّارتُهم الميني كوبَر ماثلةٌ، كالعلامة المسجّلة. لم أرَ أحداً يدخل إلى المنزل أو يخرجُ منه. سألتُ جْوان. قالت: إنهم هنا. كيفَ عرفتِ؟ أعرفُ! أتحبين أن تقولي لهم: مرحباً؟ لا أريد!

أحياناً أتساءلُ مع نفسي، وأنا أمرُّ في جولتي المعتادة على المنزل الإنجليزيّ: لِمَ، إذاً، جاءَ القومُ إلى إيطاليا؟ إلى ريفِ الأَبَنين تحديداً؟

أتُراهم سيظلّونَ يشربونَ شايَهم اللعينَ، داخلَ مُلْكِهِم الخاصّ إلى الأبد؟

١٣

Costa Di Morsiano 14 October 2008

منازلُ بِيضٌ في السفحِ. ضبابٌ. آخرُ مصباحٍ للدربِ.
صنوبرةٌ تَحجِبُ مرأى السّقفِ ببيتِ الأُختَــينِ.
لِماذاَ أنظرُ في اللاشَـيءِ؟ هل الدنيا واســعــــــــةٌ؟
ساقي تؤلـمُني. أتُراني ســرتُ طويلاً وبـــعيداً؟
أعَلَيَّ لُزومُ البيتِ؟ لُـــزومُ قوانينِ السَّـــــيرِ...
منازلُ بِيضٌ في السفحِ.
ضَبابٌ ينقشعُ...

*

سوناتا موتسارت الثانيةَ عشـــرةَ!
كم فكّرتُ، ولو كالأحمقِ أني سأؤلِّفُ سوناتا...
لكنّ لنا، نحن، الشعراءَ، الحقَّ بـ «سُــونَيت» الشعراء.
ليس لنا أن نتدخّلَ في ما ليس لنا.
مرةً، كنتُ أرحلُ على ضفة الدانوب. بلغتُ الديرَ الشهـــيرَ، حيث
كتبَ أمبـــــرتو إيـــــــــكو «اسم الوردة».
هناك رأيتُ موتسارت الطفلَ.

قد كان أُجلِسَ على برميلٍ كي تبلغَ أناملُهُ مفاتيح الأرغن. كان بكامل مَلْبسِهِ!

قيل إن السوناتا الثانيةَ عشرةَ من اشهرِ الأعمالِ الموسيقيةِ حِسِّيّةً.

مشكلةُ السونَيت في الشعر، أن الشكل فيه محدَّدٌ جداً.

الأمرُ كذلك مع السوناتا. لكنّ موتسارت ليس محدَّداً!

١٤

Costa Di Morsiano 15 October 2008

كأنّ سِـلْكاً رفيعاً يخترقُ ساقي اليسرى
ابتداءً من القَـدَم.
عسيرٌ عليّ أن أصلَ إلى الباب المفتوحِ على الشرفةِ
الشرفةِ التي أرى منها منازلَ السفحِ
والصنوبرةَ
والكنيسةَ البعيدةَ التي يقتربُ منها الغيمُ الشفيفُ.
لا أريدُ أن أتدلّى في البئرِ
مع محفوظاتي عن حدائقَ قطعتُها راكضاً في الضحى
وعن ضفة الدانوب التي شهدتْ عَرَقي يقْطُرُ على الثلجِ.
أريد أن أصلَ إلى الشـــرفة...
إلى الشُّرفةِ فقط.

*

لستُ أتعمّدُ استعادةَ الصباحِ. لكني، في ألـمي النغّارِ، أجِدُني مدوَّخاً بجمالِ ما كنتُ فيه. تلالٌ، ومروجٌ أكثرُ. شجرٌ لا يمنحُ شِبراً لغيرِ الشجرِ. السماءُ قريبةٌ. كأنّ الشـــجرَ أعشاشٌ عجيبةٌ لطيورٍ نعرفُها. منازلُ تحسَبُها ضائعةً بين سلاسلِ الجبالِ. قِيعانُ أنهارٍ يابسةٌ

تنتظرُ أيامَ الهديرِ. سوقٌ أسبوعيةٌ في إحدى القرى يبيعُ فيها مغاربةٌ حقائبَ نسوةٍ من جِلْدٍ كاذبٍ. سألْنا امرأةً إن كان هناك مقهى قريبٌ. قالت: لا أفهم. أشعرُ، هنا، بأنّ لندن أسطورةٌ في الكتب. ما معنى المدينةِ؟ ماذا يمكنُ للمدينةِ أن تهَبَ إزاءَ كلِ هذا الجمالِ؟ثلاثةُ ظِباءٍ تقطع الطريقَ العامَّ متمهلةً كأنها تسلكُ ممرَّها الأثيرَ في الغابةِ. عسلٌ برِّيٌّ. عسلٌ أســودُ في الشاي. في سولونيو كان النبيذُ الجديدُ خفيفاً أقربَ إلى الحلاوة. شجرةُ التفّاحِ عند ممشـى الدارةِ ظلّتْ تُسقِطُ ثمارَها منذ أسبوعَين. الآنَ تحملُ الشـجرةُ ورقاً أكثرَ من الثمرِ. لكنّ شجرةَ تفّاحٍ أخرى، عند الجيرانِ، بدأتْ تنفضُ تفّاحَها، أخضرَ، صُلْباً.

١٥

Costa Di Morsiano 16 October 2008

غُــوْفـــــا Gova

أهبِطُ، وأهبطُ.
ثمانيةُ كيلومتراتٍ من الهبوطِ. بعدَها «الجســـرُ الروماني».
إيطاليا، كلُّها، جسرٌ رومانيّ. لكنّ غوفا لها جسرُها أيضاً.
تعبتُ من الهبوطِ. قلتُ للسيدة الإنجليزية: أستريحُ هنا!
على مصطبةٍ خشبٍ باليةٍ جلستُ. حولي منازلُ ثلاثةٌ تسمعُ أحياناً أصواتَ ساكنيها، لكنك لا تراهم. هل كان الرومانُ هنا؟ هل ابتنَوا جسرَهم، قنطرتَهم، ليَصِلوا بين جبلَينِ؟
الورقُ يَسّاقَطُ حولي. أسمعُ للمرةِ الأولى في حياتي الصـــوتَ الخارقَ لورقةٍ تسقطُ. كأنّ امرَءاً يخطو خطوتَه الأولى علــى الأرضِ. الصوتُ خارقٌ، وكنتُ مع كلِ ورقةٍ تسقطُ أنظرُ إلى المنعطَفِ. أهي خطوةُ السيدةِ؟ الأرضُ كـــــلُّها ورقٌ أصفرُ و بُنِّي. ثمرُ الكستناءِ منثورٌ علـــى الورقِ. أنا جالسٌ علـــى المصطبةِ القديمةِ أتأمّلُ الأرضَ. ألمحُ فراشةً صغيرةً على الورق.

أهيَ كسيرةُ الجناحِ؟ نملةٌ تأتي وتحاولُ أن تسحبَ الفراشةَ من جناحِها الـمَهِيض. أتدخّلُ لأنقذَ الفراشةَ. آخذُها بين أناملي. أتأمّلُها. أميّتةٌ هيَ؟ أُعيدُها إلى منزلِ الورق. النملةُ تأتي في أقلّ من لحظةٍ، لتُمسِكَ ثانيةً بالجناحِ. تسقطُ ورقةٌ وأنظرُ إلى المنعطَف. السيدةُ الإنجليزيةُ تعود متوردةَ الوجنتَينِ.

١٦

Costa Di Morsiano 16 October 2008

اليوم، خميسٌ. آخرُ خميسٍ لي في هذا الوادي غيرِ العميقِ من جبالِ الأَبَنين. الريحُ نشيطةٌ. وأوراقُ الخريفِ تسقطُ في هَبّاتٍ صُفْــرٍ، لا واحدةً واحدةً كما رأيتُ في الأيامِ السابقةِ. أفي الجوّ بردٌ خفيفٌ؟

ساقي اليسرى تؤلِــمُني بالرغمِ من الفولتارين الذي تناولتُهُ مع فطور الصباحِ. ألأنّ الجوّ تبدّلّ قليلاً إلى الباردِ؟ أمسِ، في بار «كْوارا» الذي أرتاده اعتياداً، رأيتُ عاملاً مغربيّ الملامحِ يُسْنِدُ عكّازتَيهِ إلى البارِ، ويتناول مشروباً غيرَ كحوليّ، بينما صاحبُه الإيطاليّ يتناول كأسَ نبيذٍ توسكانيّ أحمر.

حيّيتُهُ بالعربية. التفتَ إليّ غيرَ مُصَدّقٍ. ردَّ عليّ السلامَ. استفسرتُ منه إنْ كانت إصابتُهُ نتيجة حادثةِ سَيرٍ. أجابَ: حادثة عملٍ. كان لا يزال غيرَ مُصَدِّقٍ أن شخصاًما يتكلّمُ العربيةَ في هذه القريةِ المنقطعةِ بالأَبَنين. سألَني: أرأيتَ طنجةَ؟ أرأيتَ طنجةَ؟

عددتُ له كل مدن المغربِ التي زرتُها من سبتة إلى وجدة. لكن طنجة لم تكن من بينِها! وعاد يسألني: هل رأيتَ طنجة؟

اعتقدُ أنه كان يظنني إيطالياً يعرف شيئاً من العربية. ربما لأنه رآني

مع السيدة الإنجليزية نرتشفُ نبيذاً أحمرَ توسكانيّاً، شأنَ صاحبِه الإيطاليّ!

غادَرَ الشابُّ المغربيُّ، البارَ، بمساعدةٍ من صاحبه الإيطاليّ.

لم أحظَ بتحيةٍ منه إذ غادرَ المكانَ.

في طريقِ عودتنا من كْوارا إلى مورسيانو حيثُ نُقيمُ. لمحتْ جْوان امرأتَينِ تسيرانِ على جانب الطريقِ. كانت إحداهما تغطّي شَعرَها.

نظرتُ إليهما. كانتا فتاتَينِ مغربيّتَينِ شديدتَي السُّمرةِ.

لا بُدّ أنهما تشكّلانِ مع الشابّ ذي العكّازتَينِ، الجاليةَ المغربيةَ بهذه القريةِ الإيطاليةِ: كْوارا!

*

البردُ يشتدُّ.

دخلتْ جْوان إلى المنزلِ بعد أن كانت جالسةً في الحديقةِ.

قالت: العاصفةُ تقتربُ!

١٧

Costa Di Morsiano 17 October 2008

الجمعة. سيلفانا وفوزي سوف يصلانِ من ميلانو بعد الظهر، كعادتهما، لنقضي عطلةَ الأسبوع الأخيرةَ، معاً.

عصرَ أمسِ، الخميس، هطل المطرُ. لم يكُنْ غزيراً، لكنه كان كافياً ليُعَلِّقَ قُزَحٌ قوســـَهُ. للمرة الأولى في حياتي أرى قوسَ قُزَحٍ يهبِطُ إلى الوادي من سفحِ الجبلِ! أعني أن قوس قُزَحٍ لم يكُن، مثل مَا عهدْنا، يصِلُ بينَ طرَفَـــي السماءِ. أمسِ أيضا، اشتدّتْ آلامُ ساقي. أوَيتُ إلى الفراشِ مبكراً جداً.

من كُـوّةٍ في غرفةِ النومِ، لا بُدَّ لي من أن أتابعَ بنظري، ما يواجهني خارج الغرفة، خارج المنزل.

آخرَ مصباحٍ في الدربِ.

سبعَ نوافذَ موقَدةِ الأنوارِ على السفحِ الآخرِ.

بُرْجَ كنيسةِ مادونا المرتفَعات.

لكنّ الليلَ يُخَشْخِشُ بالأصواتِ. . .

أتَوَهَّمُ أني أسمعُ مسعى القنفذِ.

ذيلَ الثعلبِ. خِطْمَ الخنزيرِ الوحشيِّ. حفيفَ الظبيِ. الحيّةَ.

أحياناً أتوهَّمُ أني أسمعُ صوتي. . .

وأشُـــمُّ روائحَ:
أزهاراً تتفتّحُ في الليلِ. وتِـبْنـــاً محترقاً. مَوقِدَ قسِّيسِ القريةِ. أرديةَ امرأةٍ تُنْـضى.

*

هل أعودُ إلى المكانِ؟
ليس من عودةٍ. المكانُ لن يكونَ هذا المكانَ.

*

ســاقي تؤلِــمُـني.
لن تحملَـني بعيداً.
أو قد تحملُــني ابعدَ مـمّــا أريدُ!

---

* اكتملَ النصّ.

في البراري حيثُ البرق

تموز في كوبنهاجن

في هذي الضاحيةِ الصغرى من كوبنهاجن
(لم أرَ في كوبنهاجن ضاحيةً كبرى)
كنتُ أفيقُ على امرأةٍ تركبُ درّاجتَها
(مسرعةً دوماً)
أتساءلُ: هل تتمهّلُ يوماً؟
هل تتساءلُ: مَن هذا الجالسُ في الشرفةِ فجراً؟
هذا القادمُ من لا أين
هل ستقولُ: صباح الخير؟
. . . .
. . . .
. . . .
ولكنّ المرأةَ مسرعةٌ دوماً
مسرعةٌ لا تتمهّلُ
تركبُ درّاجتَها، مكنسةَ الساحرةِ
الصبحُ هنا يتمهّلُ
والطيرُ يدندنُ في شبه خفوتٍ
والقهوةُ تُبطيءُ في الركوةِ

والبحرُ بلا موجٍ
والرجلُ الجالسُ في الشرفةِ سوف يظلُّ الرجلَ الجالسَ في الشرفةِ
. . . .
. . . .
. . . .
لكنّ المرأةَ مسرعةٌ
أتقولُ: إلى أين؟

كوبنهاجن، ٢٠٠٨/٠٧/٠٤

لــونُ اللافَـنْـدَر

اللافندَر فُوقَ سياجِ كنيسٍ مهجورٍ
ينسجُ، في ظلِّ الأَشجار، بنفسجَــهُ صيفيّــاً
حتى كاد جنوبُ فرنسا يملكُ هذا الحيَّ من العاصمةِ الدانيماركيةِ
أجلسُ في الشرفةِ
لم تأتِ امرأةُ الدرّاجةِ
لم تأتِ امرأةٌ
أتُراها تَسْــبِتُ في السبتِ؟
نسيمٌ يلمُسُ، في الصمتِ، أصيصَ النخلةِ في رُكنِ الشُّـــرفةِ
. . . .
. . . .
. . . .
هل ستعودُ القصصُ الأولى؟
أنا لا أجرؤُ أن أُغمِضَ عينَيَّ
مَخافةَ أن ألمحَــها
لكني أسمعُها
تلكَ الطائرةَ الحربيةَ
في الأفقِ الـمُـغْـبَـرّ

كوبنهاجن، ٠٥/ ٠٧/ ٢٠٠٨

صراحة

قالت: قد كنتُ أحبُّكَ...

لكنّ الدّنيا مسرعةٌ.

هل أبصرتَ جواداً يعدو في سَهْبٍ مرتفعِ العشبِ؟

الدنيا مسرعةٌ

وأنا المأخوذةَ بالشُّهُبِ

اخترتُ مصيرَ الشّهُبِ...

اتركْني!

أرجوكَ!

اتركْني...

بولزانو (إيطاليا)، ٢٠/٠٧/٢٠٠٨

عند بحيرةِ الأنهار الثلاثة

ومن أعلى البحيرةِ
مَـرَّ سِـــرْبٌ من الـوَزِّ العراقيِّ،
اشْـــرأبّتْ له الأعناقُ.
كان الـوَزُّ يمضي ســـريعاً، يُطْلِقُ الصيحاتِ،
عنقاً يكادُ يطولُ عُنْقَينِ. . .
السماءُ التي انفتحتْ تقولُ لهُ:
إلى أينَ تمضي؟
هل مَقاصدُكَ الجنوبُ الذي تدري. . .
أَم الأملُ الشمالُ؟

. . . .

. . . .

. . . .

البحيرةُ شِـبْـــهُ ساكنةٍ.
صباحٌ كما يأتي الصباحُ هنا.
تدورُ النوارسُ
والحمامُ يحِطُّ.
لكنْ. . .

بعيداً حيثُ نجهلُ،
كان سِـــرْبٌ من الوَزِّ العراقيّ
الـمُـغِـذِّ،
يصيحُ:
لا!
لا!

لندن، ٢٦/٠٧/٢٠٠٨

البُحيرةُ في الفضـاء

تصحو مع الفجرِ، دوماً، لا صلاةَ، ولا ناقوسَ يدعو
ولا احتكّتْ بكَ امرأة تحت الـمُلاءةِ. . .
قبلَ الطيرِ أنتَ. كجَـدِّكَ الأعلى امرئ القيسِ. البحيرةُ
بغتةً قامتْ. وآلافٌ مُؤَلَّـفةٌ من الطيرِ استفاقَتْ. ثَـمَّ
أجنحةٌ وأصواتٌ وفجرٌ أحمرُ الأوراقِ. ترتفعُ البحـــيرةُ
في الفضاءِ. أغابةٌ للـريشِ تَنْبتُ؟ أَمْ نَـثيرُ بنفســجٍ
في الكونِ؟ كان النوءُ طولَ الليلِ يهدرُ. والنوافذُ تختفي
في الماءِ. أنتَ، مبكِّراً، أدخلتَ رأسَـكَ تحتَ مُلتحَفٍ
ونِمْتَ. . . أغـفلةً كانتْ؟ أَم الساعاتُ قد قهرَتْكَ حتى
ألجأتْكَ إلى سلامِ الغَيبةِ؟
افتَحْ، هكذا، عينيكَ واسعتَينِ. . .
وانظُرْ:
أيّ معجزةٍ يجيءُ بها الجناح!

لندن، ٠١/٠٨/٢٠٠٨

جَـــسَــدٌ

تحبّ أن تُلصِقَ نهدَيها بصدري حين تغفو

وردةً. . .

ما أهدأَ الأنفاسَ!

لكنْ

كيف أغفو

وهي قد ألصقتِ النهدَينِ طَـيرَينِ

يرفّانِ بصدري؟

كيف أغفو؟

لندن، ٢٠٠٨/٠٩/٠٣

حميميّةٌ

نحن لا نأتي معاً. . .
أتركُها
هيَ
تأتي أوّلاً. . .
تُطْلِقُ الرعشةَ من أعماقِها في صرخةٍ مكتومةٍ،
ثم تقولُ:
الآنَ أنتَ

. . . .

. . . .

. . . .

الشرشفُ الأبيضُ مبتلٌّ
ومدعوكٌ
وفي داخلِها نارٌ تفيض.

لندن، ٢٠٠٨/٠٩/٠٦

مَبْحَثُ المكانِ

كيف لي أن أفوزَ بشِبرٍ من الأرضِ
أمضي به، والغزالةَ، حتى النهاياتِ؟
حتى أرى البحرَ أصفرَ
والسعفَ أزرقَ
والشمسَ خضراءَ...
كيف السبيلُ إلى ذلكَ الشِّـــبْـرِ؟
حيثُ الغناءُ الذي يترنّحُ
والطيرُ
حيثُ الصلاصلُ موجٌ،
وحيثُ الفضاءُ النشـــيدُ...

....

....

....

لقد ضاقت الأرضُ بي قدْرَ ما اتّسعتْ.
كيف لي أن أفوزَ بشِبْرٍ من الأرضِ؟
لا تَطرقوا البابَ ليلاً!
ولا تحتموا بالزجاجِ المضاعَفِ في شُـــرفتي...

لا تُعيدوا الكلامَ.
الطريقُ إليّ امّحتْ، منذُ عشرينَ عاماً، ملامِـحُـــها...
قد أفوزُ بشبرٍ من الأرضِ
أمضي به والغزالةَ...

لندن، ٢٠٠٨/٠٩/٠٧

سُـونَـيتَـة Sonnet

ناعساً تحتَ شمسٍ خريفيةٍ في المعسكَرِ. . .
لم تأتِ طائرةٌ. ربما كانت الطائراتُ تُغِيرُ
بعيداً هنالك حيثُ البرابرةُ المسْلِمون

ناعساً تحتَ شمسٍ شماليّةٍ. أنتِ شمـسي
وأمسي. تظللُني خُصلةٌ ذهبٌ. ونسيمٌ
حريرٌ. سنقتسمُ الخبزَ والـجُبنَ والخمرَ.
نقتسمُ القطرةَ. المنتهى والجنون

ناعساً تحتَ شمسِ الـمَراكبِ، أمضي
مع الماءِ هذا الشفيفِ، وأقضي الضحى
والظهيرةَ والعصرَ، بينَ الندى والغصونْ

ناعساً في ضَبابٍ من الغبَشِ. الشجرُ ازرَقَّ
ثَمّتَ صفصافةٌ تترجّحُ مقلوبةً في البحيرةِ.
كانت ذراعي الوسادةَ. أرجوكِ أن تثقي بي
وأن تُطبقي الجفنَ ناعمةً ومُنَعَّمةً. . . كي نكونْ

لندن، ٢٨/٠٩/٢٠٠٨

بَرشـلونـة

إنْ بلغتِ المدينةَ أمسيتِ في البحرِ. . .
أعرفُ أن الكنيسةَ قد أتعبتْكِ، فما شأننُـا والكنائسَ؟
أو أنّ ميرو سيلقاكِ في مطعمٍ. . .
أو أن صفّاً طويلاً من السائحين يزاحِمُ عشّاقَ بابلو بيكاسو!
المدينةُ ليستْ بهضْـــبتِها
أو بذكرى بنادقِها الفوضويّةِ. . .
إن المدينةَ في البحرِ
راياتُ كولُمبُسَ المستدقّةُ في البحرِ
قُبلتُكِ المستحيلةُ
في البحرِ. . .
لا تدفعيني بعيداً عن البحرِ
. . . .
. . . .
. . . .
إني أُحبُّكِ!

لندن، ٢٨/٠٩/٢٠٠٨

شجرُة الحَـوْرِ التـي أراها

شجرةُ الحَوْرِ التي أراها من النافذةِ الكبيرةِ في الغرفة الصغيرةِ
شجرةُ الحَوْرِ هذه
ظلتْ تقاومُ الخريفَ
حتى هذا اليومِ الثامن عشَر من أكتوبر.
فجأةً اصفَرَّ نصفُ أوراقِها
بينما ظلَّ النصفُ الآخرُ على خُضرتِهِ الشاحبةِ.
اختفت الجبالُ ومنازلُها
حتى أضواءُ المساءِ المبكِّرِ لم أعُدْ ألمحُها
اختفت الجبالُ ومنازلُها
حتى أضواءُ المساءِ المبكرِ لم أعُدْ ألمحُها
....
....
....
مطرٌ ضبابٌ يهطلُ على القريةِ.
العصافيرُ وحدَها سعيدةٌ بما يَحْدثُ.

Costa Di Morsiano
٢٠٠٨/١٠/١٨

أنتظرُ الصقورَ

المنازلُ تلك التي قد أردْنا أتتْ مثلَ ما قد أردْنا:
بيوتاً وراءَ التلالِ
ستائرَ من شبَكِ الـقُطنِ
نافذةً،
سُـلَّمـاً خشباً يصِلُ الأرضَ بالأرضِ.
لن نستريحَ إلى أننا قد بلَـغْـنا الـمُرادَ. . .
الطيورُ مغرِّدةٌ
والصقورُ التي نهشتْ لَـحْـمَنا، سنةً بعدَ أخرى، تحومُ
ولكنْ بعيداً. . .
ستتركُنا نتعفّنُ
داخلَ تلكَ البيوتِ التي قد أردْنا
البيوتِ التي ثَـبَّـتَـتْـنا وراءَ التلالِ
كما يَثْبُتُ الغيمُ. . .

لندن، ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٨

حَضــارِمـةٌ

ربما كان من حضرموتَ الطريقُ الذي لو سلكْناهُ عِشْنا
آنَها، نَـتْـبَعُ السَّـيْـلـةَ:
الماءُ من ألفِ عامٍ وأكثرَ أفرَغَ في البحرِ أشجارَهُ والشياه الهزيلةَ
أفرَغَ في البحرِ حتى تماثيلَنا
وعيونَ الشواهدِ...
صِرْنا مَكاشِيفَ
تخترقُ الشمسُ أجسادَنا كالمرايا.
وصِرنا رُعاةً
ولكنْ لأفيالِنا والنســـورِ.
دُعاةً
ولكنْ إلى الأرخبيلِ الذي عافَهُ اللهُ...
....
....
....
نائمةٌ حضرموتُ
وناعمةٌ مثلَ أوراقِ تَبْغٍ طريٍّ

سَتَقْرِصُنا ليلةً
لتقولَ: الطريقُ إلى مكّةَ اتَّضَحَ الآنَ،
والـحَـجرُ الأسودُ اجْـتَـرَفَـتْــهُ السيولُ
إلى البحرِ
حيثُ الخيول. . .

لندن، ٠١/١١/٢٠٠٨

بُـوْذا ؟

أنا مُـنْـحَنٍ
أنا مُنحنٍ للأرْزَةِ الزرقاءِ تَهْرَمُ
مُنحنٍ للأسطوانةِ
مُنحنٍ للغيمِ أبيضَ
مُنحنٍ للساحةِ السوداءِ في الظلْماءِ تلمَعُ
مُنحنٍ لعصائبِ الطيرِ المهاجرِ
مُنحنٍ لصديقتي إذْ غادرَتْ بيتَ الشمالِ تَقودُ تلكَ الـ «فُورْد»
قادِمةً إليَّ. . .
ومُنْحَنٍ لِـلِـباسِها التحتيّ.
إني أنحني لأقولَ: إني مُنْحَنٍ. . .
ما أجملَ الأشجارَ!
هل أبصرتَها إذ تنحني للريحِ والأمطارِ؟
هل أبصرتَها. . .
جبّارةً
وجميلةً
إذْ تنحني؟
أنا أنحني أيضاً. . . وأرفعُ للمساءِ الرّطْبِ قُبَّعَتي!

لندن، ٠٨/ ١١/ ٢٠٠٨

أُغنيـةٌ لشتاءٍ خفيفٍ

خفيفٌ هوَ المطـرُ
القطراتُ التي لا تُرى تجعلُ السورَ أبيضَ،
والدربَ أسودَ
والقطّةَ الـمُستَكِنّـــةَ خضراءَ
والغصنَ يُصغي. . .

خفيفٌ هو الشــجرُ
الورقُ الهشُّ يُطْوى كأوراقِ لَفِّ السجائرِ
والجذعُ يَهصِرُهُ النّوءُ
والطيرُ غابَ. . .
المساءُ الذي كنتُ أُقْنِعُ نفسي بهِ قد أراهُ. . .

خفيفٌ هو المرمرُ
التَفّت الساقُ بالساقِ. . .
والماءُ مُـنْـبَـجِـسٌ من عروقٍ ســـماويّةٍ
والأغاني مُقَـطّــعــةٌ

. . . .

. . . .

. . . .

سوفَ تُمسي الـمُلاءاتُ ماء. . .

لندن، ١٠/ ١١/ ٢٠٠٨

من هناك ترى الخيلَ...

لكنْ، ســـتَـرْقَى أوّلاً، ما كان يُدْعى التلَّ

أقصى القريةِ. . .

الآنَ، المنازلُ آوَتِ الغزلانَ والدَّغْلَ.

المنازلُ لا تُطِيقُ الخيلَ

والخيلُ الغريبةُ لا تطِيقُ المنزلَ.

الأشجارُ تهبِطُ سُـــلَّـماً أخْفَتهُ أعشابُ الخريفِ الراحلِ.

الدربُ استدارَ

فكانَ مُـنْـفَـسَحٌ. . .

عليكَ الآنَ أن تجدَ اختلاجاً للصلاةِ

عليكَ أن تتجنّبَ الكلماتِ:

أنت الآنَ في الوادِ المقدّسِ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

هل ترى ماءَ البحيرةِ لامعاً مترقرّقاً في الـبُعْـدِ؟

هل تتأمَّلُ الصفصافَ منحدِراً؟

أتُبصِرُ رَفّـةً؟

أَسْـبِلْ يدَيكَ!

ألم ترَ الطُّوبَى. . .

جواداً، بينَ حَدِّ الماءِ والصفصافِ، أبلقَ؟

أبيضَ

الوادي بياضٌ

شهقتي بيضاءُ

والناقوسُ أبيض. . .

لندن، ٢٠٠٨/١١/١٩

النــهــارُ واللــيلُ

تلْقاها في الشارعِ

تجلسُ في المقهى معها ساعاتٍ

تأخذها كي تتعشّى في المطعمِ

تمشي معَها كيلومتراتٍ في الـمُـتَـنَـزّهِ

تُدْخِلُها مخزنَ أثوابٍ كي تختارَ قميصاً للعيدِ

وتسألُها أن تختارَ الكرسيَّ العالي في البارِ لكي تتأمّلَ قامتَها . . .

لكنك قد تتساءلُ :

هل هذي المرأةُ قد وُلِدَتْ مَلْطاءَ بلا نهدينِ؟

ومَسْحاءَ بلا رِدْفَينِ؟

. . . .

. . . .

. . . .

الساعةُ قد أعلنت العاشـــرةَ

الغرفةُ دافئةٌ

موسيقى جازٍ هادئةٌ تحملُ هذا الليلَ إلى نيو أورليانز . . .

المرأةُ في دفءِ ســريرِكَ .

المرأةُ، إيّاها...
لكنك تَعصِرُ أجملَ نهدَينِ
وتُبصِرُ مُكْـتَــنَــزَ الردفَينِ...
المرأةُ إيّاها!

لندن، ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٨

حديثُ وِسادةٍ

قلتُ لها:
أطيلي زغَبَ الدّلْتا...
(أصابعي كانت على المنفرَجِ الطافحِ)
قالت لي:
ولكنّ الذي أحببتُ مِن قَبلِكَ يهوى عانتي ناعمةً!
(تُطيلُ في ضحكتِها الخافتةِ)
الليلُ طويلٌ.
مطرٌ منذ ملايين السنينِ.
الريحُ لا تهـــدأُ.
والدلتا تسيل...

لندن، ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٨

جْـوان تحـلُـمُ

أراقبُ جْوانَ في الـحُلْمِ:

السريرُ هنا، باقٍ كما كانَ. . .

ليلُ القريةِ اتّسَعَتْ فيه الشواخصُ،

أشجارُ السياجِ بَدتْ غيماً

ونافذتي تدنو من الثلجِ. . .

وجهُ جْوانَ مُؤتلَقٌ للوردِ.

لا أسمعُ الأنفاسَ

غائبةً كانت جُوانُ مع البحرِ الـمُحيطِ

مع الأعشابِ في القاعِ. . .

كانت غضّةً

أبداً

شفيفةً

تهبِطُ الأمواجُ تائهةً بها

ثم تعلو فجأةً. . .

وأنا الأعمى

أراقبُ جْوانَ في الـحُلمِ:

السريرُ هنا

يطفو . . .

وبعدَ قليلٍ باتَ ينجرفُ!

لندن، ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٨

شَــقّــةُ بَرلِــيــن
The Berlin Flat

لثلاثةِ أيّامٍ، وثلاثِ ليالٍ
ظلَّ المطرُ الصامتُ يسقطُ
حتى ابتَلَّ لِحافي في غرفةِ نومي . . .
وابتَلّتْ مكتبتي .
جْوانُ الآنَ تنامُ، مُنَعّـمةً، في شقّتِها البرلينيةِ
حيثُ بدأْنا قصّتَـنا في القيلولةِ
بعدَ نبيذٍ أحمرَ لم نعرفْ من أيّ كُرومٍ جاءَ .
(أتحدّثُ عن عامٍ ماضٍ)
لكني ألتجيءُ، اللحظةَ، نحوَ هنالِكَ
نحوَ الشقّةِ في برلينَ . . .
جْوانُ هنـاك .
وهنا، لثلاثةِ أيامٍ، وثلاثِ ليالٍ،
ظلَّ المطرُ الصامتُ يسقطُ .

لندن، ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٨

النـعِـيـم

حينما يهبطُ الليلُ يأتي بمُعطَفِهِ
ثم يفرشُهُ فوقَ تاريخِ أجسادِنا
كي ننام.
حينما يهبطُ الليلُ يُمسي الكلامُ
غماغِمَ
أو خطوةً في غمام.
سوف يحملُنا الليلُ، كالموتِ، في نِعمةِ القُطنِ،
يحملُنا
ويحِطُّ بنا في البراري التي يتبخترُ فيها القَطا والنّعام
مَنْ يُرِدْ، أن يعودَ إلى بيتِهِ، يستفِقْ...
غيرَ أني مُـقِـيمٌ، هنا، أبداً
في حريرِ الـمَنام...

لندن، ٠٢/١٢/٢٠٠٨

وَصْفُ ما يوصَفُ

مَن رَشَّكَ بالماءِ رَشَـشْـناهُ دَمــاً. . .

❊

كانت أشجارُ البلّوطِ تنوءُ بسيلٍ يَتَـنَــزّلُ

منذُ ثلاثةِ أيّام،

حتى كدتُ أرى في الحُلْمِ ضفادع تَملأُ جيبي.

كانت أشجارُ البلّوطِ تُحَرفِشُ جِلْــداً أسودَ،

كانت أشجارُ البلّوطِ تنوء. . .

❊

مَنْ رَشَّكَ بالماءِ رشَشْـناهُ دماً. . .

❊

أتأمّلُ، مقروراً، في وجه الساحةِ.

لا طيرَ

ولا كلبَ

ولا سنجابَ.

الساحةُ مِرآةٌ ســـوداءُ.

الساحةُ وجهي.

❊

مَنْ رشّكَ بالماءِ، رشنشاهُ دماً. . .

*

لن تَطرقَ بابي امرأةٌ في هذا الليلِ الدّبِقِ.
التحفَتْ كلُ امرأةٍ مَن شاءتْ أن تلتحفَ.
الليلُ طويلٌ
وعلى المرأةِ أن تَأْمَنَ من خوفٍ.
وعلى المرأةِ أن تهجرَني.

لندن، ١٧/ ١٢/ ٢٠٠٨

البَـرِّيَّــة

أوَ لَستَ ترى خيراً لكَ أن تجلسَ مثلَ التمثالِ رُخاماً؟
لقد انكفأَ العالَـمُ
وانقطعتْ كلُّ خطوطـِكَ:
لا هاتفَ
لا أوراقَ بريدٍ
لا إيميلَ. . .
و لا امرأةٌ تضغطُ زِرَّ البابِ مســاءً.
خيرٌ لكَ أن تجلسَ تمثالَ رُخامٍ
ما شأنُكَ والعابرَ؟
ما شأنُكَ والهاتفَ والأوراقَ. . . إلى آخرِهِ؟
أنتَ الآنَ كما أنتَ،
لِـــمَ الحُزْنُ إذاً؟
. . . .
. . . .
. . . .
أهيَ الريحُ وقد أمستْ تتناوَحُ في الغابةِ؟
أهيَ الريح؟

لندن، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٨

مُـنـاوَلـةٌ Communion

قبل منتصف الليلِ
كانت كنيسةُ قريتِنا في الظلامِ الأليفِ:
الطيورُ التي هجعت سوف تبقى إلى أوّلِ الفجــر هاجعةً
وطريقُ الكنيسةِ يبقى الـمُـغَـيَّبَ...
والسَّـــرْوُ في حُلْــمِهِ.
قبل منتصفِ الليلِ
لا شـــيءَ إلاّ الظلام...
....
....
....
أتسمعُ منتصَفَ الليلِ؟
طيرٌ بلا موعدٍ أعلَنَ الوقتَ بين الغصونِ التي لا نرى.
فجأةً لألأَ النورُ.
بابُ الكنيسةِ يبدو طريقَ نجومٍ،
وأسوارُها سُــلَّـماً للمَجَـرّاتِ.
ها نحن أولاءِ ندخلُ:
نستقبلُ الطفلَ يُولَدُ، تمتمةً في شفاهٍ عَلاها النبيــذ.

لندن، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٨

الأيّــام...

يا ما نسجتُ الحُلْمَ:
أدخلُ مكّــة اَلأجبالِ، فجراً،
رافعاً، في خِرْقةٍ حمراءَ، تُشْبِهُ رايةَ الـمِتْراسِ،
بَيرَقِيَ المؤجَّلَ منذُ آبادٍ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
سأدخلُ مكّةَ الأَجبالِ:
لكنْ. . . ما تراني فاعلاً؟
هل أحملُ الحَجَرَ القديمَ إلى الـمَـنامةِ، مثلَ ما فعَلَ القرامطةُ؟
الطريقُ إلى المَنامةِ ليسَ حُرّاً
والمنامةُ لم يَعُدْ فيها قرامطةٌ.
أَأُطْلِقُ منجنيقَ النارِ كالحَجّاجِ، أيّامَ الزُّبَــــيرِ؟
مُغَفَّلاً سأكونُ. . .
فالبيتُ الحرامُ، الآنَ، يحمِــيــهِ الـمِظَليّونَ (من تدريبِ باريسَ).
الجبالُ محيطةٌ. . .
والناسُ سوف تُفِيقُ، مُثْقَلةً، تُصَلِّي الفجرَ.

سوف يرونَني، بالجِيْنْزِ، والبسطالِ، مجنوناً
وأشعثَ بعدَ طُولِ سُـــرىً.
ومَنْ يدري؟
أيصرخُ واحدٌ منهم: شـيوعيٌّ يُقامُ عليه، هذي اللحظةَ، الـحَــدُّ؟

لندن، ٢٠٠٩/٠١/٠٦

السباحة في خليج عدَن

لا أدري إنْ كان الجولدمور

The Gold Mohur

ما زال على الشاطئ. . .

رُبَّـتَـــما غارَ الفندقُ هذا في قاعِ البحرِ

أو ارتَدَّ صخوراً في الجبلِ الأســـودِ.

(إنّ مَساكـنَـنـا تسكنُ فينا)

أحياناً، في الليلِ الهامدِ، في مُنْتَبَذي الأوربيّ، أغادِرُ غرفةَ نومي

وأسيرُ إلى بابِ المنزلِ

معصوبَ العينينِ برائحةٍ من سمكٍ وســـراطينَ

فأهبِطُ درْجاتِ السُّـلَّـمِ أعمى إلاّ من رائحةِ الساحلِ

والريحِ الرّطبةِ بين شُجَيراتِ غَضــاً. . .

أُرهِفُ سَـــمعي:

هل ثَــمَّ حضارمةٌ بلغوا الفندقَ في سُفُنٍ خشبٍ؟

أَمْ يافِعُ تدنو؟

إني أسمعُ أغنيةً عن بحرٍ ومَحارٍ. . .

أسمعُ تهليلةَ بَحّارٍ.

أسمعُ صوتي!

. . . .

. . . .

. . . .

في الجولدمور
كنا نصنعُ، في ليلةِ قيظٍ، سُفناً من ورقٍ
لتطيرَ بنا. . .
كنا فقراءَ إلى الله!

لندن، ٠٩/ ٠١/ ٢٠٠٩

في تلك الثمانينيات

كان أفارقةٌ ثوريّونَ
يعودون إلى الشاطئ في زورقٍ مطّاطٍ.
والزورقُ منطلِقٌ
من قَيدومِ سفينةِ شحنٍ سوفييتيّـــةْ.

في صمتِ البحرِ الأحمرِ
في صمتِ الليلِ
وفي صمتِ الموجِ
أفارقةٌ ثوريّونَ يعودون إلى شـــاطئهم
غيرَ بعيدٍ عن جيبوتي...

*

في الصبحِ المتوهجِ (لا فجرَ هنا)
نبْلغُ مرفأَ جيبوتي:
طرّادٌ حربيٌّ لفرنسا يحرسُ بوّابةَ جيبوتي،
والأرضُ الإفريقيةُ لا تعلو أكثرَ من مترٍ عن سطحِ البحرِ.
....
....

. . . .
أفارقةٌ ثوريّونَ أعادتْهُم في زورقِ مطّاطٍ
أمسِ
سفينةُ شحنٍ ســـوفييتيّةْ.
لكنّا سنلوبُ بحارَ العالَمِ في زورقِ مطّاطٍ لن يُبْلِــغَــنا أرضاً
أبداً. . .

لندن، ١٠/ ٠١/ ٢٠٠٩

إلى وِصال

لستُ أعرفُ في أيّ أرضٍ حللتِ
ولا أينَ أنتِ تَحِلّـينَ،
عُمْرٌ، كما يخطِفُ البرقُ...
أَمْ ماراثونُ العذابِ؟
السفينةُ قد غرِقَتْ منذُ قَرنٍ ببغدادَ...
هل تَذْخَرينَ الأريكــةَ للرِّحْلةِ الأُمِّ؟
غادرت شِــارعَنا في فلسطين (أقصدُ عندَ القناةِ ببغدادَ)؟
أينَ ذهبتِ؟
وأينَ ذهبتِ، بما لم يَكُنْ؟
جاءني صوتُكِ الـتِّـبْـرُ أيّامَ حفلةِ قتلي بِعَمّانَ...
هل كنتِ أحسستِ أنيَ أُقتَلُ؟
يا بنتَ عمّي
التي قطفتْ وردتي،
يا وِصالُ...
سأنتحبُ الليلةَ:
الريحُ غربيّــةٌ

والمطرْ

ليسَ ينقطعُ. . .

الفضّـــةُ، الآنَ، تبكي، خيوطاً بشَعرِكِ.

أنتحبُ الليلةَ. . .

لندن، ١٩/٠١/٢٠٠٩

شجـرة

دوحةُ التوتِ كانت تُحَوِّلُ ما حولَــها جبلاً . . .
والحديقةَ سَـفْـحاً .
وكانت حبالٌ من السُّرخُسِ الفظِّ تجهدُ أن تتسلَّـقَها .
والأرانبُ قد تحتمي بتجاويفَ في أسفلِ الجِذْعِ إذ تغرُبُ الشمسُ .
دوحةُ توتٍ لها عسلٌ أحمرٌ
ولِحاءٌ شفيفٌ . . .
إذا مرّت الريحُ بينَ مَسارِبِها هدأتْ
لتقولَ السـلام . . .
كم لها من سنينٍ هنا؟
كم لها من سنين . . .
. . . .
. . . .
. . . .
في الليالي الوحيداتِ أُرهِفُ سـمعي لها . . .
أهِيَ الريحُ
أمْ هو ذاك الأنين؟

لندن، ٢٠/ ٠١/ ٢٠٠٩

الــمَـمَــرّ

كأنْ لا ســبيلَ إلى خارجِ القريةِ:
الساحةُ التهَمَـتْـها السَّــراخِسُ والعقعقُ.
البِرْكةُ اختنقَتْ بالحشائشِ والقصبِ.
الثلجُ أغلَقَ آخرَ ممشىً إلى موقفِ الحافلاتِ الأخيرِ.

كأنْ لا سبيلَ إلى خارجِ القريةِ:
المطرُ الأطلسيُّ الذي لا يُرى، يتحَدَّرُ في العَظْمِ.
والخيلُ تَقْطُرُ بالعَرَقِ المتبخِّرِ عبرَ السياجِ.
لقد عَرِيَتْ آخِرُ الشجراتِ.

كأنْ لا سبيلَ إلى خارجِ القريةِ:
المدينةُ ترسِلُ، ليلاً، رسائلَها...
غيرَ أني، هنا، كالذي ليس يقدرُ أن يُدرِكَ الليلَ.
إني هنا أهبِطُ،
اللحظةَ
اللحظةَ
البئرُ مفتوحةٌ...

لندن، ٢٣/ ٠١/ ٢٠٠٩

رَمْـــلُ دُبَـــيّ

«إلى أدونيس»

إبَرٌ من أغصانِ صنوبرةٍ كانت تفرِشُ أرضَ الممشـــى،
والـمَمشـــى كان رفيقاً يصعدُ نحوَ الدارةِ
حيثُ يبيتُ أرِقّاءُ من بُلدانٍ شَـتّى، ليلتَهُم، منتظِرينَ النخّاسَ السـوريَّ.
النخّاسُ السوريُّ
يُقَلِّبُ في دارتِهِ الباريسيةِ أوراقاً ناعمةً
وحساباتِ مصارفَ...
أو أضغاثَ عناوينَ.
النخّاسُ الســوريُّ، يسيرُ الآنَ إلى الدارةِ
حيثُ أقامَ أرِقّاءُ من بُلدانٍ شــتّى ليلتَهــمْ.
سيقولُ صباح الخيرِ
ويضحك ضحكتَهُ الخافتةَ.
الشعراءُ الـمَسْلوكونَ إلى حبلٍ من مَسَـــدٍ
كانوا ينتظرونَ النخّاسَ السوريّ.

. . . .
. . . .
. . . .
أمواجٌ هَـيِّـــنــةٌ كانت في الفجرِ تُوَشْــوِشُ رملَ الشاطئ.
مَرْكبُ فَحْمٍ، فيه الشعراءُ
أرِقّاءُ النخّاسِ السوريّ
يرســـو
في الفجرِ المحتقِنِ الرَّطْبِ
على رملِ «دُبَـــيّ».

لندن، ٢٨/ ٠١/ ٢٠٠٩

الثلجُ في الظهـيرةِ

كيف يمكِنُ أن تلمُسَ الثلجَ؟
ريشُ الطيورِ التي لم تكُنْ، يلمُسُ الثلجَ.
مأْثُرةُ الحُلمِ، في مهدِها، تلمُسُ الثلجَ.
هذا الهدوءُ الذي لا نُحِسُّ بهِ، يلمسُ الثلجَ.
إطْباقةُ الجسدَينِ على غفوةٍ، تلمسُ الثلجَ.
نافذتي تلمسُ الثلجَ.
كفِّي التي تنقُرُ الآنَ لوحَ المفاتيحِ، سِـــرِّيّةً، تلمسُ الثلجَ.
طيرٌ وحيدٌ
وغصْنٌ
ومِرآتُـــهُ في البحيرةِ
يلمسُ، في الهدأةِ، الثلجَ.

. . . .

. . . .

. . . .

كأسي التي أُتْرِعَتْ
بهجةً
وسماءً شماليّةً،

تلمسُ الثلجَ،
عيني التي أُغمِضَتْ عن قساواتنا
تلمسُ الثلجَ. . .

لندن، ٠٢/ ٠٢/ ٢٠٠٩

الـمَـعْـبَـر

لن أذهبَ أبعدَ من هذا!
سأسيرُ، وئيداً، حتى أبلُغَ تلك القنطرةَ.
انتبِـه!
القنطرةُ المأمولةُ ماثلةٌ. . .
لكني لن أعْـبرَها.
سأميلُ قليلاً عنها كي أهبِطَ عندَ الجُرفِ السرّيّ،
حيثُ الماءُ المتجمِّــدُ.
حيثُ السمكُ الفضّــةُ.
حيثُ زهورٌ غامضةٌ.
وقبورُ جنودٍ رومانيّين.
. . . .
. . . .
. . . .
لن أذهبَ أبعَدَ من
لا أبعَدَ من هذا. . . هذا!

لندن، ٠٧/ ٠٢/ ٢٠٠٩

السؤالُ الأوّل

أقولُ له. . .

(ليَ في الحقِّ)

- كانت ظهيرةُ ثلجٍ تَنِثُّ علينا -:

ألم نَصِل البلدةَ؟

اليومَ (أذكرُ) مرّتْ بنا، وعلينا، عواصفُ ليس لها عددٌ.

مَرَّ طيرٌ بنا. . .

مرَّ طيرٌ علينا، وقالَ لنا:

أســـرِعوا!

مَنْ تباطأَ ماتَ.

ولم يمكث الطيرُ. لم يتلبّثْ.

فهل بلغَ البلدةَ؟

اليومَ (أذكرُ) أكملتُ خمسينَ عاماً على الدربِ.

ما قال لي أحدٌ:

أين أنتَ؟ وما حالُكَ؟

الطيرُ لم يتلبّثْ. صحيحٌ. ولكنه قال شيئاً. . .

ومنذُ مضى،

مسرعاً، وبهيّاً، ومنتفضاً،
لم أجدْ في الطريقِ ســـواي. . .
ولم يأتِني أحدٌ، في النهارِ أو الليلِ، كي يتبلّغَ من خُبزتي
(خيمتي مثلُ نارٍ على عَلَمٍ)
أتُرى كنتُ في التيهِ؟
أَمْ أنّ رِفْقَتِــيَ التائهون؟

لندن، ٠٨/٠٢/٢٠٠٩

فــيْـضٌ

فِ الكأسَ نبيذاً
واترُكْ للأرضِ نصيباً من كأسِكَ. . .
أنتَ كريمٌ.

فِ العاشقةَ، الأقصى ممّا تأمُلُ منكَ
امْـلأْ مُحتَقَباً منها عسلاً أبيضَ. . .
أنتَ كريمٌ.

فِ الأغنيةَ، الحريّـةَ
لا تترکْها تتلعثـمُ. . .
أنتَ كريمٌ.

فِ الطيرَ، جناحَيكَ
ولا تَقـْنَـطْ:
إنْ لم تطِرِ اليومَ
فسوفَ تطيرُ غداً. . .
أنتَ كريمٌ.

لندن، ٠٧/٠٣/٢٠٠٩

فِ: فعلُ أمرٍ.

الـمَـدْبَـغـة

سـُـلَّـمٌ ضيّقٌ، وحديدٌ، سيأخذكَ . . .
السُّلَّمُ الضيِّقُ، الحلَزونُ، سيبدأُ من آخرِ المخزنِ .
السّترةُ الجِلْدُ، ثَمَّتَ، والشايُ أخضرَ،
تلكَ الحقائبُ مفتوحةٌ، كفِخاخٍ، ستسقطُ فيها عجائزُ برلينَ . . .
والشمسُ غائبةٌ أبداً
(ربما تُحرِقُ الجِلْدَ)
يأخذك السلَّمُ الضيِّقُ، الحلزونُ، إلى السطحِ :
من ههنا تُـبصرُ الـمَدْبَــغَـــةْ :
شمسُ إفريقيا تتمهَّلُ، حتى تغورَ عميقاً بتلك القدورِ المدوَّرةِ .
الماءُ يفقدُ ما هو للماءِ .
للماءِ رائحةٌ كالمجاري التي في الحميمِ
وللماءِ لونٌ،
وللماءِ طَعْمُ الرصاصِ .
الرجالُ يدورون بين القدورِ، عراةً إلى النصفِ .
كانت جلودُ جِمالٍ على السطحِ تَنْشَفُ
كان قطيعٌ من الماعزِ الغِرِّ ينزعُ أثوابَهُ قربَ ثورٍ بلا جثّــةٍ

أتُرى دخلتْ في القدورِ خيولٌ من الأطلسِ؟
الشمسُ باردةٌ
شمسُ إفريقيا تتمهّلُ كي تُنْضِجَ الجِــلْـدَ
كي تتفادى سكاكينَــنـا بالغياب. . .

لندن، ٣٠/ ٠٣/ ٢٠٠٩

خِزانةُ جامعِ القرويّيـين

كرسيٌّ محمدٍ الخامسِ كان بسيطاً

خشباً

لم تجرحْه يدٌ لتزخرفَه،

أو لتلوِّنَهُ.

كرسيٌّ محمدٍ الخامسِ كان على بابِ المخطوطاتِ السعديةِ

يحرسُـــها.

لو كانت تلك القُبّةُ مُذْهَــبــةً من تِبْرِ السعديّينَ!

لكنّ القبّةَ عاريةٌ

إلاّ من مخطوطاتِ النحوِ

وكرســيّ محمدٍ الخامس!

لندن، ٣٠/ ٠٣/ ٢٠٠٩

سـيّدي القلقُ

ملأَ الرومانُ هذا السهلَ بالأعنابِ والأعمدةِ.
الأَرْزُ الذي يكْمُنُ في الأطلسِ يُمسي سفناً
أو عرشَ جنديٍّ،
وقد يصبحُ كأساً لنبيذ السهلِ
باباً
أو سـريراً...
نحنُ جَوّابونَ،
لم نغلقْ علينا أُفُقاً
لم نبْنِ بيتاً
دارةً، أو قلعةً...
نحن بنَينا مُدُناً في صحنِ حلوى
وانتظرنا لحظةَ الإفطارِ، آنَ التّمْـرةُ الجنّةُ.
ما أشبهَنا بالنحلِ والنخلِ!
وما أشبهَنا بالقلقِ!
السـهلُ فسـيحٌ...
هل سيبني سيِّدي القلقُ عشّـاً
بـينَ مكناسٍ وفاس؟

لندن، ٠١/ ٠٤/ ٢٠٠٩

نُـــزْلُ تْرانس أتلانتيك (مِكْناس)
Transatlantique-Meknes Hotel

عُمرُ هذا النُّزْلِ عُمري:
عُمرُهُ خمسٌ وسبعون، وبِضعٌ من حروبٍ.
ينهضُ النُزْلُ على مَشْـــرفةٍ تَصْلُحُ أن تنصِبَ فيها مدفعـــاً
يمكنُ أن يقصفَ حَيَّ العربِ، الأسواقَ والتاريخَ والزُّلَّــيجَ. . .
كانت هيأةُ الضبّاطِ في الجيشِ الفرنســـيّ ترى في النُزْلِ بيتاً أو مَقَرّاً،
من هنا يمكِنُ للخيّالةِ السيرُ إلى «وجدةَ» ليلاً،
ثم يأوونَ إلى بردِ تِلِمسانَ صباحَ الغدِ. . .
كان العالَمُ المعروفُ في مُنبسَطِ الكفِّ!

. . . .

. . . .

. . . .

ولكني هنا
في البارِ. . .
أبدو ضائعاً
مستَنفَداً في ولَهِي

إذ أسمعُ «الـعَرْبِيَّ» يتلو أزرقَ الجازِ
وإذْ ألمحُهُ يغمِزُ لي في آخِرِ الأغنيةِ.
النُّزْلُ الذي أعرفُهُ لم يَعُدِ النُّزْلَ الذي أعرفُهُ...

....

....

....

اللحظةُ، كالقطّةِ:
إني أسمعُ، البغتةَ، خَطوي، عبْرَ ممشى العشبِ
أسمعُ الأوراقَ تَسّاقَطُ في الليلِ
حفيفَ الطيرِ إذ يأوي إلى عُشٍّ بِـلِـيفِ النخـلِ
مِن صومعةٍ في البلدةِ انثالَ الأذانُ...
العالَمُ استكمَلَ معناهُ.
وهذا النُزْلُ أيضاً!

لندن، ٢٠٠٩/٠٤/٠٢

ساحةُ الهَدِيم (مكناس)

مولاي، اسماعيلُ،
قِفْ، نرجوكَ. . . هذا حَدُّكَ!
ابتدأتْ منازلُنا الفقيرةُ
وانتهى غالي قصورِكَ!
ليس بَعدَ الساحةِ القوراءِ مِن هَدْمٍ. . .
أتعرفُ أننا نخشى الدخولَ إلى حدائقِكَ؟
الصهاريجُ ارتوَتْ منها خيولُكَ
غيرَ أنّ غِياضَنا، الزيتونَ والليمونَ والنعناعَ، جفّتْ. . .
نحن، يا مولايَ اسماعيل، شعبُكَ
نحن لسنا في بلادِ السِّــيبةِ. . .
الراياتُ رايتُكَ
المنابرُ كلُّها تدعو لكَ،
الغاباتُ مزرعةٌ لكَ
الشطآنُ والوديانُ، والنُّعْـمى، وثلجُ الأطلسِ البحريّ.
يا مولاي اسماعيلُ
قِفْ!
نرجوكَ. . .
هذا حَدُّكَ!

لندن، ٠٧/ ٠٤/ ٢٠٠٩

جْوان في بار نُوفَلْتِي

ربّـما للمرةِ الأولى يرى الساقي، جَمالُ، امرأةً تجلسُ في كرسيِّها العالي
بهذا البارِ،
كي تطلبَ منه كأسَ «رِيكار». . .
لقد كان نهاراً رائقاً
والشمسُ في يوم الربيعِ الأولِ؛
الناسُ الذين اقتعَدوا مقهى الرصيفِ استمتعوا بالقهوةِ
الآنَ تجيءُ الخطوةُ الأخرى:
إلى البارِ!

. . . .

. . . .

. . . .

كأنّ جْوانَ لا تدري بما يَحْدُثُ في البارِ. . .
لقد جاءَ الجميعُ!
اختفتِ الشمسُ
وما عادَ بهذا الصَّوْبِ من «مكناسَ» مقهى. . .
وسماءٌ رَطْبَــةٌ تُمطِرُ رِيكاراً على رأسِ جــوان،

البارُ أمسى مسرحاً. . .
قالت جوانُ:
«الآنَ حانَ الوقتُ كي نمضي إلى الفندقِ. . .»

لندن، ٠٨/ ٠٤/ ٢٠٠٩

الشاطئ البربريّ Barbary Coast

أقولُ الصراحةَ:
هذي البلادُ التي كِدتُ أعرفُها مرّةً
لن أتوقَ لأعرفَها الآنَ...
هذي البلادُ أخَبِّيءُ أعشابَها وأزِقَّتَها في جيوبي الكثيرةِ
لن أسألَ؛
الوردُ والسـِرُّ لا يُسألانِ
الحقيقةُ لا تُسألُ.
الحُبُّ لا يُسألُ.
الدربُ ما بينَ وجدةَ شـرقاً وسَـبْـتـةَ،
دربي العتيقُ الذي وطّأتْـهُ خُطايَ الخفيفاتُ
أيّامَ كانت موائدُنا نَزْرةً
وبيارقُنا عاليات...
لكَ الحمدُ، يا شاطئي البربريَّ
لك الحمدُ
يا مَن وهبتَ الأصابعَ وقتَ النبات.

لندن، ٠٩/ ٠٤/ ٢٠٠٩

الجمعة الحزينة Good Friday

لَكأنني أمسَيتُ مقذوفاً من البــحرِ المحيطِ على رمالِ الشاطئ المجهولِ. أطرافي مُخَلْخَــلــةٌ، وأثوابي ممزّقةٌ، وملءَ فمي طحالبُ. كانت الشمسُ الخفيفةُ تختفي. يأتي سحابٌ أسْودُ. المطرُ المباغِتُ يغسلُ المِـلْحَ الثخينَ على ضفائريَ. انتبهتُ إلى شُجَيراتٍ قريباتٍ من الكُثبانِ. أزحفُ. كــان وجهي يمسحُ الرملَ الطريَّ. يدايَ ترتجفانِ. يَمْرُقُ نورسٌ ويغيبُ. أزحفُ.

أبلُغُ الشجرَ. المساءُ يكادُ يأتي. البحرُ يأخذُ مثل مَا يُعطي. وهاأنذا هُلامٌ من عطايا البحرِ. ساقاي اللتانِ اصطَكَّـتا لن تحملاني أبعَـدَ. الأشجـارُ مـأوىً لي وسقفٌ. سوف يأتي الليلُ بالأشـباحِ. هل تــأتي الذئابُ؟

بُـنَـيَّتي: أرجوكِ أن تتذكّريني الآنَ. . .

أرجوكِ!

لندن، الجمعة ١٠/ ٠٤/ ٢٠٠٩

أحَـدُ الفِصْحِ في أَكْسِبْرِجْ
Easter Sunday in Uxbridge

لا يعرف الناسُ ماذا يفعلونَ

بعيدِ الفِصْحِ . . .

يمشونَ في الشارعِ؟

الأسواقُ مغلقةٌ!

يبقَونَ في البيتِ، ألواحاً مُسَـمَّرةً أمامَ شاشاتهم؟

يا ضيعةَ العيدِ . . .

ماذا يفعلونَ؟

وأبوابُ الكنيسةِ؟

حتى هذه انفتحتْ على الرياحِ . . .

فلا قُدّاسَ يُغْري!

. . . .

. . . .

. . . .

سيأتي اللحظةَ، المــطَــرُ!

لندن، ١٢/ ٠٤/ ٢٠٠٩

أنتظرُ نقّارَ الخشبِ

حتى هذي الجمعةِ من نيسانِ الغابةِ لم يظهرْ نَقّارُ الخشبِ. . .
البلّـــوطةُ (حيثُ اعتادَ السكنى) بدأتْ تُطْلِعُ بُرعُـمَـــها
وتميلُ من البُـــنِّـــيِّ إلى الأخضرِ؛
والمشهدُ يتَّضِحُ (الغيمُ أقَلُّ)
ولكنْ. . . لم يظهرْ نقّارُ الخشبِ!
في الفجرِ أُلَـمْـــلِـــمُ نَقراً متّصِلاً. . .
فأُفِيقُ:
وأنظرُ من غرفةِ نومي نحوَ البلّوطةِ
لكنْ لم يظهرْ نقّارُ الخشبِ. . .
لا أثرٌ
لا نَقْرٌ
والبلّوطةُ لم تَعُدِ البلّوطةَ،
لم تَعُدِ المأوى
حيثُ صباحُ الخيرِ يُبادئـُـني من نقّارِ الخشبِ!

لندن، ١٧/ ٠٤/ ٢٠٠٩

مشحونٌ، هذا الأصيلُ الـمُـبَـكِّــرُ...

آخرُ طيرٍ مرَقَ الآنَ.
سماءٌ ذاتُ رصاصٍ دبِقٍ تُطْبِقُ.
أغصانُ الماغنولياً حجرٌ يشبه أغصانَ الماغنوليا.
والأنفاسُ تضيقُ
الساحةُ والأرصفةُ السودُ تضيقُ
النافذةُ العليا في البيتِ تضيقُ
وقُرْصُ الشمسِ المترنحُ في أقصى الدغْلِ يضيقُ
القطةُ تُرْهِفُ سمعاً قربَ السيارةِ. . .
غابَ السنجابُ
ونقّارُ الخشبِ
الببغاواتُ السبعُ رحلْنَ مع الشمسِ.
أُحِسُّ بساقي اليســـرى خشباً.
. . . .
. . . .
. . . .
أغصانُ الزانِ على الربوةِ ترتعشُ.
الآنَ
تَـنَــزَّلُ أُولى القطراتِ الأولى.

لندن، ١٥/٠٥/٢٠٠٩

لَـدْغـةُ البَرقِ

أجلسُ الآنَ تحتَ دوحةِ توتٍ برابيةِ القريةِ.
الـمُرْتَبى كان في هيأةِ التلِّ
من ههنا كنتُ أنظرُ
من ههنا كنتُ أنتظرُ. . .
الناسُ يَبْدونَ كالخيلِ
والخيلُ تبدو كما الناسُ.
ثمـّتَ تلك البحيرةُ (قد طالَ ما كنتُ حدّثتُكُم عن تفاصـيلها:
القصبِ المترنحِ، والطيرِ، والسّمكِ الفضّةِ،الزانِ، والكستناء
وما ينسجُ الضوءُ والظلُّ، ساقي التي آلَـمَـتْني. إلى آخرِ القولِ)
ماذا؟
إذاً
أنا أجلسُ في قمّةِ الـمُـرْتبَـى
أُرهِفُ السّـمعَ:
لا نأْمــةٌ.
أُرهِقُ العينَ:
لا لَـمْـعـةٌ. . .
لا ســـماءَ لكي يخطِفَ البرقُ.

ســـقفٌ رصاصٌ تَـمَـــدَّدَ حتى غدا، هوَ، شكلَ السمـــاءِ.

. . . .

. . . .

. . . .

ولكنني من هنا أنظرُ

من هنا أنا أنتظرُ. . .

البرقُ

يلدغني، فجأةً،

قادماً من براري دمي. . .

لندن، ١٨/ ٠٥/ ٢٠٠٩

عن الوهمِ

هي صفصافةٌ
هي صفصافةٌ باكيةْ
تتدلّـــى ضفائرُها في البحيرةِ
تمشِطُ خُصْلاتِها الريحُ
يلهو بها ســـمَكُ القاعِ
والطيرُ. . .
صفصافةٌ هيَ
صفصافةٌ باكيةْ.
كيفَ أبصرتَها نخلةً؟
أنتَ أبصرتَها. . . أَمْ عيونُ سواكَ التي أبصرَتْها؟
ومَن ذلكَ الشخصُ؟
إنْ كنتَ تعرفُهُ
فَـلْــتَـقُــلْ في هدوءٍ لـهُ:
هيَ صفصافةٌ
هيَ صفصافةٌ
هيَ صفصافةٌ. . .

لندن، ١٩/ ٠٥/ ٢٠٠٩

الشيوعيّ الأخير فقط...

بَدْلــةُ العاملِ الزرقـاءُ

على مقاســـي كانت البدلةُ!
حتى أنني لم أختبِرْها لحظةً في غرفةِ التجريبِ...
كانت بَدلتي حقّـاً...
وها أنا أرتديها؛
لا أفارقُ قُطْــنَــها الـمُزْرَقَّ حتى في الفراشِ!
تقولُ صديقتي:
ما أنتَ؟
عُمّالُ المدينةِ لم يعودوا يلبسونَ البدلةَ الزرقاءَ...
عمّالُ المدينةِ لم يعودوا يَدَّعونَ بأنّهم يُدْعَونَ عمّالَ المدينةِ!
أيها المجنونُ
حتى في الفراشِ، البدلةُ الزرقاءُ؟
هل تُصْغِي إليّ!

لندن، ١٩/ ٠٥/ ٢٠٠٨

الشيوعيّ الأخيرُ يغادرُ عَـمّـان

كاد الشيوعيُّ الأخيرُ يضيعُ في عَمّانَ. . .
عَشراً كانت السنواتُ: فارَقَها، ولم يأْسَفْ لِـما فَعَلَ الفراقُ،
فربّما كانت حديقتُهُ من الصبّارِ،
أو كانت سفينتُهُ من الورقِ الـمُـقَـوّى.
ربّما لم يُحْسِنِ الإصغاءَ للنجمِ البعيدِ،
ورُبّــما. . .
. . . .
. . . .
. . . .
كان الشيوعيُّ الأخيرُ يدورُ من جبلٍ إلى جبلٍ
ودُوّارٍ وآخرَ؛
كان يسألُ عن رفاقٍ طالَ ما أنسَــوهُ ما فعَلَ الرصاصُ بهِ
ويسألُ عن موائدِ حانةٍ لَـمّا تَـعُــدْ مفتوحةَ الأبوابِ،
دارٍ للنقاباتِ. . .
المدينـةُ راكَمَتْ عجلاتِها الصفراءَ، آلافاً
وأعْلَتْ عاليَ الأبراجِ.
لم تَعُدِ المدينةُ مثلَ ما فارقْـتَها يا صاحبي،

و «الأزرعِيُّ» رفيقُكَ الأبديُّ غادرَ «إربِدَ». . .
الدنيا تبدّلتِ
البلادُ غريبةٌ. . .
غادِرْ!
وحاذِرْ أنْ يرى أحدٌ بها. . . وجهَ الشيوعيِّ الأخــير!

لندن، ٢٧/٠٧/٢٠٠٩

الشـيوعيّ الأخيـرُ يُثرثِـر

قالَ الشـيوعيُّ الأخيرُ
وكان في مقهىً، يُحَدِّثُ مَنْ يُحَدِّثُ مِن رفاقِ الأمسِ:
يا محمودُ
هل تدري بأني لا أُحِبُّ البيرةَ الســوداءَ؟
عاماً بعدَ عامٍ بَعدَ عامٍ، كان أهلُ بْــراغ يمتدحونَها
يتَـمَـطَّـقونَ بذِكْـرِها
وبِطَـعْــمِــها
حتى كأنّ البيرةَ السوداءَ ماءُ السلسبيلِ بجنّةِ المأوى
كأنّ البيرةَ السوداءَ كَـوثَـرُهُــم...
ولكنني أداعِـبُـهُـم، وأمضي في الدُّعابةِ:
يا رفاقي
لا أُحِبُّ بْــراغ...
لا أهلاً
ولا بَـلَـداً!
وأنتَ، اليومَ، يا محمودُ، تَشْــهَدُ
كيفَ تلعبُ بالعراقِ جماعةُ بْــراغ...

*

الشيوعيُّ الأخيرُ
اختارَ، بعدَ تردُّدٍ، ما اختارَ:
كأساً من نبيذٍ أحمرَ.
المقهى صغيرٌ، دافيءٌ
والنارُ نارُ جذوعِ صفصافٍ تَـضَـــوَّعُ كالبَخورِ
البارُ من خشبٍ عتيقٍ...
....
....
....
ربّـما دخلتْ صديقـتُـــهُ مصادَفــةً.

لندن، ٢٣/ ٠٢/ ٢٠١٠

استقالـــةُ الشـــيوعيّ الأخيـــر

قال الشيوعيُّ الأخيرُ:

سأستقيلُ اليومَ

لا حزبٌ شـــيوعيٌّ، ولا هُم يحزَنون!

أنا ابنُ أرصفةٍ

وأتربةٍ

ومدرستي الشوارعُ

والهتافُ

ولَـسْـــعةُ البارودِ إذ يغدو شـــميماً...

لم أعُدْ أرضى المبيتَ بمنزلِ الأشباحِ،

حيثُ ســـتائرُ الكتّانِ مُـسْـــدَلةٌ

وحيثُ الماءُ يَـأْسَـــنُ في الجِرارِ،

وتفقدُ الصوَرُ المؤطَّرةُ، الملامحَ...

....

....

....

أستقيلُ

وأبتَني في خيمةِ العمّالِ

مطبعةً

ورُكناً . . .

سوف أرفعُ رايتي خفاقةً في ريحِ أيلولٍ

مع الرعدِ البعيدِ، ومَـدْفَقِ الأمطارِ،

أرفعُها

ولن أُدْعَى الشـــيوعيَّ الأخــــير!

. . . .

. . . .

. . . .

الليلُ يأتي.

لندنُ الكبرى تنامُ كعهدها، ملتفّةً بالمعطفِ المبلولِ

أمّا في الضواحي (ولأَقُلْ هَـيْـرْفِـيلْــد) حيثُ يقيمُ صاحبُنا الشيوعيُّ الأخيرُ

فقد أقامتْ ربّةُ الأمطارِ منزلَها عميقاً في العظامِ. . .

اللعنةُ!

انتفضَ الشيوعيُّ الأخيرُ:

إن استقلتُ

فأين أذهبُ؟

إنّ ثمّتَ منزلاً لي،

فيه عنواني المسجَّــلُ. . .

ولْـيَكُنْ بيتاً لأشباحٍ!

سأسكنُه

وأسكنُهُ

لكي أُدْعى الشيوعيَّ الأخير!

لندن، ٢٠٠٨/٠٩/٠٢

تعاليمُ الشيوعيّ الأخير: مَن يخطو سَبْعاً؟

مَن يخطو سَبعاً ليكونَ شيوعيّـاً؟

*

أعرفُ أنّ بناتٍ يسألْنَ
وأعرفُ فتياناً سألوني،
أعرفُ أيضاً أنّ شيوعيَّ غدٍ ليس شيوعيَّ الأمسِ. . .
وإذاً. . . كيف يكونُ الـمرءُ شـيوعيّـاً؟
. . . .
. . . .
. . . .
يستمتعُ بالأشياءِ جميعاً، لكنّ عليه ألاّ يملكَ شيئاً.
يقرأ كارل ماركس: كتاباتٍ أولى، ورسائلَ، حتى يَبْلغَ «رأسَ المالِ».
في الحزبِ يظلُّ رفيقاً في قاعدةٍ ليستْ متخصِّصةً، كي ينظرَ من فوق. . .
يلبسُ أجملَ، يسمع موسيقى، ويغَنِّي مثلَ مغنِّي أوبرا إيطاليّ. . .
يتعلّمُ كيفَ يفكُّ سلاحاً (حتى لو كان مسدّسَـه) ويُرَكِّـبُـهُ.
يتعلَّمُ فنَّ الصمتِ. . . ويُصغي.
لا يؤمِنُ إلاّ بالشعب!

لندن، ٢٠٠٥/٠٧/٠٣

أيامُ العملِ السّـــرّيّ

كنتُ أراقِبُ في عينيها ما كانت تَـجْهَدُ أن تُخفـــيـــهِ:
ليالي العملِ السِّـــرِّيّ
بيوتَ الحزبِ
ومطبعةَ المنشوراتِ المحمولةَ في صندوقٍ خشبٍ. . .
ذاكَ الرعبَ من الإعدامِ، الغائرَ مثلَ حصاةِ رصاصٍ في الرأسِ.
تقولُ:
سقى اللهُ، بما يســقي، تلكَ الأيامَ!
لقد كنتُ فتاةً دون العشرينَ
مغامِرةً
أحمِلُ مِطواةً لِلّحظةِ
آنَ يكون الموتُ حياةً. . .
آنَ أكونُ الأجملَ!
. . . .
. . . .
. . . .
أنت الآنَ تراني. . .
حسناً!

لكنْ، بعد دقائقَ، أو ساعاتٍ
سنكونُ بعيدَينِ
بعيدَينِ تماماً
حتى عن ذكرى هذا البارِ المكتظِّ بأهلِ المســـرحِ
هذا البارِ البارِدِ
حيثُ تدفّـأْنا بنبيذٍ
وبأيّامٍ لن أستقبلَها حين تعود. . .

لندن، ٠٧/ ١١/ ٢٠٠٧

الشيوعيّ الأخيرُ، محرِّرُ بغداد

عشرونَ ألفاً من بساتينِ السماوةِ
أقبَلوا متدافِعينَ
ومن غِياضِ الكوتِ. . .
كانوا يحملونَ بنادقَ البَرْنو
ويستبقونَ سيّاراتِ «لادا» من ذواتِ الـمَـبْـدَلِ اليدويّ
والدَّفْعِ الرُّباعيّ. . .
الغبارُ يشوِّشُ الآفاقَ
والراياتُ حُمْـــرٌ، لا تكادُ تُرى من النقْعِ الـمُـثارِ.
الفجرُ لَـوَّحَ
والهتافُ:
تعيشُ بغدادُ!
الشيوعيُّ الأخيرُ هنا. . .
الشيوعيّونَ جاؤوا
حَــرَّروا بغداد!

لندن، ٢٨/ ٠٢/ ٢٠١٠

الشــيوعيّ الأخير لا يعمل مترجِماً

كأنّ الشيوعيّ الأخيرَ يُـلِمُّ باللغاتِ جميعاً. . .
كلّما حلَّ بلدةً تعلَّـمَ فيها؛
وهو يُقْسِـمُ أنه تعلَّـمَ سبعاً في مدارسَ صعبةِ الـمِـراسِ،
وأنّ الطيرَ تفهمُ ما يقولُ. . . إلخ. . . إلخْ
وأنّ فتىً من فنزويلا أرادَ أن يسجِّـلَــه في الأوبَرا!
قالَ إنه لأفصحُ من فرسانِ قشتالةَ. . .
الحديثُ يطولُ!

. . . .

. . . .

. . . .

اليومَ
أبصرتُهُ وقد تَـلَـبَّـثَ في المقهى. . .
- أتدري؟
أرادوني أكون مترجِماً. . .
- بكليّةِ الآدابِ؟
- لا. في المعسكرِ. . .
- الكلامُ غريبٌ!

- إنني ذاهبٌ غداً إلى «الشَّـطرةِ» الخضراءِ
لا مِن معسكرٍ، ولا أميريكيّـينَ. . .
- والطيرُ؟
والغناءُ؟
- سأنساها إلى أن أرى ندىً ينِثُّ علينا،
والحديثُ يطولُ. . . .

لندن، ٢٠٠٦/٠٧/٠٤

الشيوعيّ الأخيرُ يرفضُ عملاً

قال الشيوعيُّ الأخيرُ:

حقيقةً، إني بلا عملٍ... ومنذُ سنينَ أبحثُ؛

غيرَ أني أرفضُ العملَ الذي حدَّثـتَـني عنهُ...

● الصباغةُ مِهنةٌ...

- لكنها ليستْ تناسبُني...

كأنك لم تصافحْني، ولم تعرفْ هواءَ رفوفِ مكتبتي،

كأنك لم تكنْ يوماً رفيقي في الخـلِـيّــةِ!

(نحن كنّا آنذاكَ نقودُ إضراباً... أتذْكرُ؟)

كيفَ يا ولَدي...

أصَـبّـاغَ الوجوهِ تريدُني؟

لو شِئتَ أن أمضي لأصبغَ كلَّ بيتٍ في العراقِ مضَيتُ...

لكنْ، كيفَ أصبَغُ أوجُهاً خَزِيَتْ

وأقنِعةً

وحشْداً من رؤوسِ الوحْلِ والرَّوثِ الطريّ؟

تريدُني أن أُخفِيَ الأشياءَ؟

أن أُرخي القناعَ حقيقةً؟

أن أخدعَ الأبصارَ؟

. . . .

. . . .

. . . .

حقّـاً. . .

نحن نمشي في حديقةِ ساحراتِ الموتِ؛

لكني الشيوعيُّ الأخير. . .

لندن، ٢٠٠٦/٠٧/١٤

الشيوعيّ الأخير يدخل الجَنّة

كان الشيوعيّ الأخيرُ مؤرَّقاً في ليلةِ الأحدِ، الصديقةُ غادرتْ ظُهراً
إلى باريس، والمطرُ الخفيفُ يجيءُ أثقلَ، لحظةً من بعدِ أخرى.
والنبيذُ الأستراليّ الذي قد كان يكرعهُ بأقداحٍ كبارٍ كادَ يصرعُهُ!
وجاءته المصيبةُ عند بطّاريّةِ السيّارةِ. الأشياءُ قد همدت؛
فماذا يفعلُ الآنَ؟
الشيوعيّ الأخيرُ مضى يُنَقِّبُ في الرفوفِ العالياتِ. . . وثَمَّ أتربةٌ على
الكتبِ العتيقةِ. ثَمَّ نسْجُ العنكبوتِ، وما تبَقّى من جناحَي نحلةٍ.
لكنه استَلَّ الكتابَ وراحَ يقرأُ:
أمْرُنا عجَبٌ!
مَلاكٌ جاءَ يصطحبُ الشيوعيَّ الأخيرَ إلى جنانِ الخُلْدِ. . .
قالَ له: لقد طوَّفتُ في الآفاقِ سَبْعاً، كي أصادفَ طاهراً. كان
الذين رأيتُهم قوماً عجيبينَ. . . الصلاةُ وكلُّ شيءٍ. غير أني كنتُ
أسألُ عن عقيقِ سَجيّتَينِ: الطُّهرِ والعدلِ. السماءُ تفتّحتْ. . .
فلْننطلِقْ، لتكونَ في الفردوسِ بعدَ دقيقةٍ!
كان الشيوعيّ الأخيرُ مكوَّماً فوقَ الأريكةِ
هاديءَ الأنفاسِ
مبتسماً. . .
كأنّ روائحَ الفردوسِ تُفْعِمُ قصرَهُ الليليَّ حقّاً!

لندن، ٢٨/ ٠٥/ ٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يذهب الى باريس

«لا تهجريني . . .»
قالَ جاك بْرَيلْ :
: Jacques Brel
Ne me quitte pas!
وهاأنذا أقولُ : رفيقَنا كنتَ . . .
الحياةُ جميلةٌ إنْ لم تكُنْ في Pere- La Chaise
الحياةُ جميلةٌ إن كنتَ تبحثُ في الضواحي عن فتاةٍ أخلَفَتْ بالأمسِ موعدَها . . .
وتسألُني : وما دخْلُ الضواحي بالشيوعيّ الأخيرِ؟
أقولُ : مهلَكَ! لستَ تعرفُني، إذاً . . .
أنا المَعْنيُّ بالمعنى،
بما تهَبُ الحياةُ
أنا الشيوعيّ
الأخير!

لندن، ٢٨/٠٥/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يريد أن يكتب شعراً

من أين جاءت نخلةُ البِصريّ كي تُرخي جدائلَها عليه،
وتأمرَ الأطيارَ أن تشدو قليلاً باسمِهِ؟
كان الشيوعيّ الأخيرُ ينامُ تحتَ النخلةِ:
الشعراءُ قد صمتوا!
عجائبُ. . .
كيف يصمتُ عن أنينِ النخلةِ الشعراءُ؟
كيف يكونُ أوّلُهم، كآخرِهِم، أصَــمُّ، وأبكـمُ؟
اندلعتْ حرائقُ مثلَ أشـرطةِ القيامةِ
وامّحَتْ مُدُنٌ،
وذابتْ تحتَ صِخريجِ القذائفِ واللظى أضلاعُ عاصمةٍ. . .
وغابتْ نسوةٌ في وحشةِ الصحراءِ
يَدْفُنَّ البلادَ
مولوِلاتٍ
ذاهباتٍ في السوادِ. . .
عجائبُ!
الشعراءُ، أوَّلُهُم، كآخرِهِم، أصَـمُّ، وأبكَـــمُ.

. . . .

. . . .

. . . .

انتبَهَ الشيوعيُّ الأخيرُ:

لقد كتبتُ!

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/١٧

الشيوعيّ الأخيرُ يَخرجُ متظاهراً

قالَ الشيوعيُّ الأخيرُ: اليومَ أخرجُ في مظاهرةٍ
لِطَـرْدِ الإحتلالِ وصَحْـبِــهِ...
ومضى إلى السوقِ؛
اشترى مترَيْ قماشٍ أبيضَ
استلَفَ الطِلاءَ الأحمرَ الوهّاجَ من رسّامةٍ كانت تحبُّ يدَيهِ،
ثمّ استعملَ المنشارَ كي يتنصّفَ اللوحُ الدقيقُ...
وهكذا، خَطَّ الشِعارَ
وجَرَّبَ...
الأشياءُ مُـحْـكَـمَـةٌ تماماً!
وهو مندفعٌ، وأهوَجُ، مثلَ عصفورٍ يطيرُ الـمرّةَ الأولــى...
وهاهوذا!
تباطأَ عند بابِ البيتِ
لَفَّ شِعارَهُ، وطواهُ، مثلَ مِظلّةٍ في يومِ صَحْـوٍ
ثم قال لنفسِهِ:
حسَـــنـــاً!
لِنَفْرِضْ أنّ شخصاً جاءني مستفسِــراً... «مِن أيّ حزبٍ أنتَ؟»
كيفَ أرُدُّ؟

أحزابُ المدينةِ،كلُّــها، قد وقّعَتْ بأصابعٍ عَشــرٍ: يعيشُ الإحتلالُ
ومرحباً بجنودِهِ
وبُـنـودِهِ!

. . . .

. . . .

. . . .

سأقولُ: إني حِزبُ نفســـي
إنني أُدْعَى الشيوعيَّ الأخيـــر!

لندن، ٢٠٠٦/٠٧/١٧

الشيوعيّ الأخير يُمازحُ الحلاّق

قالَ له الحلاّقُ:

يا صاحبي

وجهُكَ نورُ البدرِ

لا لِحيةٌ

فيه

ولا شـــاربٌ. . .

قالَ الشيوعيُّ الأخيرُ: انتبِهْ!

مَنْ حُلِقَتْ لِحيةُ جارٍ لهُ

فـلْـيَسْـكُبِ الماءَ على لِحْيتِهْ!

- لكنّما وجهُكَ صافٍ. . .

- عجيبٌ أنتَ. . .

حلاّقٌ، ولا تعرفُ القصّةَ؟

خُذْ ماءً قليلاً

وضَعْ شيئاً من الصابونِ في كفَّيكَ

ضَعْ قُطـناً وصمغاً. . . نعَمْ. . .

وامسَحْ بهِ وجهي. . .

- لماذا؟

● أَلَم تسمعْ بأنّ الشيبَ قد يكشِفُ الغيبَ؟

- إذاً، جئتَ تُرَبِّي لِحيةً!

● لا تَقُلْ هذا!

لقد جئتُ لكي أخْـفَـى...

لندن، ٢٠٠٦/٠٧/١١

الشيوعيّ الأخير يتعلّم الهبوط بالمظلّـة

في قريتي، غربيَّ لندنَ، عند رَبْضٍ من بحيراتٍ وغاباتٍ
ستلْـقى «معهد الطيَران»،
والأسماءُ خادعةٌ... (كما يُحْكى)
فلستَ ترى هنالكَ غيرَ مَدْرَجِ طائراتٍ من ذواتِ محرِّكٍ فَرْدٍ
وغرفةِ مَن نسمِّيهِ الـمُراقِبَ
ثم مقهىً من ثلاثِ موائدَ؛
الأشياءُ خادعةٌ!
ألـم تسمعْ بما نشرتْ صحيفةُ «إندِبَنْدَنْتْ»
أن هذا المعهدَ المنسيَّ في الغاباتِ قد زارتْه أمسِ أميرةٌ عربيةٌ تتعلّمُ
الطيَران!
قلتُ: إذاً... أكونُ هناكَ؛ قد أحظى بلَـفتـتِـها الكريمةِ وابتسامتِها
إذا مرّتْ بنا مَـرَّ السحابةِ.
ربّما عطفَتْ علَيَّ
وحلّقَتْ بي في سماءٍ من نعومةِ مُخْمَـلٍ
وسحائبٍ للنَـدِّ والعُــودِ!
....
....

. . . .

الأميرةُ لم تكنْ في «معهدِ الطيَرانِ». . .

أبصرتُ الشيوعيَّ الأخيرَ هناكَ!

● أيُّ حماقةٍ جاءتْ بكَ؟

- الأيامُ. . .

جئتُ هنا لأعرفَ كيفَ أهبِطُ!

. . . .

. . . .

. . . .

قلتُ: ياهذا، يجيءُ الناسُ كي يتعلّموا الطيَرانَ!

قالَ: لقد تعالَينا

تعالَينا

تعالَينا

إلى أن لم يَعُدْ خيطٌ ولو واهٍ يشدُّ عروقَنا بالأرضِ. . .

إني الآنَ أهبِطُ بالمظلّةِ ربما تتعرّفُ الأعشابُ رائحتي

فتمنحني الحياة !ّ

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/٠٦

الشـــيوعيّ الأخير يقرأ أشعاراً في كندا

ضاقت به الدنيا،

ولكنْ لم يَضِقْ، هذا الشيوعيُّ الأخيرُ، بها . . .

وكان يقول: للأشجارِ موعدُها، وإنْ طالَ الخريفُ سنينَ أو دهراً!

وكان يقول أيضاً: خمسَ مرّاتٍ تَـلـَوتُ الشِّعرَ في وطني، لأبتدِئ الرحيلَ . . .

وكانَ . . .

لكني سمعتُ بأنه قد كان في كندا

لأسبوعَينِ؛

ماذا كان يفعلُ؟

ليس في كندا، شيوعيون بالمعنى القديم،

وليس في فانكوفرَ امرأةٌ معيّـــنةٌ ليسبقَ ظِـلَّها أنّـى مضتْ . . .

بل ليس في «الروكي» نخيلٌ، كي يقولَ اشتقتُ للشجرِ المقدّسِ؛

قلتُ: خيرٌ أن أُسائلَ أصدقاءَ لهُ . . .

أجابوني: لقد كان الشيوعيُّ الأخيرُ، هنا، نقولُ الحقَّ . . . بل إنّـا سهرنا ليلةً في مطعمٍ معهُ. وقد

كنا نغَـنِّـــي، والنبيذُ القبرصيّ يشعشعُ الأقداحَ والوجَناتِ. ماذا؟ نحن في فانكوفـــرَ الخضــراءِ

لا بغداد. . .

لكنّ الشيوعيّ الأخيرَ مضى!

إلى أينَ؟

اشترى، صبحاً، بطاقــتَـه، إلى عَبّــارةٍ تمضي به، هُــوناً، إلى جُزُرِ المحيطِ الهاديءِ. . .

*

الأيامُ، في أيّــامنا، عجَبٌ!

وأقرأُ في رسالته الأخيرةِ:

أيها المسجونُ في أوهامكَ السوداءِ، والكتبِ التي ليست بلون قميصِكَ!

اسمعْـــني. . . ولا تقطعْ عليَّ سرابَ أسفاري. لقد هبطتْ بيَ العَـبـــّارةُ البـيضاءُ

عند جزيرةٍ بالباسِفيكِ. . . أقولُ: فِكتوريـــــا! فيندفعُ الشميمُ، وتخرجُ الخـلجانُ سابحةً. ستأتي عندنا الحيتانُ فجراً، أو أسُــودُ البحـرِ. لا تــتعجّـل الأنــباءَ. . . .

فِكتوريا هي الأمُّ العجيبةُ، جَـدّةُ الهنديّ والملهوفِ، والأنـــثى المقدّســـةُ. الطواطمُ عندها حرسٌ، وروحُ الدبِّ. والأسماكُ هائلةً تَقافَـزُ بينَ كفَّــيها.

. . . .

. . . .

. . . .

وماذا كنتُ أفعلُ في الجزيرةِ؟

أنت تعرفني. تماماً.

كنتُ، مثلَ نضالِ أمسِ، أُحَرِّضُ الطلاّبَ...

كيفَ؟

قرأتُ من أشعارِ سعدي يوسف...

البَحّار، صاروخ توماهوك، إعصار كاترينا، وقتلى في بلاد الرافدَينِ.

ولحيةُ القدّيس والْت وِيتمان. أشجار البحيرات العميقةِ. والبارات عندَ إجازةِ الجنديّ. تبدو بغتةً عَوّامةٌ في النيلِ. يبدو النخلُ أزرقَ في البعيدِ.

النسوةُ الغرثى يَلُبْنَ. عُواؤنا؟ أمْ أنها تلك القطاراتُ التي تمضي إلى ليلِ المَدافنِ في الصحارى... أيها الجنديّ دَعْ بلدي، ودعْني في الجحيمِ.

قرأتُ من أشعارِ سعدي يوسف...

الأمرُ الغريبُ: كأنّ هذا الشاعرَ الضِلِّيلَ يعرفُني، ويعرفُ ما أريدُ....

كأنه أنا!

لستُ أفهمُ ما أقول...

لندن، ٣١/١٠/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يشهد أوّل أيار في برشـلونة

لو كنتُ جئتُكِ، يا شوارعُ، في الثلاثيناتِ!
لو راياتُكِ الحمراءُ والسوداءُ كانت في يدَيّ. . .
ولو أقمتُ ببابِ حزبِ الفوضويّينَ، النهارَ وليلَـهُ
والحُلمَ والمتراسَ!
قد كانت لنا أيّامُنا؛
والآنَ، يَدْرُجُ بينَـنا أيتامُنا:
لا رايةٌ حمراءُ أو ســـوداءُ
بل لا رايةٌ حمراءُ/ سوداءُ. . .
الشوارعُ أنبَتَتْ أولادَها نَوكى ومِثْـلِيّينَ
والشققُ القديمةُ حيثُ كنا نحفظُ الديناميتَ
والجرحى
وأحزمةَ الرصاصِ
وقوْتَنا اليوميّ
صارتْ كعبةَ السوّاحِ. . .
ماذا يفعلُ العمّالُ هذا اليومَ؟
قد أبصرتُهُم
ومشَيتُ أمتاراً أرافقُهُم كأني في صلاةِ الغائبِ. . .

الراياتُ CGT الثلاثيناتِ

أحمرَ / أسودَ

الأصواتُ أصواتُ الثلاثيناتِ

لكنّ الشوارعَ لم تَعُدْ تمشـــي. . .

. . . .

. . . .

. . . .

مشَينا

ربّــمــا. . .

لكنْ لندخلَ حانَ أنطونيو

الرفيقِ السابقِ.

الراياتُ قد طُوِيَتْ على أخشابها.

والناسُ عندَ البحرِ

عندَ كولومبُسَ المنســيّ

ينتظرون. . .

لندن، ٠٨/ ٠٥/ ٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يذهب إلى السينما

ملحوظةٌ هامّةٌ جداً:

يقالُ في الصحافة المحترفة إن الخبر الجيد يجب أن يتضمّن أربعة أجوبة عن أربعة أسئلة:

متى؟ أين؟ ماذا؟ مَن؟

وبما أن الشيوعيّ الأخير لم يحترف الصحافة المتاحة لأسبابٍ ليست خاصةً به، كما يقول، فقد تصرَّفَ كما يحلو له، مكتفياً بـ«أين؟» و «ماذا» و«مَن». أي أنه قفزَ على «متى» قفزاً. أمّا «مَن» فقد اكتفى فيها بذِكْرِ الحرفِ الأول من اسمه، وقد يكون تصَرُّفُه هذا نتيجةَ تربيةٍ قديمةٍ في العمل السـرّيّ. الخطّة، واضحةٌ، لديه، في الأقلّ. وهي تشملُ النقاطَ الأربعَ الـمُدْرَجةَ في أدناه:

١- موقع السينما.

٢- موقع الشيوعيّ الأخير في قاعة السينما.

٣- الفيلم المعروض.

تأمُّلات الشيوعيّ الأخير بعد انتهاء العَرض.

موقِع الســـينما

لا تمتلكُ الدارُ اسماً حتى الآنَ

ولا تمتلكُ الدارُ لموقعها رسماً حتى الآنَ
ولكنّ الناسَ يحبّونَ الذكرى. يُحْيونَ الذكرى. يَحْيَونَ مع الذكرى.
ولهذا منَحوا تلكَ الدارَ اسماً: دارَ الذكرى...

*

كنا نتساءلُ كلَّ مساءٍ: أين الدارْ؟
فيُقالُ لنا: دارُ العَرضِ تغورُ عميقاً في الأرضِ...
نقولُ: إذاً... مَن يدخلُها؟

*

بعدَ طوافٍ، وبحارٍ، وضفافٍ
أبصَرْنا المَبْنى...
كان جداراً منخفضاً من طينٍ معجونٍ بالتِّبْنِ...
المبنى كان بلا بابٍ
كان بلا محرابٍ؛
كان وطيئةَ أَنعامٍ بين جذوعٍ خاويةٍ.
ها نحن أولاءِ هناك...
بَلَغْنا دارَ الذكرى!

موقعُ الشيوعيّ الأخير في دار السينما

دارُ الذكرى، دارٌ للعَرضِ الصيفيّ
والناسُ بها يقتعدونَ الأرضَ
إلاّ أصحابَ الدارِ... فقد كانت لهمو بِضْعُ أرائكَ مستوردةٍ

في الصفّ الأوّلِ.
كان الناسُ طويلاً ينتظرون أماكنَهم. . .
أمّا أصحابُ الدارِ فقد جلسوا منذ الآن، وجاؤوا بكؤوسٍ وقناني ماءٍ.
والناسُ يلوبون
عطاشــــى
أنهكَهمْ قيظُ الصيفِ
وبُعْـــدُ الدارِ. . .
ويسألُ «س»: أليسَ لنا، نحن الناسَ، مكانٌ؟
قيلَ: اجلِسْ أنَّى شئتَ!
وفكَّـــرَ «س»: الأفضلُ لي أن أقتعدَ الأرضَ بآخرِ صفٍّ. . .
سوف أرى الناسَ جميعاً
وأرى الفيلم. . .

الفيلم المعروض

عن أيِّ مزرعةٍ هنا، يتحدثُ الفيلمُ؟ الخرافُ تدورُ والغِزلانَ، ثَـمَّ زريبةٌ يُقْعي بها بشرٌ عُراةٌ. والذئابُ تنامُ نِصفَ مَنامِها المألوفِ. تهبطُ بالمظلاّتِ النســـاءُ وقد لبِسْـــنَ ملابسَ العَومِ. الزريبةُ أشرعَتْ أبوابَها للقادماتِ من الفضاءِ. يهلِّلُ البشرُ العُراةُ: المنقذاتُ أتَينَ!
كانت في السماءِ سفينةٌ بَحريّةٌ، ميناؤها «جَنَوا».
النساءُ يَطِرْنَ نحوَ سفينةِ الخشبِ الجميلةِ تاركاتٍ في الزريبةِ ما خلَـعْـنَ. ويهتفُ البشرُ العُراةُ وقد تقدّمت الذئابُ إلى الزريبـةِ: يا

إلهَ النارِ! أشعِلْ عودَ كبريتٍ
لتنقذَنا. . . ستأكلُنا الذئابُ الليلةَ. الغربانُ في الـثُّـكْنات.

تأمُّلاتُ الشيوعيّ الأخير بعدَ انتهاءِ العَرضِ

سوف يستغرقُ الحديثُ طويلاً لو أردْنا، لكننا رِفقةٌ لا نُتْقِنُ اللفَّ والـمِلَفَّ. . .
انتهى «س» من العَرضِ، ساهماً. . . كان مشدوداً إلى فكرةٍ:
هل يكونُ الفيلمُ وهماً؟ والقصْدُ: هل كانَ الحقيقةَ الـمُرّةَ، العلقمَ ما شاهَدَ؟
السفينةَ في الـجـوِّ.
انتبِهْ أيها العاملُ الشيوعيّ. . .
إن العالَمَ اليومَ يظهرُ بالمقلوبِ. . .
ماذا عليكَ أن تفعلَ؟
الشيوعيّ كارل ماركس قد قالَها: سنَقْـلِـبُـها حتى نرى السفينةَ في البحرِ. . .
الشيوعيّ «س» يســـري وحيداً.

لندن، ٢٣/ ٠٥/ ٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يذهب إلى البصرة

وقالتْ له: أســـرَفْتَ!
كلُّ مدينةٍ حللْتَ بها أغفَلْتَ عن أهلِها الفكرةْ
كأنّ مَدارَ الكوكبِ اختَلَّ سَـــيرُهُ
فلم يَبْقَ من ذاكَ الـمَدارِ ســـوى البصرةْ. . .

❊

ولكنني فكّرتُ. . .
إنّ صديقتي تقولُ صواباً؛ كيفَ أنسى ديارَها، حديقتَها، والشُّرْفةَ؟
الصيفُ أرسلَ الرسائلَ. والكرسـيُّ ما زال يقصدُ البِيانو. الفتى
الهنديُّ يُلقي سلامَهُ ســـريعاً، وأعلى دوحةِ السَّـرْوِ حَطَّ طائرٌ
عجيبٌ. أ مِن فردوسِ «لِيزا» أُســـافرُ؟

❊

تعلّمتُ أن أحكي، فلستُ مُـكَـتِّـماً هواجسَ ليلي الأربعينَ:
أنامُ في جناحَي غُرابٍ. والسعالي ضجيعتي. ومن دميَ المسفوحِ
لَونُ الحوائطِ. . . انتهَيتُ إلى أن أرضعَ التّيسَ. أن أرى تماسيحَ من
قارٍ تُغَنّي
وأن أرى خيولاً عليها من عيونٍ حوافرُ. . .

❊

وتسألُني «لِيزا» وقد أطبَقَ الدُّجى: سمعتُكَ تهذي. . .

كنتُ أحسَبُ أنني أهيمُ بِوادي الجِنِّ! هل كنتُ نائماً بِوادي الذئابِ؟
الليلَ تَخْتَضُّ. . . ناضحاً شفيفَ دمٍ. . . مستنفَدَ الصوتِ.
ربّما ستفعلُ شيئاً في الغَداةِ. كأنني أراكَ إلى حيثُ انتويتَ تغادِرُ. . .

❋

القصةُ، وما فيها، يا أصحابي، ويا رفاقي (لا أدري إنْ كنتم لا تزالون تستعملون كلمةَ «رفيق». . . لا يَهمُّ) أن الشيوعيّ الأخير، ذهبَ قاصداً البصرةَ، بعدَ أن ودَّعَ حبيبتَه «لِيزا» التي أوصَتْهُ بألاّ يدخلَ البصرةَ بعدَ طولِ غيابٍ، إلاّ تحتَ الرايةِ الحمراءِ.

❋

في البصرةِ راياتٌ سُود
في البصرةِ راياتٌ بِيض
في البصرةِ راياتٌ من نخلٍ ذي أعجازٍ خاويةٍ. . .
لكنّ في البصرةِ، أيضاً، وبلا كلامٍ (أرجوكم!): راياتُ المِلكةِ أعلى من كلِّ الرايات!
(المقصودُ بالملكةِ هنا: إليزابَث الثانية (الأولى كانت تُمَوِّلُ القرصانَ فرانسِسْ دْرَيك في القرن السادس عشر، الميلادي طبعاً) وإليزابَث الثانيةُ هي ملكةُ انجلترة والبصرةِ وما جاورَها، في القرنِ الحادي والعشرين)

❋

وها هيَ، ذي، إذاً. . .

أسطورةُ الراياتِ تتْبَعُ فُوَّهاتٍ من بنادقِ أهلِها!
لكنني، وأنا الشيوعيّ الأخير، أظلُّ أحملُ رايتي الحمراءِ. . .
هل ضاعتْ بنادقُنا؟
نسِيناها؟
اتَّـخَـذْنا غيرَها؟
أمْ أننا ضِعْنا وقد ضاعتْ بنادقُنا؟
سلاماً للنصيرةِ!
للنصيرِ!
لِـفِـتْـيَـةٍ رفعوا على القُـنَـنِ الغريبةِ والروابي، الرايةَ الحمراءَ
سوفَ نعودُ للقِمَم!
الصباحُ الـجَهْمُ يُطْلِقُ بـوقَـنـا:
بوقُ القيامةِ نحنُ. . .
أحراراً
شيوعيّينَ
نرفعُ رايةً مَـرْوِيّـةً بدمٍ وأوحالٍ
وندخلُ أرضَـنا. . .
. . . .
. . . .
. . . .
سنكونُ أجملَ من نهايتِـنـا. . .

لندن، ٢٥/٠٥/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يسبح في خليج عدَن

قد طالَ ما ألقَيتُ أثوابي وأتعابي على حَجرٍ، لأسبحَ في الخليجِ . . .
إلى يميني شاطيءٌ متردِّدٌ بين الحصا والرملِ،
ألمحُ في يساري، عالياً، بين الصخورِ، فَناريَ الأعمى
وكان البحرُ يهدأُ في الخليجِ
وتلعبُ الأسماكُ بالألوانِ: أحمرَ، أصفرَ. . .
الفسفورُ يطفو، والقواقعُ تختفي في الموجِ؛
ثَمَّ هسيسُ أطرافِ السراطينِ الخَفِيُّ
وحبْلُ مرساةٍ تَقَطَّعَ قبلَ أعوامٍ،
وأهبِطُ. . .
كنتُ ألتَمِسُ انغماراً لا يفارقُني. . .
انغماراً يجعلُ الجسدَ امتداداً للمياهِ وللنجومِ اللامعاتِ هناكَ في القاعِ؛
انغماراً لا تُمَيِّزُ فيهِ بين يدَيكَ والشمسِ.
الخليجُ يُطِلُّ من عدَنٍ على عدَنٍ
ومِن عدَنٍ على يَمَنٍ سيُبْحِرُ في الصباحِ ليبلُغَ الجنّاتِ
. . . .

. . . .

. . . .

ما أبهى الـمَـعادَ!

كأنني ما زلتُ في عدَنٍ؛

وأثوابي وأتعابي على حَجَــرٍ هناك!

لندن، ٣١/ ٠٥/ ٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يعودُ من الشـاطيء

كان الشيوعيُّ الأخيرُ يدورُ بينَ محطّةِ الباصاتِ والمقهى الصباحيّ. . .

النوارسُ لا تزالُ تدورُ زاعقةً فُوَيقَ الناسِ والطُّرُقاتِ والحِصْنِ القديمِ،

و لا تزالُ صَبيّـةُ المقهى تُعَـدِّلُ شَعرَها المنفوشَ ليلاً؛

- يا صباحَ الخيرِ!

لم أعرفْ بأنكَ ههنا. . .

● قد جئتُ أمسِ، لكي أعودَ اليومَ!

- قُلْ لي: أيُّ شيطانٍ قد استدعاكَ؟

يأتي الناسُ كي يستمتعوا بالبحرِ والرملِ الدفيءِ؛ وأنت تعودُ كالمجنونِ؟

● ليس الأمرُ هذا. . .

قصّتي كانت مفاتيحي!

. . . .

. . . .

. . . .

أتعرف؟ كنتُ بعدَ شتائنا القاسي وقضقضةِ العظامِ

أُحِسُّ بلهفةٍ للبحرِ. كنتُ أريدُ أن أُلقي بأتعابي وأثوابي
على رملِ الشواطيءِ... نحن ملاّحونَ في المعمورةِ!
البحرُ المحيطُ يُتِمُّ رِحْلتَنا ويَبدؤها. أتحسَبُني تركتُ
البحرَ والرملَ الدفيءَ وفتنةَ الأجسادِ مختاراً؟ كأنك يا صديقي
لستَ تعرفُني!
ألم أُخبِرْكَ؟ ليس الأمرُ هذا. قصّتي كانت مفاتيحي.
أتيتُ إلى المدينةِ، (ولْتَكُنْ Eastbourne).
واستأجرتُ غرفةَ منزلٍ. ومشَيتُ نحوَ الشاطيءِ. الأمواجُ
كانت كالجبالِ. وثَمَّ ريحٌ صَرصَرٌ. والناسُ يرتعدون من برْدٍ
عرايا. فتنةُ الأجسادِ قد ذهبتْ مع الريحِ! انتظرتُ دقائقَ...
الموجُ العنيفُ يُرَشرِشُ الممشى. ويَبلغُ أوّلَ المقهى. إذاً، هل
أرتمي في الماءِ، أم أرتدُّ نحوَ غُرَيفَتي بالمنزلِ؟ استجمعتُ
بُقْيا من حماقاتِ الصِّبا، وهبطتُ، مثلَ قذيفةٍ في الماءِ.

*

هل كنتَ تدري أنني متمرِّسٌ بالغوصِ؟ ذاكَ الصبحَ في
إيستبورنَ، غُصْتُ إلى قرارِ البحرِ. كان القاعُ أصلعَ. لا نباتَ
و لا قواقعَ فيهِ. والأسماكُ قد رحلَتْ إلى بحرِ الشمالِ...
الكهرمانُ هناكَ. والمرجانُ ينبتُ في الجنوبِ. وهكذا قرّرتُ
أن أعلو إلى حيثُ المقاهي والملاهي والهواءُ. لقد أطْلَلْتُ...
أدركتُ الحقيقةَ. ليس في القاعِ العجيبِ سوايَ. سوفَ
أقولُ للناسِ، الحقيقةَ. سوف أرفعُ في مقاهي البلدةِ البحريّةِ
الأنخابَ. سوف أقولُ: مرحىً للشيوعيّ الأخيرِ! ومرحباً

بفضيحةِ الأسماءِ والأشياءِ. . .
مَجْدُكَ أن تغوصَ إلى قرارِ البحرِ
مجدُكَ أن تقول!

*

والآنَ تسألُني عن المفتاح؟
سوف أقولُ شيئاً مضحكاً:
ضاعتْ مفاتيحي بقاعِ البحرِ. . .
لكني أُخَـبِّـيءُ نسخةً أخرى بلَبلابِ الحديقةْ!

لندن، ٠٤/٠٦/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يشـــتري قميصاً

ظلَّ الشيوعيّ الأخيرُ، هو، الفقيرَ. . .
فإنْ تدَبَّـرَ أمرَهُ يوماً، وصارَ المالُ يملأُ جيبَـــهُ
(تأتي مُصادفةً)
تأبَّطَ مالَهُ
ومضى يبدِّدُهُ: المقاهي والمطاعمُ،
والصديقاتُ اللواتي صِرْنَ قد أحبَـبْـــنَـــهُ تَـوّاً. . .
ورُبّـتَـما تذَكّـرَ أمرَهُ
- أن يشتري، مثَلاً، قميصاً!

. . . .

. . . .

. . . .

كم أحَبَّ السوقَ!
تلكَ الواجهاتِ، وباعةَ السِّـلَعِ الـمزوَّرةِ
الصبايا العاملاتِ
وذلكَ الصعلوكَ عندَ المدخلِ الخلفيّ للبارِ العتيقِ. . .
وكم أحَبَّ مصاطبَ السوقِ!
العجائزُ، والسكارى الصُّبْحَ، والأطفال. . .

والشجرُ الذي ما زال يَعْبَقُ بالندى الليليّ. . .
ينتبهُ الشيوعيُّ الأخيرُ:
أَلَمْ أجيءْ كي أشتري شيئاً؟
قميصاً رُبَّـــما؟

. . . .

. . . .

. . . .

يدنو من البارِ العتيقِ
يُمازِحُ الصعلوكَ. . .
يدعوهُ إلى كأسٍ، وصحنِ فطائرٍ بالـجُـبْنِ
ينتبذانِ زاويةً.
ومثلَ البرقِ يقتنعُ الشيوعيُّ الأخيرُ بأنّ لونَ قميصِهِ أبهى
وأنّ تجارةَ القمصانِ ليستْ شـــأنَـهُ؛
أنّ الحياةَ تريدُهُ حُرّاً، وأحمرَ
أنّ لونَ قميصِهِ سيظلُّ أحمرَ
قانياً،
ولْتسقط القمصانُ
إنْ كانتْ ستَعْـرِضُ بَيعَــهُ، هوَ، في مَزادِ الســـوقْ. . .

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/٠٥

الشيوعيّ الأخير ينتظرُ الحافلة

أنا منذُ الفجرِ، هنا، في هذا الموقفِ، أنتظِـرُ الباصَ الأحمرَ. . .
مرّتْ سيّاراتٌ
وقطاراتٌ
مرّتْ باصاتٌ بالعشـــراتِ
ولكنّ الباصَ الأحمرَ لم يأتِ
ولم أسمعْ خبراً عنه. . .
حتى ابنُ رفيقي لم يُـعْــنَ بأنْ يَسْـــمَـعَـني حين استفسرْتُ!
إذاً. . . سأظلُّ هنا منتظِراً:
مرّتْ بي السنواتُ
ومرّتْ بي الباصاتُ
ومرّتْ بي الفتَياتُ. . . فلم أَلْحَقْ واحدةً منهنّ. . .
ولم أستمتِعْ بالضحكاتِ وبالشهقاتِ؛
الباصُ الأحمرُ لاحَ أخيراً في المنعطَفِ!
الباصُ الأحمرُ لم يتوقَّفْ!
لوَّحْتُ
صرختُ
ولكنّ الباصَ الأحمرَ لم يتوقّفْ!

. . . .

. . . .

. . . .

جاءَ ابنُ رفيقي مرتبكاً:

هل تَعْلَمُ أن السائقَ باعَ الباصَ الأحمرَ؟

إنّ لديهِ الآنَ مواقفَ أخرى

ودروباً لا نعرفُها. . .

ومقاعدَ قد حُجِزَتْ ســلَـفاً، للصوصٍ معروفين!

. . . .

. . . .

. . . .

ماذا نفعلُ؟

سوف نسيرُ ونسألُ. . .

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/٠٧

الشيوعيّ الأخير يدخلُ في النفَق

كان صباحاً صيفيّاً حقّــاً؛
جارتُهُ خرجتْ من بابِ الدارِ، وقد كشفَتْ للشمسِ خميصَ البطْنِ
بنصفِ قميصٍ. . .
والوردُ الإيرلنديُّ تَفَـتَّـحَ كالبرقِ،
وجاءَ النحلُ ليمتصَّ رحيقَ بنفسجةٍ
وتَرَجَّحَ سنجابٌ من غصنِ صنوبرةٍ دانٍ
وتَبَدَّتْ في الـمَرْجِ خيولٌ تلعبُ.
. . . .
. . . .
. . . .
كان صباحاً صيفيّاً حقّاً. . .
ويفكّـرُ «س»: لماذا أجلسُ وحدي؟
فلأذهبْ صوبَ النهرِ. . .
أراقبُ موجاً يتطامَنُ بين نسائمَ هادئةٍ وزوارقَ من لوحٍ فضِّــيٍّ،
وأرى الفتَياتِ يُلاعِبْنَ الفِتيانَ على العشبِ
وأسمعُ أغنيةَ الموسيقيّ الجوّال،
وأختارُ كتاباً من كتبٍ مستعمَلَةٍ

وأسيرُ على مهلٍ

أضحكُ للدنيا!

. . . .

. . . .

. . . .

كان صباحاً صيفيّاً حقّــاً. . .

لم يتحرّكْ «س»

ظلَّ على جلستِهِ بالشُّرْفةِ.

لم يُتْـمِـمْ قهوتَــهُ

لم يُنصِتْ للموسيقى.

أمسِ، تلَقّى، عبرَ الإنترنَتْ، الخبرَ:

الأمريكيّونَ أقاموا حفلةَ قتْلٍ لعراقيّينَ شبابٍ.

- أينَ؟

- متى؟

*

كارل ماركس تنبّــأَ:

إنّ الـخُـلْـدَ الأحمرَ يحفرُ في النفقِ.

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/٠٩

الشيوعيّ الأخير يُشعـلُ عودَ ثقّابٍ

مقهى رصيفٍ في ضواحي لندنَ الغربيّةِ
المقهى صغيرٌ
فيه طاولتانِ: واحدةٌ بها شابّانِ وامرأةٌ
وأخرى كان ينتظرُ الصديقةَ عندَها . . .
قالت له (ولْـنَفترِضْ أن اسمَها ليلى):
أكونُ، لديكَ، في المقهى، إذا انتصَفَ النهارُ؛
فلم تجيءْ.
مرّتْ دقائقُ عشــرٌ،
الشابّانِ راحا في سبيلِهِــما
وتلكَ الـمرأةُ استلّـتْ كتاباً من حقيبتِها . . .
وفَـكَّـرَ«س»:
إنْ لم تأتِ ليلى بعدَ خمسِ دقائقَ . . . استغنَيتُ عنها،
عن ضفيرتِها،
وعن تلك المواعيدِ التي قد أخْـلَـفَـتْـها كلَّــها.
. . . .
. . . .
. . . .

لم تأتِ ليلى!
المرأةُ الأخرى أشارتْ تطلبُ الثقّابَ.
أدركَ «س» أنّ الأرضَ واسعةٌ
وأنّ الخيرَ في ما اختارت الدنيا . . .
تَحَـــوَّلَ
أشعلَ الثقّابَ
أدنى وجهَهُ من وجهِ تلكَ المرأةِ الأخرى
وقالَ: أتسمحين؟

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/١٣

الشيوعيّ الأخير يُعَدِّلُ في النشيدِ الأممي

كان الشيوعيُّ الأخيرُ يقولُ إن نشيدَنا الأُمميّ ملتبسٌ قليلاً . . .
قرنانِ قد مَـرّا عليهِ
تَخافَقَتْ في الريحِ والأمطارِ راياتٌ تعالَتْ باســـمِـهِ
وتَنَكَّسَتْ أخرى
وما عادتْ نُحاسيّاتُ موسيقاهُ موسيقى الشبيبةِ
في مسيراتِ الشـــوارعِ . . .
إنّ كلَّ مظاهراتِ اليومِ، تبدأُ بالقَـيـاثِـرِ
لا الطبول . . .
و ثَـمَّ شــيءٌ قد يُقالُ عن الأغاني
والفضاءِ
وعن جنونِ الأغنيـــاءِ . . .
مضى الشيوعيُّ الأخيرُ يُـعَـدِّلُ الكلماتِ، شيئاً، إذْ يُغَنِّـــيها :
هُـبُّـــوا ضحايا الإضطهادِ
ضحايا هَولِ الأغنياءْ
بُركانُ الفِكْـرِ في اتِّـقادِ
إننا آيَةُ الســـماءْ . . .
. . . .

. . . .

. . . .

لكنَّ ما يضَعُ الشيوعيَّ الأخيرَ بمأزقٍ، هوَ:
مَن سيسمعُهُ إذا غنّى؟
إنْ كانت الكلماتُ من قرنَينِ
أو من لحظةٍ
أو مِن زجاجٍ . . .
مَن سيسمعُهُ إذا غنَّى؟

لندن، ٢٢/٠٦/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يتطوّع....

أمضى الشيوعيُّ الأخيرُ، الليلَ، معترِكاً مع الجاثومِ. . .
كانت طائراتٌ تخطِفُ الأطفالَ من نُعْمى أسِـــرَّتِهِم، وتعلو في الهواءِ
لتقذفَ الأطفالَ
نحوَ بيوتِ أهليهِم،
وكان الوردُ والرمّـانُ يسترُ وجهَ «حَيِّ السـلَّمِ» المنخوبَ بالطلَقاتِ. . .
ثَـمَّ مَساحبٌ للـمَرْكباتِ العسكريّةِ
ثَـمَّ مدافعٌ طلعتْ من البحرِ
السماءُ ثقيلةٌ حمراءُ
شمسٌ في الهواءِ القرمزويّ تكادُ تذوبُ. . .
لُبنانُ الـمُـوَلْوِلُ يدفعُ الأمواجَ مُـدَّرِعاً
ويغطِسُ في القرار. . .
. . . .
. . . .
. . . .

يقولُ «س»:
كأننا في ٨٢...
يا ما أعذبَ الذكرى!
تطَـوَّعْـنا
وقاتَـلْـنا
وكنّا نحرسُ الرمّانَ في بستانِ «حيِّ السُّـلَّـمِ»...
*

شهداء عراقيّون

كانوا أربعةً في حيّ السلَّـم
قنّاصي دبّاباتٍ
ورواةَ قصائدْ
كانوا عشّاقاً لفلسطينَ
رفاقاً في بغدادِ
وأمسَوا أشجاراً في «حيّ السلّم»
أربعةً كانوا في حيّ «السلّم».

بيروت، ١٩٨٢/٠٨/٠٥

....
....
....

الأعوامُ أيّامٌ

وهاأنذا أُثَبِّتُ خطوتي
متطوِّعاً
وأسيرُ منحدِراً مع الأنهـــار. . .

لندن، ١٦/ ٠٧/ ٢٠٠٦

ديوان غرفة شيراز

محطّــةُ الشّــمال La Gare du Nord

قبلَ أن نتحمّلَ عِبْءَ المحطةِ، بين الحقائبِ والسائرين إلى حتْفِهِم
دون أن يَعْلَموا،
كنتُ أعرفُ أنّا (وأعني أنا والتي كنتُ أحـبَـبْـتُها) سائرانِ إلى
سكّـــةٍ
لن تصِلْ.
كنتُ أعرفُ أنّ محطّة باريس، سوفَ تكونُ الأخيرةَ. لن نعرفَ
الفجرَ ثانيةً،
بينما
نحن معتنقانِ على قهوةٍ بالحليبِ، وخُبزِ الأهِلّةِ. . .
ذاكَ المساءَ الأخيرَ
(وأعْني الذي قبلَ صُبحِ المحطةِ)
ألقيتُ نفسي، ثقيلاً كلَوحٍ، على مَتْنِ ذاك الفِراشِ بفندُقِنا. . .
ثمّ نِمْتُ.
لم أكُنْ أتصَوّرُ،
لم أكُنْ أتصوّرُ جِيزيلَ كانت تريدُ. . .
ولكنّ جيزيلَ تعرفُ كم كنتُ أضعفَ من نملةٍ!
إنّ جيزيلَ تعرفُ كم كان أرهقَني الحفْلُ: تلك القراءةُ

ذاك الأســـى
وإلى آخرِ الحفْلِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
والآنَ
من بَعْدِ سَبْعٍ
سأذكرُ أنّا افترقنا، بلا سببٍ، في المحطّةِ.

لندن، ١٩/ ١١/ ٢٠١٠

الآتـــون

أنت لن تبصرَنا في الـمَنْزَهِ السادسِ
لن تسمعَ في «شارع باريسَ» أغانينا التي تبكي
ولن تلمُسَ في قِرطاجَ جمرَ الجوعِ والـحُـمّى. . .
لقد ضاقتْ بنا الدنيا إلى أن عَذُبَ الموتُ
إلى أن أصبحَ الـمَقْتُ هواءً
أيّ وردٍ سنرى في وجنةِ الطفلِ الإلهيّ؟
فهل نستمطِرُ الصخرَ؟
وهل نعصِرُ ممّا جَفَّ من أعراقِنا كوبَ حليبٍ؟
غيضةُ الزيتونِ باعوها فأمستْ حطباً للموقدِ. . .
البحرُ لقُرصانٍ
وأعنابُ البلادِ اعتُصِرَتْ خمراً لسوّاحٍ صليبيّينَ أوباشٍ
وها نحنُ أولاءِ
الناس
منسيّينَ
منفيّينَ في أحوازِنا،
لكننا آتونَ. . .

لندن، ١٢/ ٠١/ ٢٠١١

الرِّسُّ الـنّـغْــلُ

قالوا:
أكنتَ تريدُ أن تغدو الشهيرَ
وأنت تعزفُ أسطوانتَكَ «الشيوعيّ الأخير...؟»
لقد ملَلْنا!
منذُ أن دُفِنَتْ لينينغراد في صحراءِ نيفادا
تبدّلت الأمورُ
ولم تعُدْ، أبداً، معادَلةَ الشيوعيّين ضدّ الرأسماليّين...
قالوا:
أيّها الـمُدَّثِرُ المقرورُ
قُمْ
وانظُرْ تَرَ العجَبَ...
....
....
....
البسيطةُ أتلَعَتْ رِسّــاً جديداً
ليس من أصلٍ
ولا فَصْلٍ، لهُ...

رِسّـــاً لـئيماً يقتلُ العمّالَ حتى في مناجمِهم. . .
يُبيدُ نباتَ هذي الأرضِ، شعباً بعدَ شعبٍ
مِلَّةَ الإســلامِ
زولو
أُمّةَ الأزتيكِ
والمايا
عراقيّين
صابئـةً، بَهائيّينَ، أنباطاً
فلسطينيّةً. . .
يا أيّها الـمُـدَّثِّـرُ المقرورُ
غَـيِّـرْ أسطوانَتَكَ
الأمورُ تغَيَّرَتْ!

لندن، ٢١/ ١١/ ٢٠١٠

الزيّاديّــــة

ستبقى هنا، تتأمّلُ ساحةَ ثلْجٍ وموتَى وأغْرِبةٍ.
للفصولِ قراءاتُها
وكذلك للنبْضِ. . .
لكنّك الآنَ تُطْبِقُ ما كتبَ الثلجُ
تُطْبِقُ ما كنتَ تكتبُ
أو تتفكَّرُ.
أنت، الـمُـقَـلْـقَـلُ، تركضُ:
شطُّ العربْ
غيضةُ الكَرْمِ في النهرِ
أبناءُ خالتِكَ. . .
الآنَ تركضُ، مُهْراً، على الشاطىءِ.
الآنَ تلْقي بنفسِكَ في الماءِ، ذاكَ الدفـــيءِ
وتمضي بعيداً إلى حيثُ تدخلُ قَـصْـــبـــاءَ
أنتَ تُغافِلُ حُرّاسَ إيرانَ
. . . .
. . . .
. . . .

ساحةُ ثلجٍ وموتى وأغربةٍ. . .
ثمّ يأتي الشميمُ:
لقد كنتَ ترقدُ تحت الغصونِ الكثيفةِ
دوحةُ تينٍ
ظهيرةُ صيفٍ. . .
شـــراعٌ وحيـــد!

لندن، ٢٥/ ١٢/ ٢٠١٠

الـمُـحـاكَـمـة

للّذينَ ارتضَوا أن يكون العراق

فندقاً عائماً لا بلاداً.

للّذين ارتضَوا أن يكون العراق

جبلاً من دشاديشٍ غرقى.

للذين ارتضَوا أن يكون العراق

سوارَ العشيقةِ. . .

أن تمسيَ البصرةُ الأُمُّ مبغى الخليجِ

وأن تتنصّلَ بغدادُ من إسمِها. . .

للّذين ارتضَوا أن يكونوا الأذِلاّءَ

أن يَهَبوا كلَّ ما كنَزَتْ أرضُنا للغريبِ المدجَّجِ

أن يعبِدوا أبرَهةْ

أن يقولوا: العراقَ انتهى. . .

. . . .

. . . .

. . . .

هؤلاء

سوف أجمعُهم، ذاتَ فجرٍ، بمقهىً على جَزْرةٍ بالفراتِ
وأحفرُ أسماءَهمْ في جماجمِهِم
وهمُ الصاغرون. . .

لندن، ١٢/ ١١/ ٢٠١٠

المحطّة السـويديّـة
Sundbyberg

ثَـــــــــمَّ كان القطارُ الوحيدُ الذي يبلغُ الأرضَ تلك التي لا نَرى

يبلغُ الأرضَ تلك التي لا تُرى

لا تُرى بالعيون

لا تُرى بالجنونْ

رُبّما كان لي أن أُغادرَني. . . . .

ربما كان لي أن أغادرَ بيتي، وما خلَّفَ العُـمُـــرُ الجهْمُ لي من متاعْ

ربما سيكون الضَّياع

سبيلاً

إلى تلكمُ الأرضِ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

مَنْ يا تُرى ستكونُ هنالكَ واقفةً بانتظاري؟

٢٠١١/٠٤/٠٤

المَعاد

واديِ بني عبد السلامِ، إذا أوغلتَ فيه، بلغتَ بغدادَ السلامِ
كأنني أهذي
كأني مُعْنِقٌ في الليلةِ الألفَينِ قبلَ الألْفِ
أُنصِتُ:
مَرْبَعي يَمَنٌ
ومُنتَظَري نِزارٌ..
ثَمَّ في «نِزْوى» مدافعُ سوف تأخذني إلى الرّستاقِ
سوف أكون عند الدّكّةِ:
البحرُ القديمُ
وحانةُ البحّارةِ الحُكَماءِ
ثَمّتَ نسوةٌ متبرِّجاتٌ، قهوةٌ، ودِنانُ خمرٍ برتغاليّ...
وأسمعُ من بعيدٍ موكبَ السجناءِ، في أغلالِهم، يمضون نحو القلعةِ.
البِصريّ، موسى البدر، نوخذةٌ، وفلاّحٌ، يعيشُ مع الغلامِ
وكان يحكي لي طويلاً، عن قرىً في شرقِ إفريقيّةَ:
الأحباش
مومباسا

وفندق زنجبار . . .

عن اختيارِ القاتِ في هَرَرٍ

وعن جنّيّةٍ في البحرِ كادت أن تعانقَه عميقاً . . .

كنتُ أتبعُهُ، كأعمى، في متاهته . . . طريقِ البومِ

أسمعُهُ وأتبعُهُ إلى أن ينجلي الليلُ المهدهَدُ بالنخيلِ

ومرّةً غنّى :

هَلا . . .

بيتي، هَلا . . .

بِنتي، هَلا . . .

وأريدُ «مَسقَطَ» . . . يا هَلا !

بيتي هَلا . . .

بنتي هلا !

وأريدُ «مَسقطَ» . . . يا هَلا !

لندن، ١٠/ ٠٢/ ٢٠١١

الـمَـقْـتَـلـــةُ

أحاولُ أن أنســـى
أحاولُ غفلةً، ولو ساعةً أو ساعتَينِ. . .
كأن في عروقي يدورُ الدِيناميتُ مُوَقّـتـاً
وأنّ دبيبَ الـنّـبْضِ قد بلَغَ الأقصى. . .
أأنظرُ في المِـــرآةِ؟
أَمْ أن شاطىءَ البحيرةِ مِرآتي التي أتأمّلُ؟
الخريفُ يدقُّ البابَ:
اصفرَ
أحمرَ
ارتعاشاً بْرونزيّاً
ووَرداً،
أُحاولُ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
السفينةُ في مَرســـى القراصنةِ
الغزالةُ الآنَ في الـمَـرمى. . .
وإني أُحاوِلُ؟

لندن، ٠٤/ ١١/ ٢٠١٠

النجم الثاقب

هل رأيتَ النجم؟
إنْ لم تَرهُ. . .فاسمعْ ترَ النجمَ
ألم تهجِسْ حفيفاً، هَفّةً، رجفةَ ريشٍ من جناح الجِنّ؟
أَم أنّكَ أحسستَ بوخزٍ داخلَ الأُذنِ؟
تأمَّلْ. . .
لا تَقُلْ شيئاً
ولا تنتظر العينينِ،
(قد أُغمِضَــتــا منذ سنينَ)
الآنَ
وفي خطفةِ ريشٍ من جناح الجنّ
يأتي النجمُ!

لندن، ١٧/ ٠٣/ ٢٠١١

الواصليّة

هي بين الزّيّاديّةِ، خضراءَ، و كُوتِ الزَّينِ
أراها الآن كما كانتْ:
مرسى عوّاماتٍ خمسٍ
(أتكونُ ثلاثاً؟)
هي مأوى مَن يُرشِدُ كلَّ السفنِ البحريةِ إذ تدخلُ شطَّ العربِ
لا أدري كيفَ دخلتُ إلى إحدى العوّاماتِ. . .
صعبٌ أن أتذكّر. . .
قد مرّتْ خمسون من الأعوامِ. . . !
ولكني أتذكّرُ كيف استقبلَني مرشِدُ تلك السفنِ البحريّةِ:
قالَ: البحرُ هنا
(وأشارَ إلى الطاولةِ)
الوقتُ مساءٌ رطِبٌ
(في البصرةِ، كلُّ مساءٍ رطِبٌ)
كان على مائدةِ المرشدِ عبدِ اللهِ الديراويّ
نبيذٌ
وزجاجةُ وِسكي
White Horse

وثمّتَ روبيانٌ

وشـــرائحُ حبّارٍ

جُبْنٌ

وبقايا عرَقٍ. . .

قال الديراويُّ:

لنبدأْ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

هل أهذي الآنَ؟

تُرى مَن سيُصَدِّقُني؟

لندن، ١٨/ ٠١/ ٢٠١١

أمْــنيـةٌ

أنتَ أغمضتَ عينَيكَ
أغمِضْـهُـما. . .
ولْتَظَـلَّ طويلاً، كما أنتَ، مسترخياً
مغْمَضَ المقلتَين.
إن كرسيّكَ الخيزُرانَ مُريحٌ، أريكةَ غيمٍ.
فأغْمِضْ. . .
لماذا تحاولُ إرهاقَ عينيكَ؟
ماذا ترى لو فتحتَــهما؟
هل حننتَ إلى قريةِ النملِ
والذّلِّ
والقتلِ
والمرأةِ الباردةْ؟
هل حننتَ إلى تيهِ يومِ الأحدْ
وجنونِ البلدْ
ونخيلِ البلدْ
(حيثُ يستهترُ الخائنون)؟
هل حننتَ إلى الطلْقــةِ الواحدةْ؟

. . . .

. . . .

. . . .

أنتَ أغمضتَ عينيكَ

أغـمِـضْـــهما .

هل سمعتُكَ تهذي :

سأُغْـمِــضُ عينيَّ حتى الأبدْ!

استكهولم، ٠٨/ ٠٤/ ٢٠١١

أواخرُ أيلول

وهاهوذا الغيمُ، تَدفَعُ قُطعانَ حِيتانِهِ والخيولِ التي تترنّحُ، ريحٌ شماليّةٌ

والطيورُ تهاجرُ

منذ الصباحِ الطيورُ تهاجرُ

منذ أن خلَقَ اللهُ تلكَ السماءَ، الطيورُ تهاجرُ . . .

ما كان قبلَ دقائقَ بحراً مُحِيطاً تَدافَعُ حيتانُهُ والخيولُ استوى حاجزاً

من دخانٍ وماءٍ ثقيلٍ

ولكنّ تلك الطيورَ التي بدأتْ في الصباحِ تهاجِرُ

ظلّتْ تهاجرُ.

هل تبصرُ الطيرُ ما نُبصرُ:

البحرَ؟

حيتانَه

والخيولَ

وذاكَ الدخانَ

وماءَ السماءِ الثقيلَ؟

وهل تعرفُ الطيرُ

أنّا هنا،

سجناءُ منازِلِنا الحجريّةِ
ذاتِ الحدائقِ؟
أنّا هنا،
الموثَقونَ إلى طينِ أجسادِنا؟
وهل تعرفُ الطيرُ
أنّا هنا
الزائلون؟

لندن، ٢٠/٠٩/٢٠١٠

ترنيمـةٌ للميلاد

أطْبِقْ جَفنَيكَ
لتسـمع.

أطبِقْ
جفنَيكَ
لتفتحَ باباً سِـرِّيّـاً في القاعةِ.

أطبِقْ جفنَيكَ
لتدخلَ بستانَ الخشخاشِ البـرّيّ...

الليلةَ لن تَـتَـنَزَّلَ روحٌ
لن تأتيكَ ملائكةٌ في هيأةِ طَـيرٍ
لن تسمعَ قيثاراً
أو أجراسَ لُـجَـينٍ في الماءِ
ولن تلمحَ غزلانَ الرنّـةِ في السهْبِ الأبيضِ...

هذه الليلةَ
تُطْبِـقُ جفنَيكَ لِتُبْصِـرَ.
أطبِقْ جفنَيكَ
ولا تستيقظْ
إلاّ عندَ صياحِ الديكِ الذهبيّ!

لندن، ٢٤/ ١٢/ ٢٠١٠

تفصيلٌ في الكآبة

هل تكونُ السماءُ مناوِئـــــةً؟
ربّما. . .
آنَ لا تَمْرُقُ الشمسُ فيها
آنَ لا يَمْرُقُ الطيرُ فيها
آنَ يبدو الشجرْ
حَجَـــراً. . .
آنَ لا ترتدي امرأةٌ غيرَ معطفِها.
آنَ آوي إلى البردِ إذ يتقاســـمُـني والســـرير. . .
. . . .
. . . .
. . . .
السماءُ مناوِئةٌ!
حَـسَـنـــاً!
إن ذلك عهدي بها، منذُ أنْ خلَقَ اللهُ هذي السمــــاء!

استكهولم، ٠٧/ ٠٤/ ٢٠١١

تـــنــاوُبـاتٌ

الشمسُ التي غابتْ لم تُـتِمْ ساعتَينِ. ربما لأننا لم نَـعُـدْ نهتمُّ بأنفسِنا. الشمسُ التي غابتْ لم تَقُلْ: وداعاً. ليس لأنها لن تعود. نحن قد لا نعود إليها وإلى النافذة المخطّطةِ بالستارة المعدنية. ومن الغابةِ التي استضافتْ عاصمةً، سوف يدخلُ ارتجاجٌ من قطاراتٍ سريعةٍ. قطاراتٍ ترمي بنا إلى حيثُ لا ندري أو نريدُ. ليس في الحقيبة التي تحمل رسمةَ حيوانٍ مفترِسٍ زادٌ أو قصيـــدةٌ.

الأخضرُ بنُ يوسفَ، الجالسُ كالمقرورِ في غرفتِهِ، في طرَفِ استكهولْمَ، لايعرفُ ما معنى الجلوسِ الـمَحْـضِ. حيناً يرتدي ما كان يوماً دِرعَه: بُرنُسَـــه الصوفَ، وحيناً يسألُ البائعةَ الحسناءَ أن تُلبِسَـــه شالاً من الكشميرِ. لكنّ ثيابَ الأخضرِ الجالسِ في الغرفةِ ليستْ كالثيابِ. الأخضرُ الجالسُ يُلقي دُفعةً واحدةً كلَّ الذي كان له... أو ربّما... كان عليهِ. الأخضرُ، الآنَ، طليقٌ مثلَ ما كانَ. ولن يجلسَ مقروراً هنا في غرفةِ استكْهولم.

البحرُ ليس بعيداً. البحرُ قريبٌ كالغابةِ. البحرُ قريبٌ من رئاتِنا التي أثقلَها استنشاقُ الرملِ المسمومِ. لن نبحثَ عن السمكةِ

الذهبِ. لن نبحثَ عن صندوقِ المُسافرِ. لن نبحثَ عن اللؤلؤ. نحن أسرى سلالةٍ تنقرضُ. نحن السّلالةُ التي تنقرضُ. أمسِ على الشاطيء الذي لم يَعُدْ فيه قراصنةٌ كانت قِطَعُ الثلجِ الطافيةُ تحملُ ما لم يَعُدْ يترقرقُ تحتَ قمصاننا: الشمسَ التي تُفْرِزُ قوسَ قُزَح.

الأخضرُ بنُ يوسفَ، استنشَقَ، في غرفتِهِ التي غابت تماماً، ضوعَ غصْنٍ صندَلٍ. نفحةَ نَدٍّ... هَفّةً من ثوبِ مَنْ كان أحَبَّ. الأخضرُ استعملَ ما كانَ يُداريهِ قديماً: أن يَرى في لحظةٍ خاطفةٍ ما لا يُرى. فلْيتركِ الغرفةَ واستكهولمَ، والمبنى، وهذا البحرَ، والغابةَ، والثلجَ الذي يطفو... ليخرجْ مرّةً واحدةً من جِلْدِهِ، ولْيَندفِعْ في لُجّةِ الثورةْ!

استكهولم، ٠٥/ ٠٤/ ٢٠١١

جــدَلٌ؟

آنَ أُمســـي وحيداً
في الضواحي الغريبةِ
في مِثْلِ هذا المساءِ الذي يتضوّعُ بالثلجِ
هذا المساءِ الذي لا أرى نجمةً فيهِ أو شـــمعةً. . .
ليس لي أن أُحَدِّقَ في الـبُعْدِ
كي ألـمُـسَ النجمَ،
ليس عليّ اشـــتواءُ يدي لأرى شـــمعـــةً.
هكذا، ليس صعباً عليّ اعترافي بأني وحيـــدٌ
(لأنيَ، فعلاً، وحيدٌ!)
ولكنني
مثل أسلافيَ الخاطـئينَ
سأُعلِنُ هذا المســـاء
أمامَ الحديقةِ مهجورةً
والعصافيرِ مقرورةً
أمام قميصِ التي رحلتْ، بغتةً، دونَ أن تتذكّر أحلى قميصٍ. . .
أمامَ السناجبِ

والثعلبِ الـمتـضوِّرِ . . .
أُعـلـنُ :
لســتُ الوحـــيـــد!

لندن، ٢١/ ١٢/ ٢٠١٠

خطّـةٌ أوّلـيّـةٌ لاغتيالٍ

اليومَ
أقتُلُ «موسى» بالرصاصِ. . .
من الصباحِ تَفَحّصْتُ المسدّسَ
سِتّاً كانت الطلَقاتُ
قد دوّرتُها
دارتْ.
سأُطْلِقُها جميعاً،
سوق أقتُلُ، هادئاً، موسى
وأضحكُ إذْ أراه يموتُ. . .
موسى ليس يعرفُني
وهذا يجعلُ القتلَ المقرَّرَ أسهلَ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
الطلَقاتُ ستٌّ
والمسدَّسُ جاهزٌ
ومُجَهَّزٌ بالكاتمِ الصوتيّ.

. . . .

. . . .

. . . .

مَن سيكونُ موسى؟
أهوَ مَن ألقاه في المرآةِ؟
مَن أخشاه في المرآةِ؟
كيف يموتُ موسى؟

لندن، ٣٠/ ٠١/ ٢٠١١

خطوطٌ بالأســود

لدقائقَ، اندفعتْ عصافيرُ الحديقةِ بالتهاليلِ التي ارتفعتْ
ولبغتةٍ هدأتْ. كأنّ الغيمَ والشجرَ الرمادَ تضـايَقا.
وكأنّ برداً من سهوبٍ في سيبريا يـــــــزحفُ.
الصحراءُ ماثلةٌ على تلك الشواطيءِ حيثُ تختزنُ
السلاحفُ بَيضَها. قُلْ لي: أتعرفُ أين تَلقى البنتَ؟
أعني بنتَ ميناءِ الشمالِ؟
أليس من أملٍ بأن تأتي إلى استوكهولم؟
أن تأتي إلى جُزُرٍ بغيرِ زوارِقَ؟
الأوراقُ مازالتْ مؤجّلةً.
يظلُّ الدوحُ أسوَدَ. . .
ثوبيَ الصوفيّ أسودَ. . .
ريشةُ العصفورِ. . . . سوداء.

استوكهولم، ٠٧/ ٠٤/ ٢٠١١

خطوطٌ سـريعةٌ في الليلِ القُطْبيّ

قمرٌ مكتملٌ
يهبِطُ في الـمَرسـى، حيثُ قواربُ مخبولِينَ تفوحُ مداخنُها
بِـبَـخورِ الغاباتِ المقطوعةِ.
منذ ثلاثِ ليالٍ أمسى الماءُ الضّحضاحُ جليداً
وارتحلَ الصيّادونَ.
البطُّ الوحشيُّ يُحَصِّنُ، ليلَ نهارَ، صوامعَـــهُ
والأسماكُ التصَقَتْ بالقاعِ.
القمرُ المكتملُ استنفَدَ شَـــمْـعـتَـــهُ
ومضى، مثلي، يتخبّطُ في الــتـــيـــه.

لندن، ١٩/ ١٢/ ٢٠١٠

رباعيّــةُ الضوءِ البعيـــدِ

(١)

ضوءٌ بعيدٌ بين أغصانٍ مُعَرّاةٍ. . . أرى من فُرجةٍ في منتهى الصِّغَرِ
انثَنَتْ وسطَ الستارةِ، لَمْحَ ذاك الضوءِ. كان الليلُ يَـنـتصفُ.
الحديقةُ تختفي. أشباحُها الأغصانُ عاريةً. أُحِسُّ على ذراعي لَسْعةً.
أتكونُ من بردٍ، أم الأشباحُ وهيَ تَنوسُ تُرعبُني؟ أَم الضوءُ البعيد؟

(٢)

مُحَدِّقاً في عَتمةِ الزمنِ.انتبهتُ. . . أكانَ ذاك الضوءُ يأتي من زمانٍ
سالفٍ؟ من نقطةٍ فُـقِئَتْ على إحدى الـمَجـرّاتِ؟ الحـديقةُ
لا ضياءَ بها. وفي الـبُعْدِ البحيرةُ لاءمَتْ أمواهَها في البردِ والتمّتْ.
أصيّادون؟ هل ذئبٌ يُقَضْقِضُ عُـضْـلَـهُ؟ أم أنني أتوهَّـمُ الأشياء؟

(٣)

لكنّ هذا الضوءَ يأتي. بل أكادُ الآنَ أَلْـمُـسُـــه. يكادُ الضوءُ
يلسَعُ عينيَ الـيُســرى. أغادرُ فَرْشَـــتي، وأُطِلُّ بين ستارتَينِ.
الضوءُ غَـمّـــازٌ، وتلك الدوحةُ الجرداءُ تُفْسِحُ مَنفَذاً. أحسستُ
أنّ زجاجَ نافذتي الـمُضاعَفَ صارَ فضّـيّـاً، وأني في الـمَـدار.

(٤)

يا مرحباً!

يا مرحباً بكَ، أيها الضوءُ البعيدُ، شقيقُ روحي!

مرحباً!

والآنَ أتبَعُكَ. . .

السبيلُ إليك أنتَ.

النورُ يجعلُني خفيفاً، طائراً

والنورُ يجعلُني شفيفاً.

. . . .

. . . .

. . . .

لحظةً، وأكونُ خارج بُرجيَ الـحَجريّ.

سوف أكونُ أنت!

لندن، ١٩/ ١١/ ٢٠١٠

رباعية على الطويل

تسيرُ بعيداً أنتَ. . .
أبعدَ، ربما، من البرقِ
أو مما تريد الملائكُ

تسير بعيداً
لم تفكرْ للحظةٍ
بأن تتروى، آنَ ترغو المهالكُ

سعيداً، تقيمُ الليلَ
أسعدَ، فارهاً، نهاراً
وتصغي:
تلكَ، تلكَ، السنابكُ

يليقُ بك التاجُ الذي ليسَ مثلَهُ
نضارٌ
و غارٌ
وهو دامٍ وشائِكُ!

على الطائرة - برلين - ستوكهولم، ٠٢/ ٠٤/ ٢٠١١

زهرةُ الـنَّوّام

يَمُرُّ «أبو الخصيبِ» كما تمرُّ النوارسُ
ليتَها هدأتْ قليلاً
لأعرفَ كيفَ أذكُرُها . . .
فأُذْني الذراعَ أُمَسِّدُ الريشَ الـمُوَشَّـى
وأستافُ الشميمَ. . .
«أبو الخصيبِ» النخيلُ الرَّطْبُ
والسَّمَكُ
الهجيرُ
ونعمةُ الأنهارِ. . .
بيتي
وبستاني الذي أخذوهُ حَرْبا. . .
. . . .
. . . .
. . . .
سأجرحُ زهر ةَ النّـوّامِ
حتى أدوخَ مُهدهَداً
فأرى السماءَ التي خُطِفَتْ
وأسبحَ في مياهي. . .

٢٨/ ٠١/ ٢٠١١

شجرة مطّاط

لا تلمُسْ أوراقَ الشجرةْ
لا تلمُسْها... أرجوك!

هذي الشجرةْ
هي للطاهرِ وَطّار...

وأقولُ لـ «حِرْزِ الله»
أقولُ لـ «رزّاقي»
تحديداً:
ليس لأيٍّ من إنْسٍ أو جِنٍّ، حقٌّ في أن يلمُسَ هذي الشجرةْ!

الناسُ يقولون:
الطاهرُ
كان يُكاثِرُ أشجارَ المطّاطِ...
حسناً!
لكنّ الطاهرَ ما كانَ يُكاثِرُ مالاً
والطاهرُ لم يجمعْ مالاً لِـيُعَـدِّدَهُ،

إن الطاهرَ في أرضِ الشهداءِ المنسيّينَ
وَلِـيٌّ.

والآنَ أقولُ لِرزّاقي
رزّاقي تحديداً (وهو ابنُ شهيدٍ):
يا رزّاقي
إنْ زرتَ البيتَ الـمُخْضَرَّ عميقاً من أشجارِ المطّاطِ
بيتَ الطاهرِ
حيثُ شرِبْتَ نبيذاً ورديّاً في رَمضان
فلْتقرأْ:
إن الطاهرَ صوتُ الله!

لندن، ٢٠١١/٠١/١٦

طُـهْـرٌ

لِكَسْتَنـاءِ الضواحي اشتقتُ في ســفَري
لا نخلةُ اللهِ شـاقَتْني
ولا الأَثَلُ
ولا ذوائبُ لَبلابٍ
ولا قمرٌ يلاعِبُ الماءَ. . .
قالوا: ثَـمَّ فاخِتَةٌ تأوي إليكَ مساءً،
قلتُ: مُـنْـتَـبـذي مأوى العذارى ذواتِ الريشِ
لا قِـططٌ قد آنـسَـتْـني
ولا ليلى تُرَطِّبُ لي مَتْنَ الفِراشِ
فلا نُعْمى
ولا قُبَلُ. . .
كأنّ قُطْنَ فراشــي حينَ ألـمُـسُـهُ
سجّادةٌ بالبياضِ الـمَـحْـضِ تحتفلُ!

لندن، ١٩/٠٥/٢٠٠٥

عِنـاد

إلى أين تذهبُ هذي الطيورُ؟
المساءُ الذي يَكْفَهِــرّ يُغادِرُ ما كانَ يُسْـمى السماءَ
لقد همَدَ الكونُ. . .
تلك الطيورُ التي ذهبتْ لم تَعُدْ تملأُ اللوحةَ.
الكونُ أعمى
ولكنني سأُلَـمْـلِمُ نفسي
وأشلاءَهُ
سوفَ أُبْريءُ ذاك العمى
وأتابعُ تلك الطيورَ التي ذهبَتْ
في مساءٍ
بلا رقّةٍ أو ســماء.

لندن، ١١/ ١٢/ ٢٠١٠

غِبْطـةٌ

أصابعُ القَدَمِ اليســرى، تُـنَـمِّـلُ. . .
جسمي واهنٌ
وعلى مَشْـتى البسيطةِ، كان الليلُ
أطولَ حتى من مُعَلَّقةِ امرىء القيسِ
كان الليلُ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
أنهضُ
أخطو
أنثني وجِلاً، مستَنفَداً، صوبَ شُبّاكي
وألـمُسُــهُ
لعلَّ روحَ الزجاجِ. . . .
. . . .
. . . .
. . . .

الليلُ يَـثْـخُـنُ

حتى في البحيرةِ أمسى الماءُ

لوحَ رصاصٍ.

لا أرى أحداً في الـبُعْدِ

لا ضوءَ

لا نَوءَ

لا أغصانَ. . . .

أدخلُ في بعضي

أُلَـمْـلِـمُ، مثلَ المصطفى، الـخُـصُـلاتِ البِيضَ

أضفِرُها

تاجاً

وآوي إلى عرشـــي

وأغتبِطُ.

لندن، ١٩/ ١٠/ ٢٠١٠

غرفة شيراز

أقولُ لشيرازَ:
أنتِ تعيشينَ في غرفةٍ واحدةْ
بضواحي المدينــةِ، حيث قطاراتُ برلينَ تهمدُ في آخرِ الخطِّ.
هل تكتفين بهذا؟
هل تظلّينَ طولَ حياتكِ في الغرفةِ الواحدة؟
لا صديقٌ يؤانسُ وحشةَ عُمْرِكِ يا بِنْتَ سعدي
و لا من صديقةْ؟
هل تَجَـمّـدَ عُمْرُكِ في اللحظةِ الصِّفْـرِ؟
هل أنتِ مثلي؟
ولكنني بين حينٍ وآخرَ أخرجُ من سجنِ هذا الزمانِ العجيبِ
وأركضُ في شارع الليلِ وامرأةً من عَدَنْ. . . .
أنا أقهَرُ هذا الزمَنْ!
فافتحي، يا بُـنَـيّــةُ أبوابَ غرفتِكِ الواحدة'
واخرجي. . .
نتنسّــمْ معاً ما أتانا بهِ، اليومَ، هذا الربيع!

استكهولم، ٢٠١١/٠٤/٠٦

متفائلاً أحيـا

يموتُ الشيوعيُّ

لكنّ حُلْمَ الشيوعيّ أجملُ من أن يموت. . .

البيوتُ لساكنِها

والحقولُ لحارثِها

والأغاني لِمَن لا يُطيقُ السّكوت. . .

. . . .

. . . .

. . . .

إذاً: لن يموتَ الشيوعيُّ

إنّ الشيوعيّةَ الـحُـلْمَ أبعَدُ من أن تموت. . .

لندن، ٠٦/ ١٢/ ٢٠١٠

مُـتَـوازيـات

لا تعاتِبْني، وإلاّ سِـرْتُ عن كُلِّ الـمُـكَـلاّ
(واعتذاري من أبي بَكْرٍ) وإنْ كانَ استَهَـــلاّ!
سوف تأتي عدَنٌ، هادئةً في موجةٍ،
شِيحاً،
وكاذِيّاً،
و فُلاّ. . .
ونساءً يرتدِينَ النَدَّ، والـخُضرةَ، والدِّرْعَ شفيفاً
وأفاويهَ الـمُكَـلاّ.
عدَنٌ تسكنُ ما أسكنُهُ حتى وإنْ أوطأْتُ ظِلاّ. . .

*

لَكأنّ هذا الثلجَ يهبِطُ منذُ آبادٍ، كأنّ الثلـــجَ
يكتبُ هذه الدنيا، ويُعْلِنُها له، بيضاءَ، مملكـةً
كأنّ العشبَ والأشجارَ والأطيارَ لم تكُنِ. . .الهواءُ
يَشِفُّ، لكنْ ليسَ من متنَفّسٍ. قمرٌ كبيـــر.

*

هل أرى، ثانيةً، ما كان يُسْمى ســاحلَ العشّاقِ؟
كانت عدَنٌ تصنعُ في الليلِ نهاراً غامضاً. كانَ الهواءُ

الرّطْبُ سِـرِّيّاً. زهوراً وثماراً إستوائيّاتٍ. الليـلُ
ثخينٌ. سوفَ نمضي في مضيقِ الـحُبّ والفودكا عميقاً.
*
من أين يأتي كلُّ هذا الصمتِ؟ حتى الريحُ صامتــةٌ.
ومَن أسْمَيتُــهُــم بَشَــراً، وجيراناً، كما في أيِّما لُغَةٍ
تبَدَّوا مثلَ ما بدت التماثيلُ الغبيّةُ. ليس يُرجى الصوتُ
مــمّن ظلَّ يحفرُ قبره متمهِّلاً. والثلجُ عادَ الآنَ يسقطُ.
*
لا تَقُلْ: قد ذهبتْ (في ما يُسَمّى عرَباً بائدةً، أو في الأغاني)
عدَنٌ...
نحن،و أعني فقراءَ الأمّةِ، اخترْنا لها أن تغدوَ الغايةَ والمسرى.
بنَيناها كما تبني ذراعٌ أختَها.
سوف نراها مثلَ ما شِئنا لها:
شِيحاً،
وكاذِيّاً،
و فُلاّ...
ونساءً يرتدِينَ النَدَّ، والـخُضرةَ، والدِّرْعَ شفيفاً
وأفاويهَ الـمُكَـلاّ.
....
....
....

سنراها عدَناً!

*

والثلجُ يدفِنُ في الشمالِ البربريّ، الناسَ والتاريخَ. . .
يدفِنُ ظِلَّهُ
وضَبابَهُ،
الثوراتِ
والكتُبَ العظيمةَ
حيثُ كانت، فكرةً، أو هاجساً، عدَنٌ. . .

لندن، ٠٧/ ١٢/ ٢٠١٠

---

* أبو بكر هو أبو بكر سالم، والبيت الأول من مستهَلّ أغنيةٍ له

محاولةٌ في الهدوء

في المطار، ببرلين
كانَ الربيعُ بثاني صباحٍ
وكانت خدود الصبايا النحيفات تدفأ
أنت، كما لم تكن قبلُ، تجلس وحدكَ
لا تنتظِر...
ولأقل لك ياصاحبي الجهم لا تنتظرها
لقد غرقت منذ شهرٍ
هنالك
حيث الرمال مخططة بالأفاعي.

برلين، ٠٢/ ٠٤/ ٢٠١١

محطّةُ قطارِ أَكْسِبْرِجْ

تغمغِمُ إذْ أُقَبِّلُها طويلاً
على بابِ المحطّةِ. . .
ثم تمضي، وقد سحبَتْ حقيبتَها القماشَ
ولم تقُلْ حتى وداعاً. . .
أتحسَبُ أنني قد ضِقْتُ ذَرْعاً بها؟
واللهِ
سوف أظلُّ آتي
إلى بابِ المحطّةِ. . .
سوف أبقى هنالك ثابتاً
ليلاً
نهاراً
فقد تأتي، وقد شَدّتْ بحبلٍ، حقيبتَها القماشَ.
. . . .
. . . .
. . . .
أُحِبُّ لِيْزا!

لندن، ٠٤/ ١٠/ ٢٠١٠

مرثيّةٌ للشيخ خزعل

ستظلُّ «كُوتُ الزّينِ» تومىءُ، في الظلامِ اللندنيّ، إليّ:
كَوناً من بساتينِ النخيلِ، ومن ضَبابِ النهرِ. كان الشيخُ
خَزْعَلُ في «الـمُـحَـمّـرةِ». التميميّون من كنعانَ كانوا
في قِلاعِ الطينِ، أعني في منازِلِهم بـ «كوتِ الزَّينِ»،
يَرْتَـصّونَ: خَطٌّ للدفاعِ عن العراقِ الأوّلِ الـعربيّ...
«كوتُ الزّينِ» نحنُ، ومِثلُها تلكَ «الـمُـحـمّـرةُ».
الأنينُ الآنَ يَعبرُ من هناكَ إلى بيوتِ تميمٍ. الشيخُ التّـقِيُّ
يموتُ مسموماً بما مَخَضَ الطبيبُ الإنجليزيّ. الأنينُ يغورُ
حتى يبلغَ الآبارَ في
«باب الزُّبَيرِ». سيستريحُ الشيخُ خزعلُ
من سلاسـلِهِ، ولكنّا سندخلُ في سلاسلنا الجديدةِ.
دجلةُ العوراءُ قد عَـمِـيَتْ
وجاءَ الإنجليزُ.

لندن، ٢٦/ ١٢/ ٢٠١٠

مسوّداتٌ سريعة

اليومَ، سأكتبُ بضعةَ أبياتٍ
عاثرةٍ.
. . . .
. . . .
. . . .
مثلاً أكتبُ:
غاباتُ استكهولمَ مغطّاةُ العشبِ بثلجٍ رخوٍ حتى الآن
أكتبُ
أمسِ قطعْنا البحرَ المتجمدَ كالآيس كْرِيم لنبلغَ أكواخَ الخزرجِ
أكتبُ
إني نمتُ أخيراً وعميقاً
بعد ثلاث ليالٍ من سُهدٍ أعمى في شهرٍ أعمى
أكتبُ عن ورقٍ يتناثرُ في الريحِ
لن أغلقَ نافذتي.
أكتبُ: طنجةُ بيتي.
أكتبُ
إني أكرهُ رملَ بلادِ العربِ

وأفاعي الرملِ بأرضِ العربِ
أكتبُ
إن عراقاً ميْتاً
يولَدُ ميْتاً
ويظلُّ عراقاً يولَدُ ميْتاً
حتى القرنِ الثاني والعشرين.

استكهولم، ٠٤/ ٠٤/ ٢٠١١

مصرُ البهيّةُ أمُّنا جاءت إلى الساحة

إلى أحمد فؤاد نجم

مصرُ البهيّةُ، أمّـنا، جاءت إلى الساحةْ
مصرُ البهيّةُ، أشرعتْ للريحِ، طَرْحتَها
ودارتْ رايةً، بالفُلّ والبارودِ، فوّاحةْ
مصرُ البهيّةُ، أُمُّـنا، جاءتْ إلى الساحةْ

*

وتكونُ أنتَ
كما عهدتُكَ، يا رفيقَ العُمرِ
محترقَ الـخُطى، في ساحة التحريرِ
ما أبهى النضالَ
وأقبحَ الراحةْ!
مصرُ البهيّةُ، أمُّـنا، جاءتْ إلى الساحةْ.

*

إني أراكَ هناكَ
بالكوفيّةِ الرقطاءِ
والعَـلَـمِ الفلسطينيّ. . .

بالـحُلْمِ الذي غلغلتَهُ، جيلاً فجيلاً، في منابتِ مصرَ
يا أحمد فؤاد النجم. . .
هاهي ذي القيامةُ آذَنَتْ:
مصرُ البهيّةُ، أُمُّـنـا، جاءتْ إلى الساحةْ!

لندن، ٣٠/ ٠١/ ٢٠١١

مياهٌ تَعِجُّ بالكواسِـج

السماءُ التي تَـدَّنـي غيمةٌ من رصاصٍ وزئبقْ.
كانت الأرضُ في البدْءِ
ماءً
ورملاً يَشِـفُّ مع الضوءِ ماءً.
أجئتَ إلى الشاطىء المتوحِّشِ مِن قَبْلُ؟
هل أدركتْ مقلتاكَ الطريقَ أم القدمان تقودانِكَ؟
الآنَ
أنتَ هنا...
وعليكَ العبورُ:
إلى أينَ؟
حتى الإلهُ الذي كان سَوّاكَ
يعرفُ أن العبورَ الذي لا يؤدِّي، هلاك...
....
....
....
لِتَقُلْ:
فَـلْـيَـكُنْ!

والمياهُ التي ضَحْضَحَتْها الكواسجُ
سوف تظلُّ المَخاضةَ
حتى الوصول. . .

لندن، ٢٠/ ١١/ ٢٠١٠

نخّاسو عُمان

إذا أتيتَ عُماناً أو سكنتَ بها
يومَينِ، فالشرُّ في المأتى وفي السَّكَنِ
قومٌ بلا ذمَّةٍ، لا شأنَ يؤنسُهم
إلاّ حديثٌ عن الأسلابِ والهُجُنِ
وعن أرِقّاءَ تاهوا في الرمالِ وعن
سفينةٍ جَنَحَتْ في فَرْضةِ اليَمنِ
ما كنتُ أدري وقد يمّمتُ ساحلَهم
أني سأصحبُ نخّاسَينِ في زمني
الحارثيَّينِ: عبدُ اللّه أوَّلُهُم
أمّا محمّدُ فهو المبتلى بِهَنِ*
شادا المخيّمَ في رملِ الوُهَيْبةِ فخّاً
للنساءِ الجواري البيضِ والفِتَنِ
في «ألف ليلةَ» دَيّوثٌ وعاهرةٌ
زانٍ، وزانيةٌ، في السرِّ والعلَنِ
لو أُبْلِغَتْ شرطةُ السلطانِ أمرَهما
لَنكّلَتْ بهما، كَلْبَينِ في قَرَنِ

لا بـــارَكَ الـــلّـــهُ فـــي أرضٍ تَـــسَـــيَّـــدَهـــا

خُـلـقُ الـضـبـاعِ وخَـرقُ الـمـنـبِـتِ الـنـتـنِ:

«سـمـاءُ عـيـسـى» تـخـلّـى عـن قـصـائـدِهِ

وآثَـرَ الـعـيـشَ قـوّاداً. . . لِـمُـمْـتَـحَـنِ*

برلين، ٢٥/٠٣/٢٠١١

---

* محمد الحارثيّ مبتلى بداءٍ في مؤخّرته.

* الممتحَن هو عبد اللّه الحارثيّ المدمن على الكوكايين والماريجوانا.

* سماء عيسى كان قوّاداً فعليّاً وببرودة دمٍ عجيبة.

نشيدُ ساحة التحرير

في «ساحة تحرير» الله نقيمُ
نُقيمُ مساءَ صباحَ
نقيمُ صباحَ مساءَ
نقيمُ إلى أن نجعلَ من إسمِ عراقٍ وطناً. . .
بغدادُ المحروسةُ بالإسمِ الأعظمِ
بغدادُ المحروسةُ بالشعبِ
المحروسةُ بالعمّالِ
المحروسةُ بالطلاّبِ
المحروسةُ بالجنديّ (وإنْ دَرَّبَهُ الأميريكيّون). . .
بغدادُ المحروسةُ بالإسمِ الأعظمِ: بغداد
ستجعلُ من إسمِ عراقٍ وطناً
وطناً حُرّاً
وسعيداً. . .

لندن، ١٣/ ٠٣/ ٢٠١١

نهارُ أربعــاء

النهارُ اختبأتْ غزلانُهُ في وهدةِ الدّغْلِ. ومنذُ الصبح كانت عَتْمةٌ ليليّةٌ. لا صوتَ من طيرٍ ولا خطوةَ من طفلٍ، ولا هفَّةَ ثوبٍ. قطّةٌ مثقلةٌ في جانب السور أَرَتْني أنّ ما أشهدُهُ ليس خرافيّاً. هو المشهدُ يومَ الأربعاءِ. النسوةُ اعتَدْنَ طوالَ العُمْرِ ما اعتَدْنَ: لقاء الشاي في القاعةِ حيث الشاي يبدو عكِراً، نصفَ حليبٍ، فاتراً... سوف تجيءُ اليومَ فِكتوريا بما قد وعدتْ:
كعكاً بلا طعمٍ و لا لونٍ. ستصطفّ الكراسي، مثلَ ماكانت هنا، منذ الثلاثيناتِ. حتى ورقُ الحائطِ منقوشٌ بما أبدعَه أهلُ الثلاثيناتِ. في الزاويةِ المذياعُ. لا صوتَ، ففي الآذانِ وقْرٌ من دبيب العُمْرِ. مَنْ يأتي هنا في غفلةٍ كي يقلبَ المشهدَ؟
شيءٌ واحدٌ:
سيّارةُ الإسعافِ...

لندن، ١٦/ ٠٣/ ٢٠١١

هاجسٌ

لستُ أدري كيف أفلَتُّ من استكْهولـمَ. . .

شيءٌ في هواء الغرفةِ؟

الأشجارُ إذْ أُبصِـرُها سـوداً؟

رُكامُ الثلجِ؟

أسواقُ البلادِ الإستوائيّةِ؟

أصحابي العراقيّون؟

. . . .

. . . .

. . . .

أحسستُ بأني ضائعٌ في ساحةٍ ليس لها إسمٌ

وأني جائعٌ

مرتجفٌ برداً. . .

وأن الطائراتِ ابتعدتْ في لحظةٍ.

أني سأبكي. . .

أنّ قبري جاهزٌ في ساحةٍ ليس لها إسمٌ

وأني. . .

. . . .

. . . .

. . . .

لستُ أدري كيف أفلَتُّ من استكهولم!

استكهولم، ٠٧/ ٠٤/ ٢٠١١

هل التبَسَ عليّ الليلُ؟

ليسَ لديّ الليلةَ ما أتذكّرُهُ
ليس لديّ حقائقُ:
أعني، مثَلاً، أنّي لا أتذكّرُ أين وُلِدْتُ
أو أنّ الخبزَ ضروريٌّ. . .
أو أنّ شيوعيّةَ ماو تسي تونغ هي الأجملُ!
أحياناً ندخلُ في نفَقٍ يدخلُ في أنفاقٍ
هل نتفكّرُ؟
رُبّتَما كان الخيرُ لنا ألاّ ندخلَ في النفقِ الأوّلِ. . .
ربّتما كان الخيرُ لنا أن نهتفَ:
إن شيوعيّةَ ماو تسي تونغ هي الأجملُ!
أو أنّ شعارَ مظاهرةٍ هو:
نحن نريدُ الخبزَ. . .
وربّتما كان عليّ، تماماً، أن أتذكّرَ أينَ وُلِدتُ،
عليّ القولُ:
وُلِدْتُ جنوبيّ البصرةِ
في بلدٍ،كان يُسَمّى في المخطوطاتِ، عراقاً. . .

(لا أدري كيف أُسَمِّيه الآنَ)
علَيّ القولُ:
دمي من أجْلِ عراقٍ لا يحكمهُ الأميريكيّون. . .

لندن، ١٤/ ١١/ ٢٠١٠

يوم القيامة الأبيض

متحصِّناً خلفَ الزجاجِ، أراقِبُ الـمَـمْشى يغيبُ
الساحــةَ الـقَوراءَ تُقفِرُ
والصنوبرةَ التي كنتُ ازدرَعْتُ تصيرُ بيضاءَ. . .
العناكبُ لم تَعُد، لكنّ ما تركتْهُ من وَشَـعٍ بَدا مثلَ الزجاجِ مُـعَـنْـقَداً
ماســاً خفيـفــاً قد يُزَيِّنُ جِيدَها (تلكَ الأميرةَ).
ليس من صوتٍ
كأنّ الريحَ تحمِلُ كلَّ هذا الثلجِ متعَــبــةً.
كأنّ الأرضَ تنتظرُ النهايــةَ، مَدفَــنــاً تحتَ البياضِ.
كأنني وحدي أتابعُ مشهدَ اليومِ الأخيرِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
أليسَ من أمَلٍ لنا؟
فقراءُ هذي الأرضِ، نحنُ. . .
ستنتهي الدنيا، ولم نفرَحْ بها يوماً
ولم تَفرَحْ بنا!
فَـلْـيأتِ هذا الثلج
كلُّ الثلجِ. . .

لندن، ١٨/ ١٢/ ٢٠١٠

أنا بَرلينيّ؟: بانوراما

Ich Berliner ? : Panorama

(٢٠١٠)

عن هذه المحاولــة في النصّ الشِّعريّ

كتبتُ هذا النصَّ، محاولةً، في القصيدة العربية غير التقليدية كما أراها، أي القصيدة الخارجة على اللعنة الثنائية الناشبة.

الأمرُ، هنا، أعقدُ من قصيدةٍ متعددةِ الأشكال.

إنها محاولةٌ في الحريّة.

قلتُ مرّةً إنني مُدَوِّنُ حياةٍ، ولستُ شاعراً.

كنتُ أريدُ القولَ إنني لا أنتسبُ إلى رطانة السائدِ وانبِتــاتِه.

كتبتُ «بانوراما» وأنا في برلين بين الأول من حـــــزيران ٢٠١٠ والأول من أيلول العام نفسه.

ومثل ما فعلتُ في نيويورك، آنَ كتبتُ «قصائد نيويورك»، وفي إيطاليا حين كتبتُ «الديوان الإيطاليّ» وفي باريس و«قصائد باريس» - كنت أخرجُ صباحاً، مع دفتري، لأرى برلينَ الناسِ تستيقظ.

عليّ أن أستقبلَ. أن أُرهِفَ حواسّــي. أن أُحِبَّ العالَمَ.

أليس هذا كافياً؟

ما الشِعرُ، إذاً؟

سـعدي يوسـف

حكاياتُ البحّـارةِ الغُرَبـاءِ

١-

بحّارةٌ غرباءُ نحنُ، بمرفـأٍ يعلوهُ بُركانٌ. . .

هبطْنا منذُ عهدٍ لم نَـعُــدْ نتذكّرُ الأيامَ فيهِ، ولا تفاصيلَ النزولِ

بـرملِ هـذا الشاطئ الـمملوءِ صخراً ناتئاً تعلوهُ أشواكُ القنافذِ،

والطحالبُ. . .

ربّما كان النزولُ

الفجرَ. . .

والتأريخُ؟

قبلَ كتابةِ التاريخِ؟

قبلَ الكهفِ، والحيوانِ مرســوماً؟

أنحنُ خرافةٌ، أمْ أننا، فِعلاً، أُناسٌ مثل كلِّ الناسِ؟

. . . .

. . . .

. . . .

نعرفُ أننا، فعلاً، هنا

بحّارةٌ غرباءُ

جاؤوا مرفأً في ظلِّ بُركانٍ. . .

ونعرفُ أن هذا المرفأَ المشؤومَ يشبهُ ما تَناقَـلَـهُ الربابنةُ القدامى عن مرافئ تختفي في البحرِ أزماناً، لتَطْـلُـعَ مرةً أخرى، قذيفةَ فُوّهاتٍ من وحوشِ البحرِ، أو حِـمَـمِ البراكينِ. . .

المرافئ؟

هل نسمِّـيها مرافئ؟

فَـلْـيَـكُـنْ!

ولْـنَمْـضِ فيها، مثلَ ما نمضي، سكارى بالذهولِ

مُـدَوَّخينَ بِما طَـعِـمْـنـا من قـواقعَ

أو شـرِبـنـا من نقيعِ الزعترِ البرّيّ والموزِ. . .

المساءُ مساؤنا:

فَـلْـنوقِــدِ الحانات!

٢-

في برلين

أذهبُ إلى ٧٧ شارع تي تي زِي شتراسّـــه

77 titisee STR.

الحافلةُ في الموقف (الأخير) تطْلِقُ موسيقى عاليةً، ويرتفعُ صوتُ سيّدةٍ بالألمانيّةِ ثمّ بالإنجليزيةِ:

الرجاء مغادرة الحافلة!

قبل أن أستقلّ الحافلةَ رقم ١٢٢، كنتُ وصلتُ محطةَ مترو فِيتيناو، الخطّ ٨

Wittenau

فيتيناو هي المحطة الأخيرة على الخطّ ٨.

هنا أيضاً، كنتُ سمعتُ موسيقى عاليةً، وصوتاً عذباً يأمرني بمغادرةِ القطار.

النهاياتُ دائماً.

دائماً في الأقاصي.

*

في لندن، أعودُ من ساحة «الطرف الأغرّ» وسطَ العاصمةِ الإمبراطوريةِ إلى منزلي (؟) بالضواحي.

أنا أسكنُ هيرفيلد التي بأعلى التلّ.

Harefield

سآخذ خطّ «البيكاديللي» الأزرق، إلى محطّته الأخيرةِ، إلى أكسبْرِجْ

Uxbridge

من محطةِ المترو الأخيرةِ على خطّ «البيكاديللي» الأزرق، أستقلُّ الحافلةَ رقم

U9

التي تُبْلِغُني هيرفيلد...

حيثُ مستشفى القلب الشهيرُ، والسير مجدي يعقوب.

يقالُ إن ثمّتَ تمثالاً للطبيب المصريّ.

لم أرَ التمثالَ.

لا أدري أين وضعوه.

قالوا: التمثالُ على السقفِ!

*

الحافلةُ، تتوقّف، في موقفِها الأخير.
أهبطُ.
أذهبُ إلى المنزل (منزلي؟)
النهاياتُ دائماً.
دائماً في الأقاصي!

٣-

في الفجرِ
قبلَ الفجرِ...
لاحتْ نجمةٌ. واليوم بَدْرٌ قالَ:
إنّ قبلَ الصباحِ نجمَ الصباح...
في الفجرِ
قبلَ الفجرِ...
نتركُ عَتْمةَ الحاناتِ. آخرُ شمعةٍ في حانة «المستقبلِ» انطفأتْ...
وعالَـمُـنـا يعودُ إلى عماهُ
إلى العماءِ الأوّلِ...
ابتهِجوا، جميعاً، أيها الأنذالُ
هذا الكوكبُ المرتدُّ عادَ إلى طبيعتِهِ
ورأسُ المالِ عادَ، متوَّجاً، بنتيفِ كارل ماركس...
لِـحـيتِهِ...
وما تركَ الشيوعيُّ الأخيرُ من الغماغمِ

قِفْ، ولو دهراً. . .

وقِفْ

تسمعْ:

صحيحٌ أننا في مرفأِ البركانِ. . .

لكنّا. . . برابرةٌ

وأوباشٌ

قراصنةٌ، وأجملُ. . .

سوفَ نأخذُ عالمَ التجّارِ من أُذُنَــيــهِ

ثانيةً.

نُــمَــرِّغُـــــهُ بأوحالِ الدراهمِ

والخراءِ المصرفيّ. . .

وسوفَ نغرزُ حولَ تربتِهِ

رماحاً

أو نُباحاً من كلابِ قُرىً. . .

سنكونُ: نحنُ!

٤ -

وأنتَ تقطعُ باديةَ السماوةِ، حيثُ قُتِلَ المتنبي، تبدو الباديةُ، حمادةً، قاسيةً، لا معالِــمَ فيها. لا نبْتٌ ولا شجرٌ نَــكَّبَ أبو محسَّدٍ، السماوةَ والعراقَ يوماً:

تركْنا من وراءِ العيسِ نجداً

ونَكَّـبْـنا السماوةَ والعراقا. . .

فجأةً، من وهدةٍما، تلمحُ شجراً، ربما كان أثَلاً.

ثم تنحدرُ الحمادةُ إلى قلعة الجنرال جلوب، جلوب باشا، الملقّب «أبو حنَيك» بسببِ تشوُّهٍ طفيفٍ في حِنكِه.

إنها نقرة السلمان. . .

السجن الصحراويّ

والقلعةُ التي تصدُّ الجِمالَ الوهّابيّةَ الـمُغيرةَ.

هنا أيضاً ذوى مهزومو ثورة العشرين، ومعارضو الهاشميين وحكوماتِ نوري السعيد.

هنا كان فهدٌ.

والناجون من قطار الموت في ١٩٦٣.

هنا كان مظفّر النوّاب.

وهنا أقمتُ.

عشرون برج مراقَبةٍ، تعلو السورَ.

الماءُ يأتي في صهاريج سيّاراتٍ، تقطع صهدَ الباديةِ، لتمنحنا ماءَ الحياةِ، عبرَ أنبوبٍ يُدَسُّ في فتحةٍ أسفلَ السورِ.

كان وعدُ الله يحيى، بجانبي، لحظةَ وصولِ الماءِ. . .

في الصباحِ سوف يأخذون وعدَ الله يحيى إلى بغداد، لـيُشــنَقَ.

مديرُ السجن، التركمانيّ، سيأتي في جولة تفتيشٍ.

علينا أن نلزمَ رَدهاتِنا.

قال لنا رفاقُنا: نستقبلُه واقفينَ.

*

أحياناً أذهبُ إلى القلعةِ القديمةِ، المهجورةِ الآنَ.
إنها النزهةُ الوحيدةُ.
في المساء، تبدو النجومُ أشدَّ سطوعاً من مصابيح السجن.

*

أتذكّـــرُ أنني كتبتُ في أواخر الستينيات قصيدةً بعنوان «قصيدة وفاءٍ إلى نقرة السلمان» بعد أن قيل إن السجن أُغلِقَ نهائياً.
الأمرُ لم يحدُث البتّةَ.
كانت «نقرة السلمان» مثل استراحةِ المحارِب.
نبلُغـها كما نبْلغ واحةً بعد رحلة العذاب والتعذيب.

٥-

قالوا لنا:
البحّارةُ السوفييت، سوفَ يخيّمونَ، الليلَ، في الدامورِ.
ثمّ يحَصّـنونَ مداخلَ الدامورِ، فجراً، والسلالِـمَ. . .
نحن صدّقْنا.
وقد أمضَيتُ، في أملي، أنا، نفسي، أصيلاً دابقاً، في غرفةٍ نزعتْ نوافذَها القذائفُ. كنتُ أُنتظرُ الزوارقَ.
كان حيدر صالح، والتوأمانِ، وزوجةٌ عمياءُ ينتظرونَ مثلي. . .
كان شيء كالندى، رطْبٌ، يُزَلِّقُ خطوتي أعلى السلالـمِ.
كنتُ أقولُ: كُنْ أعلى، لتبصِرَ أوضحَ.
البحّارةُ السوفييت!

*

في عدَنٍ

وفي رملٍ بساحلِ أبْيَنَ. . .

انفعَ الحديدُ مزمجراً. رتْلٌ يداهمُنا، ودبّاباتُه تُختضُّ هادرةً.

وفوقَ رؤوسِنا صلياتُ رشّاشٍ تؤزِئزُ. . .

تِتْ- تِـتِـتْ -تِتْ-تِتْ- تِتْ-تِـتِتْ- تِتْ- تِتْ

ونقفزُ في زوارقَ ضحلةٍ.

قد أرسلَ السوفييتُ، يا ولدي، سفينتَهم، أخيراً.

كنّا بقاعِ سفينةِ الشحنِ.

الحبالُ دبيقةٌ، سوداءُ، بالزيتِ.

الحبالُ أريكةُ الغرباءِ.

نحن، إذاً، هنا، البحّارةُ!

البحّارةُ الغرباءُ نحنُ. . .

وسوف نسألُ في الطريقِ إلى رصيفِ اللاذقيةِ

عن مبادئنا،

عن الخبزِ البريءِ

ومَوثِبِ الأسماكِ في الليلِ المبكِّـــرِ. . .

*

إننا البحّارةُ الغرباء

ســفيـنــةُ الأشــباحِ

مســرحيّةٌ في فصلٍ واحدٍ

الأشخاص:

نوريّة (صاحبة الحانة)

نوري (بحّارٌ متقاعدٌ)

القبطان غوري (صوتٌ فقط)

المكان: حانةٌ على البحر.

الديكور: طاولتان وأربعة كراسي من الجريد أو الخيزران.

يُستعمَل الخيشُ للستائر وسواها، والقصب أيضاً.

(نوريّة خلف البار، جالسة على كرسيّ عالٍ. يظهر نصفُها الأعلى فقط)

نوري (يدخل): يا مساءَ الذهب!

نورية (تقف): مَن؟ نوري؟ **(تقبِّلُه على خدِّه)**: قالوا إنك مفقودٌ. . .

نوري (مع ضحكةٍ خفيفةٍ): أنا؟ هل سمعتِ بشمسٍ فُقِدَتْ في أحد الأيامِ؟

نورية (مداعبة): الشمسُ مفقودةٌ دائماً في الليلِ يا نوري!
هل تشربُ شيئاً؟

نوري: قهوةٌ سوداء.

نورية (ضاحكة): ماذا جرى؟ قهوة سوداءُ هكذا، مرّةً واحدةً؟

نوري (كالمعتذر): أسمَعوني كلاماً كثيراً عن الأكبادِ، يا نوريّة. . .

نورية: لكنك لم تشربْ من ماء النيل! أنت تشربُ من عروقِ العنبِ! سأحضرُ لك ألذَّ قهوةٍ سوداءَ في العالَم. . .

(تذهب خلف البار)

نوري: أفضّلُ القهوةَ مُرّةً.

نورية (تأتي بالقهوةِ): هل تعوّدتَ على المرارةِ؟

نوري(يجلس على الطاولة الأقرب من البار ليحتسي قهوتَه):
عوّدوني. مَن يريدُ المرارةَ؟

نورية: والآن؟ ما قصةُ سفينةِ الأشباحِ؟

نوري: هل تقصدين السفينة «نوح ٢» التي غرِقَتْ؟

نورية: نعم. تلك السفينة التي قيلَ إنكَ غرقتَ معها...

نوري: مَن أخبرَكِ أني غرقتُ؟

نورية: القبطان غوري.

جاء إلى هنا قبلَ شهرٍ تقريباً. أفرغَ قنّينةَ فودكا كاملةً... و بدأَ يثرثرُ!

(يُسمَعُ صوتُ رعدٍ خفيفٍ مع مطرٍ منهمرٍ)

القبطان غوري (صوت فقط): قنّينةُ فودكا واحدةٌ لا تحلُّ عُقدةَ لساني...
أنا لم أكن أثرثرُ.
السفينة «نوح ٢» غرقتْ فعلاً...

نورية(نصفُ فزِعــةٍ): نوري!أتسمعُ؟ أهو القبطان غوري يتكلم؟ أرجوكَ. أخبِرْني!

نوري (في هدوءٍ كاملٍ): نعم. صوتُه. الصوتُ النذلُ.

القبطان غوري (صوتٌ عميقٌ): النذلُ مَن استغابَ.

نوري (هادئاً): النذلُ مَن غابَ.
لماذا هجرتَ السفينةَ؟ لماذا تركتَها للريحِ والأنواءِ؟
ألستَ القبطانَ؟

القبطان غوري: عرفتُ أن السفينةَ متهالكةٌ، وأنها لن تكملَ الرِّحلةَ.

نوري (مستنكِراً): لكننا بحّارتُها. كنا قادرينَ على إصلاحِ العطبِ.
غيرَ أنّ «نوح ٢» تظلُّ بحاجةٍ إلى قبطانٍ. قبطانٍ يستدلُّ في الليلِ البهيمِ.

القبطان غوري: كلامٌ فارغٌ. أيّ نجومٍ هذه؟
السفنُ، اليومَ، تهتدي بالساتيلايت.
وأيّ بحّارةٍ؟
كنتم عُصبَةَ سكارى، وأوباشٍ، ومقامرينَ على نسائكم.
أردتُ أن أنظِّفَ العالَمَ منكم، ومن سفينتكم المنهَكة.

نوري (يضربُ الطاولةَ بفنجان القهوة): هذا الكلامُ يلفُّ حبلَ المشنقةِ حولَ رقبتِكَ السمينةِ...

القبطان غوري (يقهقه): هل قهوتُكَ قهوةٌ خالصةٌ؟
وللمناسَبةِ. نعم. أنا قلتُ لنوريةَ إنكَ مفقودٌ...
بحّارةُ «نوح ٢» جميعاً يُعتبَرون مفقودين.
القبطان غوري لا يكذبُ!

نورية (موجهةً كلامَها إلى نوري وهي جالسةٌ خلفَ البار):
أنتَ المفقودُ، الموجودُ، يا حبيبي
يا نوري...
أتريدُ قهوةً ثانيةً؟

القبطان غوري (متعتَع الصوتِ): افتحي له قنّينةَ فودكا على حسابي...

نوري: هديةُ الخائنِ مسمومةٌ.

القبطان غوري: أنا الآن في كاليفورنيا، يا مسكين!

نوري (يخاطب نورية): أسمعتِ يا نورية؟

لقد أغرقَ سفينتَنا «نوح ٢»

ليكونَ في كاليفورنيا...

نورية: أتقصدُ أنهم اشترَوهُ؟

اشترَوه بالمالِ؟

القبطان غوري: الآنَ

أُسدِلُ الستارَ عليكما

أنتما الإثنين...

أسدلُ الستارَ عليكم جميعاً...

(ينقطع الرعدُ الخفيفُ والمطر)

نورية: اذهبْ إلى جحيمِكَ...

(تخرج من وراءِ البار، وتجلسُ إلى طاولةِ نوري)

ســــتـــــــار

كُتِبتْ في برلين بتاريخ ١٢/٠٦/٢٠١٠

هل أنتَ حُــرٌّ؟

ستقول لي: طبعاً!

ولكني سأسألُ أن نُقَـلِّبَ سبعَ أوراقٍ

وقد نمضي معاً، لِـنُـسَـمِّـيَ الأوراقَ أسئلةً:

سؤالٌ أوّلُ

النهرُ الذي أسماكُـهُ ذهبٌ... أتعرفُ ما اسـمُـهُ؟

سؤالٌ ثانٍ

البنتُ التي أحْـبَـبْـتَ... هل ستحبُّها إنْ ضاجعَتْ يوماً سواكَ؟

ســؤالٌ ثالثٌ

ما لونُ وجهِكَ في سياستِنا؟

سؤالٌ رابعٌ

هل خُـضْـتَ معركةً؟

سؤالٌ خامسٌ

كم مرّةً سَـــوّدْتَ أوراقاً؟

سؤالٌ سادسٌ

هل تأكلُ المعنى، حنيذاً، في ولائمِهِـم؟

سؤالٌ ســـابعٌ

أتظلُّ تُـنْـكِـرُني، كما أنكرتَ، في الدكّانةِ السوداءِ، نفسَك؟

برلين، ٢٠١٠/٠٦/١٢

الـهِـنـــد

لا احبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لكنْ احبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لكنني لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني احبُّ الذهابَ إلى الهندِ. بل لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لســتُ احبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لا. لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. هل قلتُ: إني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ؟ لستُ أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. مَن قـــالَ إني أحبُّ الذهــابَ إلى الهندِ؟ لستُ أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لكنني لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لكنْ أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لستُ أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني أحـــبُّ الذهاب إلى الهند. لا. لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. أحببْتُ أحببْتُ أحببْتُ أني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ.

هل قلتُ: إني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ؟ لا. لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني أحـــبُّ. . .

❊ ❊ ❊

الـفِـلِـبـيـــن

ستكون الفلبين قريبةً قربَ الخنجرِ والخاصرةِ. مَن أخبرَني وأنا في دمشق، واقفٌ مع آلِ الجواهريّ العظيم أتلقّى التعازي برحيله . . .
أقولُ: مَن أخبرَني، في تلك الساعةِ بالضبطِ، أن ولدي الوحيد، حيدر، قد قضى نحبَه، في الفلبين؟
لا أدري كيف عرف نايف حواتمة بالأمر . . .
قال لي، وهو يشدّ على يدي: طريقُنا طويلٌ!
طريقُنا طويلٌ حقاً، ولسوف يأخذني هذا الطريقُ الطويلُ، بعد أيّامٍ إلى مطار مانيلاّ.
آنذاك، كنتُ بعمّانَ، في فترةٍ شديدةِ الظلامِ من حياتي. وكنتُ أحاولُ التخفيفَ من هول تلك الفترة، بالتنقّلَ مكّوكيّاً بين عمّان وعاصمة الشــــام العريقة.
ساعدتْني قنصليةُ الفلبين في عمّان بتعجيل منحي تأشيرة دخول، مع أن اليوم كان عطلةً.
في مطار مانيلا، سألوني إن كنتُ أعرف لغة أهل البلد. وحين أجبتُ بالنفي، اكتفَوا بالسؤال الأول.
أرملة حيدر، بَينِي، التي سبقتْ لي رؤيتُها إمّا في نيقوسيا أو تونس العاصمة، كانت في استقبالي مع فردِ أو اثنين من عائلتها. استقللنا سيارةً متألقةً من ذوات الدفع الرباعيّ، لتأخذنا إلى قريةٍ بأعماق

الفلبين، حيث يثوي حيدر.
أرى هذه البلادَ للمرة الأولى
ولم تكن لديّ في السابق أيّ رغبةٍ في زيارتِها.
كما أنني لم أكن راضياً عن ذهاب حيدر إلى هناك.
كان هاجسٌ عميقٌ يُلِحُّ عليّ في أني لن أرى حيدر ثانيةً.
كنتُ شبه ذاهلٍ. أرى و لا أرى. الأشياءُ تتبدّى لي سراباً أو كالسراب. ليس من شيء حقيقيّ. والشوارع؟ ليس في غالب الفلبين شوارعُ. ثمّت مسالكُ كما في عراق الثلاثينيات. قنواتٌ ومَناقِعُ رزٍّ وجواميسُ والخيزران الجسيم. السيارة تَدْرُجُ لكني أراها تعوم.
نبْلغُ القريةَ الموعودةَ.
كأني أرى قوماً يحتفلون!
بل كانوا يحتفلون، فعلاً، ويلعبون الورقَ، تحت الشجر.
تأخذني «بَيني» إلى حيدر. أرى ولدي ممدّداً، صبيحَ الوجه، ينامُ عميقاً. التابوتُ ذو غطاءِ زجاجٍ. كأني رأيتُ بعوضةً دقيقةً على وجه حيدر. كيف أُبعِدُها؟
تذكّرتُ، بعد طول نسيانٍ، سورةَ الفاتحة. تلوتُها سرّاً كأني أزمزمُ في بيتِ نارٍ.
قلتُ للقوم: توقّفت مراسيمُ الدفن.
لن يدفَنَ، كاثوليكيّاً، في مقبرة البلدةِ.
سآخذه معي إلى دمشق.
حيدر، يثوي الآن، قرب هادي العلوي، والجواهري، في مقبرة الغرباء، بالسيدة زينب.



في الصورة:
حيدر سعدي يوسف ١٩٦٤-١٩٩٥
يتوسّط شيراز من اليمين، ومريم من اليسار.
الصورة التُقِطتْ في العام ١٩٩٠ بتونس العاصمة

لـقـد لامَـنـي عـنـدَ الـقـبـورِ عـلـى الـبُـكـا
رفـيـقـي، لـتَـذرافِ الـدمـوعِ الـسـوافِـكِ
وقـــالَ: أتــبــكــي كــلَّ قــبــرٍ رأيــتَـــهُ
لـقـبـرٍ ثـوى بـيـنَ الـلِّـوى فـالـدكـادكِ؟
فـقـلـتُ لـهُ: إنّ الـشَّـجـا يـبـعـثُ الـشـجـا
فـدعْـنـي، فـهـذا، كـلُّـهُ قـبـرُ مـالِــكِ

* * *

حمامتانِ حـطّـتــا، في صيفِ برلين
على مبنىً بلا نوافذَ.
الحمامتانِ
كانتا بين الهوائيّاتِ والأطباقِ والسطحِ الـمُـصَـفّى
تبحثانِ
عن بذورٍ
عن بقايا خُبزةٍ
عن قطرةٍ...
أسمعُ، في الهدأةِ، منقارَينِ:
تِك
تِكْ
أهِــــيَ الساعـةُ؟
هل دقّتْ على المبنى الذي بلا نوافذَ، الســـاعةْ؟

برلين، ١٥/٠٦/٢٠١٠

اللــوبار العتيق Alt - Lubars

«ضاحيةٌ في شـمالَي برلين»

الخيولُ التي لا نراها
الخيولُ التي قد نراهنُ يوماً عليها
الخيولُ التي تسكنُ المنزلَ الضخمَ، لكنْ بلا عرباتٍ ولا عربنجيّـةٍ
كلُّ تلك الخيولِ المطهّمةِ
ارتضت اليومَ ألاّ ترانا
ارتضتْ، منذ أن وُلِدَ الرســمُ ألاّ نراها . . .
هكذا
نحن في ملعبِ الخيلِ، لكنْ بلا أيّ خيلٍ!
. . . .
. . . .
. . . .
إذاً
هل نكون : أنا . أنتَ . أنتِ
الجميعُ
كما كانت الخيلُ؟
أعني : أنحنُ، هنا، نحنُ
أمْ أننا رَسْــمُ نحنُ؟

برلين، ١٥/٠٦/٢٠١٠

البِســــْتْرو!

كان هذا البِسترو غيرَ بعيدٍ. أقلّ من ربعِ ساعةٍ نقطعها مشياً من المنزل.

قلتُ لابنتي: نحن نمرّ يوميّاً من هنا. لندخلْ مرّةً!

كان زبائنُ البِسترو النظاميّون يجلسون في الداخل، يواجهون البارَ وسيّدتَه.

جلستُ مع ابنتي في الحديقة.

حيّتْنا امرأةٌ، كانت تجلس، مصادفة، في الحديقةِ.

قالت: المرأة، سيدة البار، تتحدّث بالإسبانية.

لا أدري لِمَ قالتْ ذلك.

ربما لأننا لا نبدو ألمانيّيَنِ.

جاءت السيدة. قالت بالإسبانية: إنها من فنزويلا.

قلتُ لها: أنا كنت في فنزويلا. كاراكاس. الأنديز. بداية الأمازون...

قالت: في لَرِيدا. البرد شديد (كانت تتحدث عن الولاية التي تفخر بجبال الأنديز).

قلت: الناس يحبّون شراب الروم مع الليمونادا!

Ron con limonada !

قالت:

Cuba Libra (كوبا الـحُرّة)

قلتُ: أريد الروم مع الليمونادا. عاشتْ فنزويلا!

تغيّرتْ ملامحُها فجأة: تسقط فنزويلا! شافيز شـــيوعيّ...

قلتُ: عاشت فنزويلا!

*

لم أقُلْ لها إنني قابلتُ شافيز مرّتين، إحداهما كانت في القصر الجمهوريّ.

*

دخلتُ المكان ثانيةً.

السيدة الفنزويلية التي تكره شافيز لم تكن هناك.

طلبتُ شـــراب الروم مع الليموناد!

القطار الألـمانيّ

أينَ تمضي برُكّـــابِها كلُّ هذي القطاراتِ؟
في الفجرِ تَهدرُ
في الليلِ تَهدُرُ
في الظُّهرِ تَهدرُ
حتى الـمـخدّةُ تهتزُّ من هولِ هذي القطاراتِ
صفصافةُ الـحيّ تهتزّ
والبابُ في مَشـربِ البيرةِ
المخزنُ الآسيويّ
وتمثالُ بوذا،
الندى. . .
اين تمضي برُكّـــابِها كلُّ هذي القطاراتِ؟
أنّى ستُلـقي بهم؟
وإلى أين تتّـجـهُ؟
العالَمُ ارتَـدَّ (نعرفُ؟)
. . . .
. . . .
. . . .

تلك القطاراتُ تمضي إلى الإتّجاهِ الـمعاكِسِ
(نحوَ محطّـتِها قبلَ قرنَينِ)
تمضي بركّابِها،
هي تمضي بركّـــابِها الغافلـــين. . .

برلين، ٠٨/ ٠٧/ ٢٠١٠

القناةُ البرلينيّةُ ذاتُ الماءِ الأخضر

جوان ماكنلي، تعرف، بالضبط، القناةَ التي ألقى الضبّاطُ البروسيّون، فيها، جثّةَ روزا لكسمبورغ. وهي تعرف، بالطبعِ، اسمَ الجسرِ القائمِ على هذه القناةِ حتى الآن. كنّا نسيرُ من ساحة اكسندر بلاسه مارّينِ بالكتابةِ البرونزيّةِ الناتئةِ، الكتابةِ التي أرادها الألمانُ الديموقراطيونَ خالدةً. أقوالِ روزا لكسمبورغ. روزا الحمراء. قالتْ جوان: هنا! وأشارتْ إلى القناةِ، حيثُ الماءُ يجري أخضرَ داكناً. منذ عشرين عاماً ظلّتْ صحافةُ اليمين **(كما روى مؤيَّد الراوي)** تذرفُ الدموعَ على الماءِ الأخضرِ الداكنِ.

قالوا: إن الشيوعيين لوَّثوا الماءَ. صبغوه أخضرَ. وقتلوا الأسماكَ.

الماءُ (في القناةِ التي ألقى فيها الضبّاطُ البروسيّون جثّةَ روزا لكسمبورغ) لا يزالُ أخضرَ داكناً. لا أحدَ يذكرُ روزا الحمراءَ سوى كلماتِها هي، كلماتِها المقدودةِ برونزاً، في أضلاعِ الشارعِ الألمانيّ القديم. لكنّ جوان ماكنلي تحفظُ،

مثلَ تعويذةٍ، اسمَ الجسر.

برلين، ٠٨/ ٠٧/ ٢٠١٠

حُريّةُ الذِّهنِ بأحمرِ روزا

في ذكرى روزا لوكسمبورغ ١٨٧١-١٩١٩

Freedom of Mind in Rosa

شِعر : جوان ماكنلي

ترجمة : سعدي يوسف

ما زلتُ جثّةً
هامدةً تماماً .
وحشيةً كانت العاصفةُ
أشدَّ وحشيّةً ممّا تصوّرتُ
آنذاك
آنَ كان عملي هو الكلّ
آنَ شعبي
هو الكلّ .

الآنَ أطفو إلى سطح الماء
ببطءٍ شديدٍ
في صمتٍ شِبْهِ مُطْبِقٍ

بعد انتهاء الفظاعات
الفظاعات حتى في استفاقتي -
أنا لا أقدرُ أن أمنعَها.
الآنَ أتحرّكُ
جيئةً وذهاباً
حبيسةً في القاعِ
كأنني أدورُ في قِدْرِ ســـاحرةٍ.

كم سأظلُّ هنا؟
قبلَ أن أكونَ حقّاً؟

مرميّةً
مثلَ لحمٍ متعفِّنٍ
مُختَرَمةً بالرصاصِ
سَــليخةً
في أعماقِ الشتاءِ.
أنا، الآنَ، أطفو
تحتَ سِتْرِ الظلامِ
وحيدةً
في الماءِ المتجمِّدِ
بمنأىً عن الفوضى
وحَمّامِ الدمِ

والاصطياد:
الأغاني الشرّيرة
اختفتْ.
حملاتُ الحِقْدِ
ابتعدَتْ.
أهازيجُ القتلِ
تلاشَتْ.

سليمةَ الرأسِ
أطفو وأتأمّلُ:

لن أكونَ في ما مضى
أنا الآن
وسأكونُ في ما بَعدُ.
مختلفةً
أُفَكِّرُ
بالناسِ
بالحيوانِ، بالعدالةِ
بالعالَم.
عملي؟
لم يُنجَزْ كما أردتُ -
فجْرُهُ ينتظرُ.

البوصلةُ تؤشِّـــرُ
إلى اتجاهاتٍ جديدةٍ
أنا مستيقظةٌ
أنهضُ إلى الشمسِ
وأخطو قُدُماً
أُديرُ رأسي
وألتفتُ إلى الوراءِ
وأرى:
كثيرون يتبعونني
إنهم الطُّـلَقـاءُ.

غْـرِمزْبِي، تموز ٢٠٠٧
(مترجَمة عن الأصل الألمانيّ الذي كُتِبَ ببرلين في يناير ٢٠٠٤)



روزا الحمراء

مَـن يقرأُ إريك هوبسباوم؟

أزعُـــمُ أني قرأتُ إريك هوبسباوم، في غالب أعمالِه، وأقولُ صدقاً
إن الرجل اعادَ ثقتي بالتاريخِ
عِلماً، وبالمؤرّخِ عالِـماً، بعد أن صار الـمَحْـــوُ الأداةَ الفضلى في
النظرِ، والتنظير.
هوبسباوم يقدِّمُ لك جرعةً شـــافيةً كافيةً من الحقيقة والمعلوم،
تجعلُكَ على بَـيِّـنـةٍ من الظاهرة، آنذاك يدخل، هو، حذِراً،
متوجِّـسـاً من القطعِ برأيٍ، ويأخذ بيدِكَ، أخذاً رفيقاً
كي تصِلا، معاً، إلى نوعٍ من التثَـبُّتِ يسمحُ بإبداءِ رأيٍ.
إريك هوبسباوم يساريّ، كان منذ الخامسة عشـــرة عضواً في
الحزب الشيوعيّ الألمانيّ، وظلَّ
على مذهبِه، ثابتاً.
لكنه، هنا، أيضاً، يظلّ مرتدِياً مسوحَ المؤرِّخِ، لا بِزّةَ المحارِب.
من شبه المؤكَّـدِ أن يحسبَ المرءُ، هوبسباوم، متفائلاً.
التفاؤلَ التاريخيَّ المعروف.
لكنّ الرجـلَ يُقْـنِـعُكَ، بجرعةِ حقائقِه، الشافية الكافية، أن لا مكان
أو معنى للتفاؤلِ، في عالَـمٍ اختارَ السيرَ إلى الهاويةِ والإطلالَ
عليها، اختياراً.

بل أن السقوطَ في الهاوية الماثلةِ، واردٌ فعلاً، مثل ما أن التراجُعَ عن السقوطِ واردٌ أيضاً.

قال هيجل، وهو يرى إلى نابوليون يدخل برلين ظافراً:

التاريخ على صهوةِ جوادٍ!

ولسوف يغيِّــر هيجل اندفاعتَه الحماسيةَ، كما فعل ألمانٌ عديدون.

لكنّ إريك هوبسباوم، لم يرَ التاريخَ على صهوة جوادٍ، أو على ظهرِ دّبابةٍ.

إنه يقرأ الصورةَ المعقّدةَ، ويبسِطُها أمامَنا.

ولسوفَ نشارِكُه مدخلَه.

التفاؤلُ صفةُ السياســيّ الكاذب.

وإريك هوبسباوم، مؤرِّخٌ، لاســياســيّ.

إنه شــيوعيٌّ، بالرنين الأوّلِ للكلمة!

برلين، ٠٨/ ٠٧/ ٢٠١٠

الطريق إلى البيت الكبير

آن يكونُ المرء صغيراً، يكون البيت كبيراً.

بيتنا لم يكن كبيراً البتّةَ. كان كوخاً (بين الكُبَرِ والصريفةِ بالمصطلح العراقيّ). هذا البيت كان يقطر ماءً في المطر. ويكاد يتقصّفُ مع رياح الصيف وصهدِ الهاجرة. لست أتذكرُ متى سكنّا بيتاً مبنيّاً بالطابوق. لكني أستعيدُ أنه كان مستأجَراً. استأجره أخي يعقوب، بعد أن صار معلِّماً. نحن في أبي الخصيب. أسرتُنا من هناك منتشرةٌ، متناثرةٌ، بين مركز أبي الخصيب على شط العرب، والفاو على الخليج العربيّ. بيتُ جَدي كان في أبو الخصيب.

بيت جدي كبيرٌ. فيه حُجُراتٌ عدّةٌ. لم يكن في المركز. كان في «بُقَيْع» التي تكاد تلتصق بقرية «جيكور».

أحبّ أن أذهب إلى بيت جَدّي. لكنني في المدرسة. أذهب إلى بيت جدّي في العُطَل. أذهبُ وحدي. لا أدري ما سببُ أنني كنت أذهبُ وحدي. بيتُ جَدي بعيدٌ. في الصيف يكون ترابُ الطريق مثل جمرٍ مسحوق. وأنا أمشي حافياً. أحمل نعلَيّ، خشيةَ البِلى، على رأسي، وأمشي حافياً. تعلّمتُ ذلك من عمّي جبّار حين يأتي لزيارتنا.

يَعصِبُ العطشُ لساني. أمُرُّ بجدولٍ أخضرِ الماء، جدولٍ ذي أشَناتٍ

وعشبٍ. أشربُ من مائه الأخضر بكفّيَّ، وأبلِّلُ وجهي الملتهب.
أواصلُ السيرَ إلى بيت جدّي. هناك مقبرةٌ في الطريق، وعليّ أن أجتازَ. في المقبرة شجرةُ سِـــدْرٍ لا تثمرُ نَـبْـقاً. يقولون إن البومَ يسكن تلك السدرةَ. يقولون أيضاً إن مقبرة أبو شَـعْـنَب هذه، مسكونةٌ. الجنُّ يأوون إليها، والمجانين، والمجذومون الهاربون.
عليّ أن أجتازَ. أتمتمُ كلماتٍ من القرآنِ عن سُـليمانَ وجنودِهِ. وأقطعُ المقبرةَ لألتحقَ بالجادّةِ المتربةِ.
الشمس محرِقةٌ. ونعلايَ يحرقانِ رأســـي. أنتعلُهما بدون أن أنفضَ الترابَ عن قدَمَيّ، وأواصلُ
السيرَ إلى بيت جَدّي. أصلُ إلى التقاطُعِ. تقاطُعِ بُقَيع وجيكور.
أتّجهُ إلى بُقَيع. بعد التقاطُعِ أُحسُّ
ببيتِ جَدي قريباً. أصِلُ إلى البستان الذي أعرفُهُ جيداً. بستانِ النخلِ الذي طالَ ما أخذني جَدّي إليه في الصباح الباكر ليتفقّدَ شِباكه التي نصبَها للأسماكِ. أسماكِ شطّ العرب المشتهاة. أشعرُ بخُطايَ خفيفةً. أعبرُ قنطرةً من جذوعِ النخلِ. قنطرةً تكون زلِقةً في الشتاء. لكني أقطعُها الآنَ وثباً!
ها هوذا البيتُ الكبيرُ. . .
بيتُ جَدّي!

* * *

خـــيمـةُ الوبَـرِ

نحن لا نتذكّرُ. . .

والأمرُ أعقدُ من أننا، مثلَ ما يقعُ الآنَ في السوقِ، لا نتذكّرُ.

نحن انتهينا من التمرةِ

السعفِ

والنخلةِ. . .

اليومَ، نحن مُـقِيْمونَ في حِصْنِ مَن لم يرَوا

نخلةً

حِصْنِ مَنْ لم يمُصّوا نواةً

ولم يَخْضِدوا سـعفةً.

حِصْنِ مَن لم يرَوا غيرَ ما يخزِنُ الحصنُ:

تلكَ الحبوبَ

وذاكَ الغروبَ. . .

وما كتبوا في صحائفِ رِقٍّ مُذَهّبةٍ.

نحن لا نتذكّرُ. . .

لكنْ هنالك مَن يذكرون. . .

هنالكَ مَن يعرفونَ عيونَ المياهِ العجيبةِ في التيهِ،

مَن يعرفون تواريخَنا

واحداً

واحداً. . .

مثلاً:

يعرفون بأنّ فلاناً قضى قبلَ أن يولَد!

الأمرُ ليس عجيباً (كما تتصوّرُ)

الأمرُ أبسطُ من كل هذا:

إن اخترتَ خيمتَكَ الوبَرَ الـحُرَّ بيتاً

نجَوتَ!

دَيرٌ علـى الدانوب

أنت تمضي، متمهلاً، على امتداد ضفةِ الدانوب. الدالية تُعَرِّشُ، مثقلةً بالعناقيدِ. والمزارعُ الصغيرةُ تعلِن عن النبيذ الجديد. وأنت تبحث، مع صديقتِكَ، عن غرفةٍ في بيتٍ ريفيّ، غرفةٍ تأويانِ إليها آنَ الليل.

من الضفةِ المقابلة، ترى صرحاً عتيقاً. النمسا ملأى بالصروح العتيقة. لكنّك تحسّ بأن في هذا الصرح ســرّاً يشدّك، أو ما يشبه الســرّ. تقول لصديقتك: أريد أن أرى المكان.

وهي تسألك: أتريد الذهابَ إلى «**الـمَـلْـكْ**»؟ الدَّير؟

تعبرانِ جسراً، هو ناظـمُ مياهٍ أيضاً.

ثم تدخلان الدّيرَ.

عن هذا الديرِ، وفيه، رواية أمبرتو إيكو «**اسم الوردة**».

تقول لها متلهفاً: أريدُ أن أرى الخزانةَ، خزانةَ الكتب... نعم... خزانة الكتب.

تصعد الدرْجاتِ وثباً.

الكتب، مُذْهَبةُ الجِلدِ، وراء الزجاج. كتبُ ثقيلةٌ، مثقَلةٌ بأســرارِها وأزمانِـها. كتبٌ للحياة، كتبٌ للموت. كتبٌ للوعي. كتبٌ للعمى. تتذكّرُ النسّاخين والخطّاطين. الثورة الصامتة في ليلِ الديرِ

المطِلّ على الدانوب.
ثم تأتي المعجزةُ:
صورةٌ لموتسارت الطفل، جالساً على برميل، يعلو كرسيّاً، كي يبلغَ مفاتيح الأرغن الهائل...
لقد جاء به أبوه، في سفينةٍ على الدانوب، ليقومَ بجولةٍ موسيقيةٍ مبكرةٍ جداً. كان في سنّ السادسة.
هل عانى موتسارت(موزارت. موزار) من أبيه، معاناة مايكل جاكسون من أبيه؟
أواصلُ جولتي الذاهلة.
الأسوار العالية.
النهر الذي أخفَتْ أمواهُهُ، الأســـرارَ.
وأعودُ إلى أمبرتو إيكو.
قرأتُ له، مؤخراً، مقالاً عن جماليات اللغة في «**البيان الشيوعيّ**».
رواية «**اسم الوردة**» ليست سردَ أحداثٍ وحوادث.
إنها احتجاجٌ كاملٌ. شهادةٌ على عصرٍ منقرضٍ.
أهو عصرُنا؟

هل تعرفُ أني لا أسألُ عنك؟

مَـــرَّ زمانٌ، حقّـاً، وأنا لا أسألُ عنكَ.

فهل فكّرتَ، ولو أقصرَ من عثرةِ سكرانَ:

لماذا لا أسألُ عنكَ؟

اليومُ (وأعني يومي لا يومَكَ) لم يَعُدِ الـمُـتـرَفَ.

أنا لا أسألُ عَمّنْ غادَرَ

لا أسألُ عمّنْ غدَرَ. . .

الأشجارُ معي دوماً

أحجارُ مَسِـــيلِ النهرِ معي

والطيرُ. . .

إذاً

هل تعرفُ معنى أني لا أسألُ عنك؟

برلين، ٢٠١٠/٠٦/١٧

صيف

ألمانيّاتٌ مكتنزاتٌ يتمدّدنَ طويلاً
تحت سماءٍ ساخنةٍ.
والساعةُ ثالثةٌ ب.ظ
الألمانياتُ طويلاتٌ، مكتنزاتٌ
والشمسُ مواتيةٌ...
والألمانيّاتُ يَسِـــحْنَ، تماماً كالزبدةِ
مشكلتي أني أقرفُ من مرأى الزبدةِ
أو من مأكلِها

....

....

....

الألمانيّاتُ المكتنزاتُ تمدّدْنَ طويلاً!

سِـيْدي بِلْعبـاس

قال لي الرفيق حِـمراس الموظف بوزارة التربية والتعليم الجزائرية:
سوف ارسلُك إلى مدينةٍ جزائريةٍ ذات بلديةٍ شيوعيةٍ!
كان ذلك في العام ١٩٦٤.
وقد وصلتُ الجزائر بعد رحلةٍ طويلةٍ، من بيروت بحراً إلى الإسكندرية، ومن الإسكندرية براً إلى ليبيا، تونس، فالجزائر.
في الجزائر العاصمة، ذهبتُ إلى صحيفة «الجزائر الجمهورية»، صحيفة الحزب الشيوعيّ الجزائريّ.
Alger Republicain
سألتُ عن هنري أليغ. كان في فرنسا.
استقبلني بوخلفة، وعبد الحميد بن زين. قال لي بوخلفة:
سنـوصي رفيقنا، حِمراس، بكَ، خيراً.
(لم أرَ الرفيق بن زين ثانيةً إلاّ في عدن أواسط الثمانينيّات حينَ حلَّ هناك زائراً).
وهكذا وصلتُ سيدي بلعباس، بالقطار.
نزلتُ في «أوتيل متروبول».
وفي صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى «ثانوية الجلاء» حيثُ كنتُ عُيِّنتُ مدرِّساً للّغة العربية: شيخاً!

*

في سيدي بلعباس، القيادة العامة لـ «الفرقة الأجنبية» الشهيرة.
الدرك الوطني الجزائري يستعمل الآن المقراتِ التي تركها الفرنسيون.
في ثكنات الدرك الوطني كانت اللافتات، وعلامات الطريق باللغة الفرنسية.
في أحد الأيام زارني ضابطٌ بالدرك الوطني وقال: نريد أن نعرِّب اللافتات والعلامات. وأنت الشيخ...
كيف؟
أخذني معه إلى الثكنات.
كانت هناك عُلَبُ «بوية» وأكثر من فرشـــاة.
وكان عليّ أن أرتقي سلّماً متنقلاً.
لأسبوعٍ كاملٍ اشتغلتُ متطوِّعاً.
لا أدري كيف بدا خطّي بالبوية...
لكنّ ثكنات الدرَك الوطنيّ الجزائريّ، صارت تتكلم باللسان العربيّ.
الشيخ الخطّاط سعدي يوسف!

عــدن... أيضاً

إنْ تكُنْ عدَنٌ مثلَ قال عنها الـمُـغَـنّي، أبو بكرٍ، الأوْجَ
إنْ يكُـنِ الأمرُ هذا الذي قال عنه الـمُـغَـنّي. . .
فإنْ ذهبتْ عدَنٌ
أين نذهبُ؟
أقصدُ: كنّا نقولُ لنا نجمةٌ، بين كلِّ بيارقِ أهلِ الجزيرةِ، حمراءُ
كنّا نُباهي بها
ونباهي. . .
نقولُ: العروبةُ أعمقُ.
خَطٌّ لها مُـسْـنَـدٌ
وبراكينُ فيها، و حرّيةُ امرأةٍ، واشتراكيّـةٌ
وأغانٍ
وكانت بها حضرموتُ الفريدةُ
حيثُ المنازلُ من امرئ القيسِ حتى القمرْ. . .
أين نمضي، إذاً، بعدَ أن بَعُـدَتْ عدَنٌ؟
أين نمضي؟

برلين، ١٨/٠٦/٢٠١٠

مزرعة الزاهي محمّـد

واحدةٌ من قصائد الفترة الجزائرية الطويلة النبيلة، حملتْ عنوان «مزرعة الزاهي محمد».

الحقُّ أن المزرعة كانت فعليّةً.

الزاهي محمد شخصٌ حقيقيٌّ وإن حملَ اسماً ليس فيه من مبالغةِ الزهوِ شـــيء.

قد كنتُ أسلفتُ القولَ إني أقمتُ في «سيدي بلعباس»، أدرِّسُ اللغة العربيةَ في «ثانوية الجلاء» هناك. إلاّ أنني صرتُ أدرِّسُ في «ثانوية الحوّاس» الجديدة، بعد عامٍ أو نحوِه.

سيدي بلعباس، تقع في السهل الوهرانيّ الخصيب، حيث مزارعُ الكروم، والنبيذُ الممتازُ. هذه المنطقة تصدِّرُ نبيذَها الفاخرَ إلى فرنسا، حيث سيضعه الفرنسيون في زجاجاتٍ تحمل صور قصورٍ، ويصدِّرونه باعتباره فرنسيّاً طاهرَ النسَب.

في موسم النبيذ الجديد، ترسو في مرفأ وهرانَ، ناقلاتُ نبيذٍ ذواتُ صهاريجَ، وكان النبيذُ يُضَخُّ عبرَ أنبوبٍ ضخمٍ. طرقاتُ المرفأ رطبةٌ، سوداءُ، تتضوّع برائحة هذا النبيذ المغادرِ!

كنت أذهب بين حينٍ وآخرَ إلى واحدةٍ من المزارعِ منتِجةِ النبيذ، لأشتري نبيذ سيدي بلعباس الوردي الشهير «كينوري».

لستُ أدري إنْ كان هذا النبيذُ لا يزالُ يُنتَجُ هناك.

❋

بعد أن عادتْ مزارعُ الـمُـعَمِّرين الفرنسيين إلى أصحابِها الشرعيين، أهلِ البلد، بدأ التخلّي تدريجاً عن الاهتمام الفائق بالكروم ومتطَلَّباتِها، وقلَّ بالتالي إنتاجُ النبيذ. ربما ذهبَ «الكينوري» الشهيرُ إلى الذاكرة التي لا تهمُّ أحداً، ســواي!

❋

الزاهي محمد

العربي محمد (أحد قدماء المجاهدين)

كان يديرُ واحدةً من تلك المزارع.

دخلتُ المزرعة مصادفةً، فرحّبَ بي وبزوجتي، ومـلأَ السيارة خضرواتٍ وفواكهَ. رفضَ بإصرارٍ أن يتقاضى ثمناً.

صار العربي محمد صديقَ العائلة. يزورنا حيث نسكنُ في بناية «الفرساي» فوقَ السينما التي ساعدتُ صاحبَها في أن أخطّ اســمَها على امتداد أنبوب النيون المضيء.

سيدي بلعباس، المدينة التي لا تُنسى. المدينةُ التي صار كاتب ياسين مديراً لمسرحها البلديّ يوماًما.

التَكِيّةُ النقشبنديّة

قال لي عز الدين مصطفى رسول: للنقشبنديّةِ **الخانقاه**، لا التكيّة.
عزّ الدين أعلمُ مني أكيداً.
لكننا في أبو الخصيب، كنا نسمّيها **التَكْـيَـة**.
(أتحدّث عن أبو الخصيب الأربعينيّاتِ)

*

أولادُ الشيخ عبد القادر النقشبنديّ، القادم من السليمانية، أربعةٌ:
برهان. عثمان. عاصم. محيي.
محيي هو في مثل سنّي.
لستُ أدري ما فعلَ الزمن بأولادِ الشيخ.
لكني سمعتُ أخيراً من صديقٍ يقيم سعيداً في بولندا، هو باسل علي عمران، أن محيي عبد القادر النقشبنديّ يدير مطعماً في ميناء جْـدِنْـيا البولنديّ!

*

يبدو أننا كنا في زمنٍ بدأتْ فيه التكيّة تتدهورُ، بعد وفاةِ الشيخ.
برهان، الأخ الأكبر والذي كان سجيناً شيوعياً ترك أبو الخصيب وتكيّةَ أبيه وعاد إلى السليمانية. تولّى عاصم العناية بالتكيّة. عثمان لم يكن متديّناً. ومحيي لا يزال غِرّاً.

وقد كانت التكيّة النقشبندية في أبي الخصيب شهدت ازدهاراً ونفوذاً عجيبَين، وكان للشيخ أتباعٌ ومريدون. وتروى حكاياتٌ عن الوجد والشطح الصوفيّينِ، وكيف أن أحد مريدي الشيخ طارَ
من أعلى سطحِ التكيّةِ، في تقليدٍ لِما يروى عن طيران الشيخ عبد القادر الكيلاني، ليسقطَ هذا المريدُ المسكينُ مرتطماً بالأرض الرطبةِ، مهشَّم الأضلاعِ، ميّتاً!

*

في التكيّة النقشبندية، تهجَّينا الحروفَ الأولى من شـــيوعيّةٍ عجيبة، ملأى بالأساطير عن عمّالٍ يبنون بلداً، وجيشٍ أحمرَ لا يُقهَـرْ.
في ظهيرة الصيف القائظة، كانت التكيّــةُ برداً وسلاماً.
بينما تتّـقدُ في أعماقنا الغضّةِ نارٌ من حلمٍ أحمر.
رسائلُ إخوانِ الصفا كانت في خزانة التكيّة.
ومصاحفُ وتفاسيرُ. كانت التكيّةُ النقشبنديةُ معهدَنا الفكريّ الأول!

متـاعبُ

مُـتَـعـتَـعةً بالسُّكْـــرِ كانت
جَهِدْتُ في إعادتِها للبيتِ. . .
كانت تقولُ لي:
لنذْهبْ إلى ملهىً، أريدُ أن أراقصَكَ!
الملهى قريبٌ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
أقولُ: يا هُـنَـيْـدةُ
لن يرضَوا بأن تدخلي. . .
أرجوكِ!
عرَّيتُها
ثمّ اتّرَكْتُ حديثَها يُـبَـقْـبعُ تحتَ الماءِ
. . . .
. . . .
. . . .
نشَّفْتُ جسمَها اللذيذَ

وقلتُ: استمتعي، بنعومةِ الحريرِ!
لقد أغمضتِ عينيكِ فاذهَبي إلى الـحُلْـمِ
إني رهْنُ حُلْمِكِ. . .
إنْ أردتِ حُـبّـاً نكُنْ جسماً مع الدفـءِ واحداً
وإنْ لم تريدي الآنَ
نرقدْ إلى الغدِ!

برلين، ٢٠/٠٦/٢٠١٠

هـارْلِـمْ، حيثُ لا جازَ...

في زيارةٍ للولايات المتحدة الأميركية، قرّرتُ أن تكون نيويورك، مضطرَبي الوحيد.
لن أذهب إلى ولايةٍ أخرى.
وهكذا كان.
تكرَّمَ علَيَّ، سنان أنطون، مشكوراً، بشقّته الجامعية التي تواجه مكتبة جامعة نيويورك، والتي تكاد تلاصق ســاحةَ «واشنطن سكوَير» الشهيرة، حيث ينتصب غاريبالدي مع سيفه!
أمضيتُ شهراً كاملاً في تلك الشقّة.
كانت معي أندريا.
إلاّ أنني كنتُ حريصاً على التفرُّسِ في تجاعيدِ المدينة العظيمةِ بطريقتي الخاصّة. هكذا كنت أنطلقُ في الصباح الباكر مع دفترٍ صغيرٍ، لأشهدَ المدينةَ تستيقظ، الذين بلا مأوى يستيقظون من نوم الحدائق.
المسافرون المبكِّرون يغادرون محطة المترو في «يونيون سكوَير»، والمقاهي تفتح أبوابَها.
في تلك الساعة تكون نيويورك كأبهى ما تكون.

*

في أحد الأيام ذهبت إلى هارلِم.
حيّ الســـود المعروف.
لا أدري كيف شبّهتُ الحيَّ بمدينة الثورة في بغداد!
الشوارع محفَّرةٌ. البيوتُ تكاد تتداعى. وبين كل ثلاثة بيوتٍ أو أربعةٍ، كنيســـةٌ ذاتُ اســـمٍ.
ليس في هارلِم مطاعم.
أرهقْنا نفسَينا، أنا وأندريا، سَيراً وسؤالاً، حتى عثرنا على مطعمٍ متواضعٍ يقدمُ نبيذاً رديئاً وطعاماً مقبولاً.
كنا نسألُ هنا، وهناك عن زاويةٍ للجازِ.
عن مكانٍ لمؤلِّفي الجازِ الصاعدين.
لا شـــيء.
أخيراً، قال لنا رجلٌ: عليكما المجيء يومَ الأحدِ إلى الكنيسة الفلانية، حيثُ يقَـدَّمُ جازٌ روحيّ!
Spiritual Jazz
لكنني لم آتِ هذه المدينةَ لأستمع إلى الجاز في كنيسةٍ. . .
كان علينا أن نبحثَ عن زاوية الجازِ في القرية التي نحن فيها، قرية غرِنتش. لا جازَ في هارلِم.

تـنويـعٌ

ولا جازَ في هارلِم ولا جازَ في دمي ولا جازَ في الدنيا ولا جازَ في
التي ولا في اللُّـتَـيّا كانَ ثلجٌ وسُـكّرٌ يدورانِ هُوناً في دمي كنتُ
أشهدُ البراري كثيفاتٍ بما يُشبِهُ القنابلَ المستدقّاتِ القنابلُ
غابةٌ من الخيزرانِ الليلُ داجٍ ونجمةٌ من المعدِنِ الذّرِّيّ كانت تشعُّ
النورُ يهذي أناملي مطقطِقـةٌ
والثلجُ في الدمِ أتّقي خناجرَ تُلقَى من سماءٍ خفيضةٍ وأهمسُ هل
آوي إلى البئرِ؟ هل أرى المياهَ ليَ
الـمَنجاةَ؟ أم أنّ جُـبَّـتي نجاتي ودرعي. . . أمسِ أسـريتُ جائعاً
وظمآنَ في تيهٍ حَمادٍ
ولم يكنْ لديّ سـوى ذيلِ الجوادِ الذي قضى من الصَّهْدِ والطاعونِ
هل سوف أبْلغُ التخوم؟
أرى في الـبُعْدِ بضعَ حمائمٍ تحومُ هل الطيرُ الـمُـحَـوِّمُ مَـشأمٌ وإنْ
كان سرباً من حمائمَ
ربـما سأهديكِ عِقداً من عيونِ سلاحفَ انتظرتُ طويلاً أن أراكِ
وليس لي سواكِ ولكنّ السلاحفَ
لم تَعُدْ تحجّ إلى تلك الشواطئ لم تَعُـدْ تحجُّ إلى تلك الضفافِ
بحضرموتَ الجياعُ استنفَدوها

يأكلون لحومَها وأعناقَها حتى الدروع يرونَها دروعاً لحربٍ ربما
كنتُ آكلاً وإيّاهمو لحـمَ
السلاحفِ ربّما ولكنني أمسَيتُ ميْـتاً فلم أجد ســوى سُلْـحَــفاةٍ
تحملُ الماءَ في فمٍ
دقيقٍ لقد جاءتْ لتغسلَ ميّتاً غريباً تناسَـــتْـهُ القبيلةُ ولتَكُن أخاديدُهُم
برداً ســلاماً
نعم نعم ولا جازَ في هارلِم ولا جازَ في دمي ولا جازَ في الدنيا ولا
جازَ في التي ولا في اللُّتَيّا
كنتُ أمشي مضَيَّعاً
قويّاً
وأمشي مسرِعَ الخطْوِ
حافياً
زجاجُ البراكينِ القديمةِ أسوَدٌ وحادٌّ
وشمسٌ من رصاصٍ وقرمزٍ تظللني
لكنني أقطَعُ القفرَ واثباً
أنيقاً
وأدنو من يديكِ
وأهدأُ. . .

برلين، ٢١/٠٦/ ٢٠١٠

عـــدنٌ

في الفجر



من البُـرَيـقـةِ

(تخطيطٌ بالكومبيوتَر)

برلين، ٢١/٠٦/٢٠١٠

مقطوعتان

دُرْنا ودارتْ بنا الدنيا. . . وغَـرَّبْـنـا

لو كنت أدري تركتُ الـمرتجى والأمـلْ
لكنْ حبيبي ســـقاني الكأسَ دهراً، ومَلّ
بين الشّواطي أنادي النـاسَ، يا هَلْ وهَلْ

مَن يسمعُ الصوتَ؟
ذابَ الصوتُ، وارتَـــحْــــنا

*

قالت: حبيبي، أريدُ اليومَ تدعـــو لي

خيراً، ترى: دعوةُ العشّاقِ مسموعـــةْ
أرجوكَ، لا تنتظرْ. دنياي مَـوجوعـةْ
مَغْنى النسورِ انتهى، والقولُ بَـالُــوعةْ

أنت الـمُـغَنّي الوحيدُ.
الآنَ غَـنِّ لي. . .

برلين، ٢٢/٠٦/٢٠١٠

أرادَ الشاعرُ (أنا!)، هنا، القولَ بأنّ الصوتَ ذا الصراحةِ، اختفى مخافةً.
وأنّ القولَ الـمُـسَـيَّـدَ هو بالوعةٌ، أي حفرة قاذوراتٍ.
والحقُّ أن تعليق الحواشـي، كما أفعلُ الآن، عملٌ غيرُ مستحَبٍّ في زماننا لكنه كان لازماً، مُلزِماً، في ما سلَفَ.
لماذا علّقتُ الحاشيةَ؟ أ لأنني أردتُ أن أملأ الصفحةَ؟

تلك البلدة الصينيةُ على النهر

تلك البلدة الصينية التي لم أتأكّد من اسمِها حتى اليوم: وِي- يو؟
يو- وِي؟

تلك البلدة الصينيةُ التي على النهر، القريبة من شنغهاي، كم أودّ العودةَ إليها!

أودُّ العودة إليها مقيماً لا زائراً.

صديقي الصينيّ إدوارد سمّاها قريةً.

لماذا؟

قال: سكّانُها ثلاثة ملايين!

قلتُ مبتسماً: لكنّ في أوربا عواصمَ يقاربُ عددُ سكّانِ الواحدة منها، عددَ سكّان وِي-يو!

ضحكَ إدوارد: لكننا في الصين...

*

كنت في فندقٍ صغيرٍ هناك، فندقٍ ملتصقٍ بحديقةٍ عامّةٍ على ضفة النهر. أخرجُ مع جوان من الفندق، فنخترق الحديقةَ لنصل إلى الضفةِ، ونسير على امتداد الضفة لنبلغَ الجسر الذي يصلُ بين جانبَي المدينة. نحن نريد العبورَ إلى الجانب الآخر، حيث الأسواق والمطاعمُ والبرج القديم ذو الألف عامٍ.

وأنا أعبرُ الجسرَ، هنا، أحسستُ بما يشبه العبور من الرصافةِ إلى الكرخ.
قطعتُ جسوراً كثيرةً في هذا الكوكب، من جسرٍ على نهر ألدرينا إلى جســـر بروكلِن،
لكنّ إحساسَ العبورِ من الرصافةِ إلى الكرخ لم يأخذني معه، إلاّ هنا.
كنا نعبر الجسرَ، لنتناولَ فطورَ الصباح، فالفندق الصغير لا يقدمُ أيّ وجباتٍ. إنه فندقٌ صغيرٌ حقاً، لا يكلفنا المبيت فيه سوى عشرة جنيهات بريطانية لغرفةٍ ذات سريرَين.
في الصباح الأول، لم نستدلّ على مكانٍ يقدم فطوراً. وقفنا عند دكّانٍ. طلبتُ زجاجة بيرة وكعكةً. جوان طلبت عصيرَ فاكهةٍ وكعكةً. لا موضع جلوسٍ. جاءت زوجة صاحب المحل مع طفلِها. قدّمتْ لنا كرسيينِ واطئينِ، وطرَفينِ من قصبِ السكّر. جوان ترى قصب السكّر للمرة الأولى. الطفل المتوجسُ شـــرع يلعب معنا.
إدوارد اتّصلَ بنا عبر الموبايل: أين أنتما؟
أعطينا المرأةَ الموبايل لترشدَ إدوارد إلينا.
*
صباح اليوم التالي أفطرْنا مع الطلبة والموظفين الذاهبين إلى أعمالِهم في واحدٍ من تلك «المطاعم»
السفريّةِ التي تشتهر بها الصين. سأعودُ إلى تلك البلدةِ التي على النهر، لأعبرَ الجســـــر!

نـــداءُ الأرضِ

ولِمَن تُرى أنوي الرسائلَ؟ منذُ قَرنٍ لم يُسَــلِّمني البريدُ رسالةً، لا مِن صديقٍ كنتُ آمُلُ، أو رفيقٍ كنتُ اذكرُ. تَـعْـبُرُ السنواتُ كالطيرِ الـمُـغِـذِّ أو السحابِ. وفي الحديقةِ تَسْـمُـقُ الشّتلاتُ أشجاراً. ســـماءٌ في نصاعةِ رُبْــعِـنا الخالي. وماءٌ كالفراتِ. وكأسيَ اتّقَــدَتْ.

وفي خيطِ القميصِ يطولُ لَـبلابٌ وتولَدُ زهرةٌ من غصنِ دُفلى. كنتُ أنعَسُ في قطارٍ للسكارى شـــرقَ برلينَ. النساءُ مُـنَـقِّـباتٌ في ســـراويلِ الرجالِ النائمين عن النحاسِ الغضِّ.

أسترخي. النساءُ منَقَّباتُ يرتدِينَ عباءةً ســـوداءَ في شـــرقِ الجزائرِ. والرجالُ تبختَروا بالبرنسِ الوبَـــرِ. النخيلُ مقدّسٌ في واحةِ الأغواطِ. وهرانُ القديمةُ تسكنُ الكتبَ القديـمةَ والسجلاتِ التي تركَ الفرنسيّونَ للعثِّ. الطريقُ مُـلَـغَّـمٌ من سِيدي بلعبّاس حتى وجدةَ.

«الناضورُ» ملتبِسٌ. تراه مغربيّاً تارةً، فجزائريّاً تارةً أخرى، وأحياناً ترى قشتالةَ العليا تطلُّ.

ودِدْتُ لو طوّفتُ دهراً في مقاهي «وجدةَ» الليليةِ. انتبهَ الـمُـغَـنّي، قال لي: من أين أنتَ؟ أدورُ في بَتَلاتِ وردتيَ. الدمشقيّاتُ يؤثِرْنَ الـمُـضِـيَّ إلى النهايةِ. سوفَ أبنـي منزلاً قربَ «الـمَـعـرَّةِ»، كي

أطوفَ، العُـمْـرَ، عند ضريحِ شيـخي. كان نورٌ في الدّجى يَنْهَـــلُّ
مـن صـحـنٍ بـه عـدَسٌ، ومـن كـوزٍ بـه مـاءٌ. ســـأتـلـو كـلَّ ديـوانِ
اللزوميّاتِ، حتى تدركَ البصرَ الغِشـــاوةُ. ها،و، ها. ها، ها، و،
ها. ها، ها، وَ ها.
يمضي قطارٌ شـــرقَ برلينَ. القطارُ محَـمّـلٌ ببضاعـةٍ ليستْ تُباعُ
فـتُـشتَرى. هي من بقايا منزلٍ متهدِّمٍ قد كانَ يوماً قصرَ هتلرَ. أقرأُ
الصحُفَ الصباحيّاتِ. يلتبسُ الزمانُ عليَّ.
كان الفندقُ العالي بدربِ الزيزفونِ مَنامَ لينين وماركسَ. غيرَ أني في
الصباحِ وجدتُ إنجيلاً يخربِشُ جبهتي تحت الوســادةِ. ســوفَ
اذهبُ في سبيلي. سوف أتركُ كلَّ هذا، ثمّ أصعدُ مُرتَـبىً مُتطامناً
في فنزويلاّ، كي أبلغَ الأنديزَ بعدَ مسيرةٍ كبرى. ســأرقى القمّةَ
العُلـــيا التي غنّى لها سيمون بوليفار. أبْـلُـغُـها، وأجلسُ في مهَبِّ
الريـــحِ مُـحْـتَـبِـياً، تـهاليلي لآلهةِ الهنودِ، وجبهتي للوشـــمِ. أفعى
تحتوي قمراً...
أأسمعُ مَن يناديني؟
أأسمعُ مَن ينادي؟
أهوَ صوتُ الريحِ؟
صوتُ إلهِ بوليفار...
صوتُ الصمتِ، والحريّةِ الـنُّـعْـمى؟
نداءُ الأرض...

برلين، ٢٤/٠٦/٢٠١٠

كيف انتهيتُ إلى تلك الشقّـةِ...

كان الصيف البرلينيّ رائقاً. شمسٌ ناعمةٌ. شجرٌ مخضلٌّ بندى الليل. فتياتٌ أشباهُ عرايا. مقاهٍ مزدحمةٌ دوماً. وأكشاك مآكلَ ألمانيّةٍ تقليدية، و «شاورمة» تركيّة.

كنت أعرف العنوان. الشقة قريبةٌ من ألكسندر بلاسّـــه، وليست بعيدةً عن «سوق آسيا» المتخصص ببيع المواد الغذائية الصينية. أقرأُ الأسماءَ على لوحة أجراسِ الساكنين. اسمُها بين الأسماء.

أضغطُ على الجرس. تنفتح بوّابةُ المبنى. أدخلُ. أقطعُ مدخلاً غيرَ طويلٍ. أجدُني عند الباب الخلفيّ لمطعمٍ تايلانديّ. أحدُ العمّالِ كان يتناول وجبةَ الظهرِ هناك. الوجبة (المجانية افتراضاً) متواضعةٌ جداً. أنا الآنَ عند بوّابةٍ ثانيةٍ من الحديد الثقيل تنفتحُ على سلالم. شقّة ديزي في الطابق الأعلى. الصعودُ مرهِقٌ، ربّما لأني ارتقَيتُ الدّرْجاتِ متلهِّفاً. كان بابُ الشقّةِ مفتوحاً و ديزي واقفةٌ بالباب، تبتسمُ ابتسامةً شبه ماكرةٍ:

استدللْتَ، إذاً؟

* لن يضيعَ مَن يقصدكِ!

- كانت الشقّة تطلّ على ساحة ألكسندر بلاسّــه، لكنهم بنَوا هذا الفندقَ البشع فحجبَ الساحةَ.

الشقة بدتْ لي أصغرَ شقّةٍ رأيتُ في حياتي. غُرَيفةٌ واحدةٌ فيها زاويةٌ للطبخ، وثلاجةٌ صغيرة. نافذةٌ واحدة. عند البابِ مرافقُ صحيّة، ومَرَشّ استحمام.

لديّ عقدةُ الضيقِ بالمكان الضيِّق (كلوستروفوبيا).

قلتُ: لنخرجْ!

قالت: إلى أين؟

أجبتُ: إلى المدينةِ. إلى أي مكانٍ. دعينا نتناولُ الغداءَ معاً.

*

خرجنا من المبنى.

ورحنا نتجوّلُ، بلا مقصدٍ.

أنا مع ديزي للمرة الأولى في برلين. كنتُ رأيتُها في لندن مرّتَين، مصادفةً. لم تكن بيننا علاقةٌ.

على أي حالٍ. دخلنا مطعماً في حيّ شعبيّ ببرلين الشرقية التي أطمئِنُّ إليها. طلبنا «شْـنِتْسِـلْ»، وشـــربنا زجاجةً كاملة من نبيذٍ أحمرَ ثقيل.

عُدنا إلى الشقّةِ، لنرقدَ متعانقَينِ حتى انتصفَ الليلُ!

ســـوقُ البراغيثِ

اليوم أحدٌ.

يومُ الله، كما يقالُ هنا.

لا عمل. كلُّهم نَؤومُ ضحىً. يذهبون إلى الكنيسة، بالطبعِ أو التطَبُّعِ، مع أن عدد المصلِّين انخفضَ بنسبة ٤٥٪. أمرٌ ممتازٌ، معناه أن العلمَ انتصرَ على الخرافة. صرتُ أحترمُ المواطنين العاديّين أكثر.

لم يَعُد الأحدُ يومَ الله.

وقتٌ مناسبٌ للتسكُّعِ، ورفاقِ الحانةِ، والشواءِ في الحدائق الخلفيّةِ، أو البقاءِ في المنزل مع الأسرةِ.

وبين ما يختارُ المرءُ من مُتاحٍ: **ســـوقُ البراغيث!**

المصطلح ذاتُه، تجده في اللغةِ الإنجليزية وفي الفرنسية، في الألمانيةِ، وفي لغاتٍ أوربيةٍ أخرى.

في بغداد يسمّونه **ســـوق هرَج**.

وإن اختلفَت الرؤيةُ.

*

لستُ من الـمُـغرَمينَ بالتسوّق، سواءٌ في ذلك لندن ودُبَيّ وباريس. والسببُ بسيطٌ جداً،

بسيطٌ حدَّ اللعنةِ، فأنا امرؤٌ أنعَمَ الله عليه بنعمةِ الفقرِ، فجـنّـبَـه متاعبَ الشراءِ والبيعِ والتملُّكِ، والتردّدِ على الأسواقِ، ووضْعِ النفْسِ معروضةً، مخذولــةً، في المزادِ.

لكنّ **ســـوقَ البراغيثِ** ليس كسائر الأسواق.

إلى هذا السوقِ تأتي النسوةُ بما يمكنُ الاستغناء عنه ممّا ذخَرَ البيتُ: أباريق شاي. أصص أزهار. حقائب. ملابس، حلي. . .

وإلى هذا السوق يأتي رجالٌ بما أمكنهم الاستغناء عنه: كتب. غلايين. حقائب سفر. عدّة حلاقةٍ للمسافر، حذاء تسلّقٍ. . .

والسوقُ، إلى هذا وذاك، مَرْبَـعٌ وملتقى، ومرتعٌ للأطفالِ، ونقطةُ مواعيد للعشّاق.

لقد أحببتُ **ســـوق البراغيث** حدَّ أنني وقفتُ، بائعاً، في صبيحةِ أحدٍ رائقٍ، مع صديقتي النمساويةِ، وهي تستغني عن الكثير ممّا لم تَـعُـدْ بحاجةٍ إليه.

آخرُ ما اقتنَيتُ من سوق البراغيث، بلندن، ثلاثة مجلدات من أعمال أريك هوبسباوم، هي:

عصر التطرّف. عصر رأس المال. حول التاريخ!

مصـطـبـةُ الـبُحـيرةِ

المـرأةُ ذاتُ الأعـوامِ الـخـمسةِ والـتسعيـن تشاركني مـصطبةً عـنـد الشـاطئ. كـانـت سفنُ النزهةِ تنتظرُ الركّابَ، إلى لـحظةِ إقلاعِ الــمَرْكـبِ «موبي دِكْ». والـمرأةُ ذاتُ الأعـوامِ الـخـمسةِ والـتسعيـن تُـتَـمْـتِمُ أغنيةً عن أُذُنٍ لا تسمعُ. عن أطرافٍ لا تنفعُ. عن أرصفةٍ تتذكّــرها الآنَ.

تقولُ المرأةُ: لم يكن المشهَدُ قبل سنينَ كما تشهدُه الآنَ. لقد قطعوا الأشجارَ، وكـانت تـحجِبُ مرأى الـماءِ. و ها أنت ترى أن الـدنيا تتغيّرُ.

هل تعرفُ ماذا كانت هذي الضاحيةُ النهريّةُ من برلينَ الأصليّةِ؟

لـم تكُ شيئاً. وأقولُ لك: الآنَ... الضاحيةُ النهريةُ لا تعني لي شيئاً

أعوامي الخمسةُ والتسعون تُـسَـمِّـرُني، جنبَكَ، عندَ المصطبةِ. اللعنةُ!

أطرافي لا تنفعُ.

أذني لا تسمعُ. هل تســمعُني؟

....

....

كانت شمسُ أصيلٍ صيفيٍّ، تلعبُ في وجه المرأةِ ذاتِ الأعوامِ الخمسةِ والتسعينَ.

وكنتُ

عميقاً أُنصِتُ...

كنتُ

بعيداً أســـري في أعوامِ المرأةِ ذاتِ الأعوامِ الخمسةِ والتسعين.

أنظرُ في الوجهِ المتورِّدِ تحتَ الشمسِ الصيفيّةِ

أنظرُ في الشاطئ...

....

....

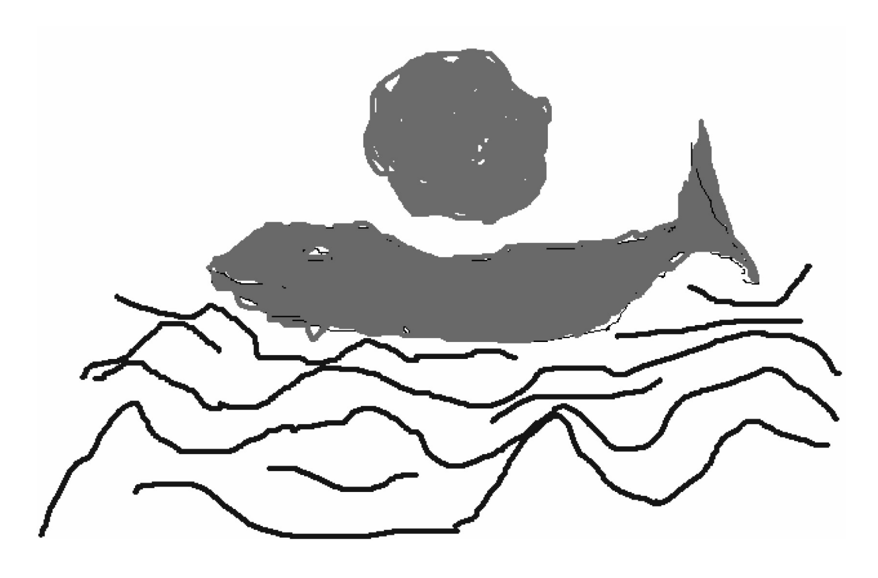
....

كان الـمَـرْكبُ «موبي دِكْ»

يُقْـلِعُ.

برلين، ٢٠١٠/٠٦/٢٧

مُـوبي دِكْ Moby Dick



تخطيط بالكومبيوتر

٢٠١٠/٠٦/٢٧

رادِسُ الغــــابةِ

يأتيكَ الاسمُ من حيثُ لا تدري، وآنَ لا تدري.

تغمغِمُ في سِــرِّكَ، فينفتحُ نعيــمٌ. هاهي ذي «رادسُ الغابةِ» ملتفّةٌ بأشجارِها وظِلالِها العميقةِ. نوافذُها تكادُ تَخْـفَـى من متعرِّشٍ ومتسلِّقٍ. خضرةٌ ذاتُ أفوافٍ وتدرُّجاتٍ وندىً. لَكأنَّ تونسَ العاصمةَ خلعتْ جُبّـةَ القاضي، أو بِزّةَ الشرطيّ، ولاذت بالطبيعةِ خلاصاً.

هنا، ظلَّ عبد الرحمن بن أيوب، يهدهِدُ «تِبْـــرَ الزمانِ» حُلماً على الوسادةِ والورق.

هنا أيضاً، ودّعَ محمد الصغير أولاد أحمد، شقاوةَ صِبا، فأمسى ربَّ عائلةٍ.

كلّما دخلتُ رادسَ الغابةِ تذكّرتُ أندريه جِيد في «قوتِ الأرض» وهو يصلِّـي لبلدةٍ جزائريةٍ

لِصْقَ العاصمةِ، أيضاً، هي «الـبُـلَـيدة». وهي لِـبْـلِـيده، بالنّطقِ الجزائريّ.

ما يُبهِجُ المرءَ في تونسَ، أن الطبيعة لم تزَلْ موضعَ احترامٍ نسبيّ.

مرّةً كنت مع محمد لطفي اليوسفي، في سيّارته «الأودي» القديمة، نخترقُ غيضةً، فيها أشجارٌ ما رأيتُ مثلَها من قبلُ.

سألتُ: أيّ أشجارٍ هذه يا لطفي؟
اجابَ: أشجارُ الفلّين. إنها محميّةٌ.

*

أحببتُ إحدى قريبات عبد الرحمن بن أيوب.
كانت من «قرقنة».
لكنها لم تُحبِـبْـني. وقد فعلتْ خيراً، لها، ولي.
«رادِس الغابة» لا تزال تتموَّجُ بضحكةِ تلك التي لم تُحبِبْني.
كانت ضحكتُها مثل أجراسِ فضّةٍ.

*

قبل فترةٍ، اتّصَلَ بي منصف الوهَيبي، شاعرُ تونس الأصيل، قال لي: البقاء في حياتك. محجوب العيّاري رحلَ...
محجوب العيّاري، الشاعر، المتمردُ بطريقته، رحلَ ضاحكاً، بعد أن سهرَ طويلاً، ودخّنَ ثقيلاً. محجوب هو مَن دعاني إلى «نابِل» لأكون في ضيافته، في «نُزْلِ إيمان» حيث السيدة ليلى. العيّاري، أخذني مرّةً إلى بستانٍ من بساتين «نابل» البحرية، فيه نفحةٌ من «رادس الغابة»
محجوب العيّاري كان مولَّهاً بـ «تونس العاصمة». بـ «رادس الغابة» تحديداً.

الســـاحةُ في الصـــباح
Hanne Solbek Platz

يفتحُ هذا المقهى – المطعمُ، في العاشرةِ، البابَ
المقهى– المطعمُ، صينيٌّ
(حيث جلستُ إلى طاولةٍ فارغةٍ)
والساحةُ
(حيثُ مَداخلُ أرصفةٍ لقطاراتِ المدنِ الألمانيّةِ)
ما زالت موحشةً
وتظلّ الساحةُ موحشةً
حتى العاشـــرةِ. . .
الفتياتُ سيأتينَ، يسابِقْنَ حقائبَهُنَّ
إلى الأرصفةِ السودِ؛
سيأتي الأتراكُ بما زرعوا
وسيأتي أكرادُ الأتراكِ بما صنَعَ الأتراكُ،
وتأتي الدرّاجاتُ لِـتُربَطَ كالخيلِ
(عليّ الآنَ مغادرةُ الطاولةِ)
. . . .
. . . .

. . . .

السَّاحةُ

تستيقظُ

لكنْ، متأخرةً. . .

مثلَ امرأةٍ في الخمسينَ

مُدَوَّخةٍ من ليلةِ حُبّ!

برلين، ٢٠١٠/٠٦/٣٠

الصّيفُ ناعمـاً

تدورُ طويلاً في المخازنِ
كلّما أتتْ مخزناً دارتْ قليلاً
وفكّرتْ قليلاً
ولم تلمُسْ
ولم تشترِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
الضحى ربيعٌ، كأنّ الصيفَ راجَـعَ نفسَهُ
فهَبَّ خفيفاً.
ليتَها، الصبحَ، قد نضَتْ غلائلَها
واختارت البحرَ!
ليتَها!
ولكنَّ مَن تهوى بعيدٌ. . .
تـلَـبّـثَـتْ
ومدّتْ يداً:

أوّاه، لو كان ههنا، يداعبُني تحتَ القميصِ.

سأشتري القميصَ. . .

وأرضى بالذي أتحسس!

برلين، ٢٠١٠/٠٦/٣٠

محمّد عفيفي مطَر

٢٠١٠/٠٦/٣٠

الشعراءُ يرحلون هكذا، صامتينَ، منسيّينَ.
هل سيذكرُهم أحدٌ؟
في هذا الكرنفالِ الجنازيّ لأمّـةٍ أُخرِجَتْ، قهراً، من التاريخ، لا أحدَ يذكرُ أحداً.
مصرُ ذاتُ خصوصيّةٍ هنا أيضاً.
قبل محمد عفيفي مطر، مَن كان يتذكّرُ محمد صالح؟
وقبل محمد صالح، مَن كان يتذكّر صلاح عبد الصبور؟
*
محمد عفيفي مطر، مات بما مات به ملايينُ المصريين، منذ كانت مصرُ، ومنذ كان النيل. مات بفايروس الكبِد الوبائي. ربما كان عفيفي أكثرَ تعرُّضاً للإصابةِ بالوباء، بسببٍ من طبيعةِ
غذائه، اللصيقةِ بفقرٍ حقيقيّ.
محمد كان يعيش في القرية، في الغيط (بتعبيره)، وكان إذا حلَّ بالقاهرةِ جلبَ معه غذاءه:
جُبناً قَريشاً، وأعشاباً من الحقل، بصلاً وثوماً وكّراثاً وجرجيراً.

كان يقول لي: ظلَّ الفلاّحُ المصريّ، لا يتناول من الساخنِ غيرَ الشاي.

*

لا أعتقدُ أن شاعراً مصرياً لقِيَ من العنَت والظلمِ، ما لقيه محمد عفيفي مطر.

لقد اعتُقِلَ، وعُذِّبَ، حتى كاد جسده يتهدّمُ تماماً.

ظلَّ أعواماً خاضعاً لعلاجٍ قد يُصلِحُ ما أفسده التعذيبُ من عصبٍ وعظمٍ ولحمٍ.

أمّا تهمتُه فهي انتماؤه إلى حزب البعث.

*

كان بيني وبين الرجلِ بُرودٌ ما، بسببٍ من سياجٍ سياسيّ صفيقٍ كان بيننا.

في إحدى زياراتي، للقاهرة، اعتذرتُ له، وقرأنا معاً في أمسيةٍ من أماسي معرض القاهرة الدوليّ للكتاب.

وأظنني، بِتُّ ليلةً، ضيفاً عليه، في شقّته المتواضعة، التي تحاذي النيل. وكان غذاؤنا بعضَ ما جاء به من «الغيط»: الجبن القَريش والجرجير. رحلَ محمد عفيفي مطر. عفيفَ اليدِ واللسانِ.

رسـالةٌ إلى جوان ماكنلي

برليــن، ٠١/ ٠٧/ ٢٠١٠

عزيزتي جوان

صباح الخير

آمُلُ في أن تظلّي بخير، وأنتِ في مرفأ الصيد العتيق، جْـرِنْـزْبي، ومنزلِكِ الأول، منزل أمِّكِ وأبيكِ. لتكن أيّامُكِ هناكَ مفعَمةً بالحنانِ الذي تَنشدينه.

اليومَ، الأول من تموز، أبدأُ شهري الثاني، من إقامةٍ ببرلين.

وأمسِ، احتفلتُ مع ابنتي شيراز، بعيد ميلادها. كان الاحتفال بسيطاً. ذهبنا إلى منطقـــة Alt-Tegel «التيجل القديمة» وتناولنا بيتزا في مطعمٍ إيطاليّ متواضع. أردنا أوّلاً أن نتعشّى في ذلك المطعمِ الذي تعشّينا فيه،أنتِ، أنا، شيراز، قبل عامٍ، إلاّ أن الصيف كان ساخناً، وأنتِ تعرفين وجباتِ المطعمِ الثقيلةَ.

بدأتُ آلَفُ العيشَ اليوميّ، في هذه العاصمة الأوربية العريقة.

أشعرُ أن سكّانَ برلين أقلُّ تحفُّظاً، وأرحبُ صدراً، من سكّانِ عواصمَ مثل لندن وباريس.

قد أكون متعجِّلاً في الـحُكمِ، لأني زائرٌ. أحكامُ الزائرِ غيرُ أحكامِ الـمُـقِـيمِ كما تعرفين.

على أيّ حالٍ، أنا لا أشعرُ، هنا، في برلين، بأني أجاورُ مَن احتلّوا مدينتي «البصرة»، وأعادوا استعمارَ العراق.
وأنتِ تعْلمينَ أنني منحتُ، حزبَ المحافظين، صوتي، في الانتخابات البريطانية الأخيرة،
ليسَ لأني أعدتُ النظر في قناعاتي اليسارية الراديكاليّة، بل لأنني لم أُرِدْ أن أمنحَ صوتي
لحزبِ حكومةِ المحتلّين.
أذكرُ أننا تحدّثْنا طويلاً حول الأمرِ.
أنتِ أيضاً، لم تصوِّتي لحزب العمّال. كنتِ تقولين: هذا ليسَ حزباً للعمّال.
عزيزتي جوان
تسلّمتُ رسالتَكِ، أمسِ، وسُعِدْتُ لأنكِ دائبةٌ، كعهدِكِ، على الكتابة، وإدامةِ حَمْلتِكِ
لاستعادةِ حقوقِكِ.
كما سَرَّني أنكِ تخطِّطينَ لرِحلةٍ طويلةٍ.
مَن يدري... قد نكون معاً في رحلةِ الحُلْمِ هذه! قبلاتي.

تحت شجرةٍ لا أعرفُ لها اسـماً

ربما كانت شجرةَ بلّوطٍ.
هي، بالتأكيد، ليست صفصافةً
ليست صنوبرةً
أو ســـروةً
ليست شجرةَ الزانِ السامقةَ
إلخ... إلخ...
هل عليّ أن أقولَ أيضاً:
إنها ليست نخلةً؟
....
....
....
تحت هذه الشجرةِ
أنا والعصافير.
فوقَ هذه الشجرةِ
أنا والعصافير.
السماءُ الصافيةُ تجعلُ الورقَ الأخضرَ يَـشِـفُّ
حتى كأني أُبصِرُ الورقةَ التاليةَ عبرَ الورقةِ الأولى.

«يا شجرةً مُزهِرةً بالطيور»
الإسبانيّ خوان رامون خمينيث، أنطقَ الألمانيّةَ الجهمةَ أغرودةً. . .
سأظلُّ جالساً تحت هذه الشجرةِ
الشجرةِ التي لا أعرفُ لها اسماً
الشجرةِ التي لا تعرفُني.
. . . .
. . . .
. . . .
العصافيرُ فقط تَطْـمَـئِنُّ إليّ.

برلين، ٠١/ ٠٧/ ٢٠١٠

المِيراث

في أواخر الثمانينيّاتِ، أَطَلَّ على المجموعة العراقية الصغيرة في قبرص «نيقوسيا»، وكلُّها تحت خيمةٍ فلسطينيةٍ، شخصٌ غريبٌ. شابٌّ يحملُ جوازَ سفرٍ أميركيّاً، ويتخذُ السوادَ لباساً، ويحمل أوراقَ رســـمِهِ في حلِّـه وترحالِه.

هذا الشاّب اسمه:

هيثم عبد الجبّار عبد الله

ليس من عراقيّ يخطئ في تشخيصِ الشابّ.

إنه ابنُ عبد الجبار عبد الله، عالم الفيزياء الشهير، أوّل عميدٍ للجامعة الوطنية، جامعة بغداد، بعد ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨.

كان هيثم يريد أن يطلَّ علينا، نحن عراقيّي المنفى القبرصيّ. لم نحْسِن وفادتَه كعادتِنا. تحرير السماوي وحدَها اهتمّتْ به، كما يليق.

التقيتُ هيثماً أكثرَ من مرّةٍ.

ثم رحلَ هيثم عنّا، عائداً إلى نيويورك حيث يقيم.

في أحد الأيام أعطاني صديقٌ كان هناك، تخطيطاتِ بورتريه لي، من عمل هيثم.

احتفظتُ بالتخطيطات.

*

قبل سنين أتيحتْ لي فرصة زيارة نيويورك. سألتُ تحرير السماوي (المرحومة) إن كانت لا تزال على اتصالٍ بهيثم. نعم. وأعطتْني رقم هاتفِه هناك.

أخذتُ تخطيطاتِه معي. ربّما أرادَ الاحتفاظ بها.

هاتَـفـتُـُه.

التقَينا في «القرية» على كأسَي بيرة.

فرِحَ برؤية التخطيطاتِ، لكنه آثَرَ أن أحتفظَ بها، أنا.

وماذا تفعلُ يا هيثم، هنا؟

قال: أنا أعملُ في متحف الميتروبوليتان!

أخبرتُه أنني زرتُ المتحفَ، وأريدُ أن أذهبَ إلى متحف الفن الحديث «الموم» اختصاراً.

قال: سأرتِّبُ زيارةً خاصّةً لكما (كنتُ مع أندريا، آنذاك، وهي رسّامةٌ محترفةٌ).

وقد صدَقَ حُرٌّ ما وعَدَ.

الحـقَّ أقولُ

إنّ هيثم عبد الجبّار عبد الله

تلقّى ميراثاً صعباً ثقيلاً

وعليه أن ينهضَ به...

النجمُ الـمندائيّ ليس لُعبـةً يُتَـلَهّـى بها
وهيثم يعرف ذلك.

*

في «المتروبوليتان»
وفي الجامـعـة...
وفي مَظهرِهِ الزِّمِّـيتِ
يفعلُ ما يريدُ.
يفعل ما يرى أننا نريدُ.
ولم يخطئ.
لم يخطئ، البتّـةَ



تخطيطات هيثم القبرصيّة

أحوالُ الكائنِ في مستوطنةٍ إغريقيّةٍ بالمتوسِّط

غُـــرفـــةُ إســـماعيـــل
Alexenderenen Str. 115

نافذةٌ في الغرفةِ

لا بابٌ. . .

إنْ حاولتَ دخولَ الغرفةِ

فابحَثْ عن مفتاحٍ للنافذةِ.

(البابُ تظلُّ، كما كانتْ مؤصَدةً)

حاوِلْ أن تجدَ المفتاحَ

و لا تيأسْ. . .

(إسماعيلُ يظلُّ الصامتَ)

ربّتما كان المفتاحُ بجيبِ الطيّارِ الحربيّ المخبولِ

أو الرسّامِ البغداديّ الهاربِ من بطشِ رفاقٍ أوباشٍ في عدَنٍ. . .

أو أنّ المفتاحَ مع الصيّادِ المتمدِّدِ تحت الشمسِ

بساحلِ أبْـــيَـــنَ. . . (كان شيوعيّاً من «باب الشّيخِ» تخرَّجَ في رومانيا)

أو أن المفتاحَ بِجِـــيْـــدِ فتاةٍ

كانتْ تتدرَّبُ في «مسرحِ بغدادَ الفنّيّ».

. . . .

. . . .

. . . .

المفتاحُ أهَــمُّ من البابِ

المفتاحُ سيفتحُ كلَّ الأبوابِ

الأبوابِ المؤصَدةِ

الأبوابِ المرصودةِ

أبوابِ جهنّمَ

والجنّةِ

والبيكاجي . . .

أبوابِ الـمَنفيّ ببرلينَ الشرقيّةِ: إسماعيل!

---

* إسماعيل، هو إسماعيل خليل، المخرج المســـرحيّ العراقيّ.

يومـيّـاتُ روما

«يوميّات روما»، أو «قصائد إيروتيكيّـة»، هي مجموعةٌ صغيرةٌ من قصائدَ كتبَها الشاعر الألمانيّ غوته، عن رحلته الإيطاليّة.
القصائدُ نُشِرَتْ في حياته غير كاملة، ولم تُنشَر كاملةً إلاّ بعد وفاتِه.
بل أن صديقه الشاعر شيللّر الذي كان يصدِر مجلةً أدبيةً في فايمار، هي «دي هورن» مارَسَ نوعاً من الرقابة، وطلبَ من غوته الامتناع عن نشرِ إحدى القصائد، كما حذفَ من قصيدةٍ أخرى.

*

بإمكاننا الآن النظرُ إلى الأمر كله في ظروف القرنين الثامن عشر و التاسع عشـر بألمانيا، معتبرين دورَ المنصبِ الرسميّ، والوضعِ الاجتماعيّ، لغوته، آنذاك.
هذه القصائد الإيروتيكيّةُ، متفاوتةٌ في صراحتِها. بعضُها يمكن إدراجُه في ما اصطُـلِـحَ عليه عندنا بـ «الأيريّات»، مثل قصائده التي تمجِّـدُ «بريابوس» المرادفَ اللاتينيّ للأيــر.
بعضُها يمكن إدراجُه في الشعر الفاضح، مثل تلك القصيدة التي كتبَها عن فينيسيا «البندقية» مقارِناً بينَ ضيقِ أحدِ أزقّتِها، وضِيقِ فرْجِ عشيقتِه الإيطاليّة. كأنه يؤكدُ قولَ تلك الأعرابيّةِ:
يريدونه ضَـيِّـقاً، ضَـيَّـقَ اللهُ عليهم!

بعضُها تُـمْكِنُ إحالـتُـــه على الســرد، مثل تلك القصيدة التي يروي فيها كيف تعطّلت

العربةُ التي كان يسافرُ بها، فاضطرّ على المبيت في نُزْلٍ. وهناك أقامَ علاقةً مع فتاة الـنُّـزْلِ التي تسلّلتْ إلى فراشِـــه حين انتصفَ الليلُ، ولم يستطعْ أن يمضي في عملية الحبّ معها بعد أن قالت له إنها عذراء. . .

وثمّتَ قصائدُ يتحدث فيها عن عشيقتِه الإيطالية التي كلّفتْـه عِشــرتُها ثروةً، كما ذكرَ صديقٌ له، وكيف أن تلك الشابّةَ كانت تختالُ وهي في العربة في طريقِها إلى الأوبرا. . .

إنه سعيدٌ بأن يروي تفاصيلَ الفراشِ وما يجري فيه، كأن في الإعادةِ إفادةً، كما يقالُ.

وهناك كلامٌ عن ضعفٍ جنسيّ كان غوته يعاني منه، ومن هنا جاءتْ رحلتُه الإيطالية باعتبارها نوعاً من علاجٍ يبدو أنه كان شافياً.

بعد عودة الشاعر من إيطاليا، تزوّجَ فتاةً في الثامنة عشــــرة!

«قصائد إيروتيكيّـة» تُعتبَر من نتاج غوته ذي القيمةِ الشِعرية العالية من ناحية الصنعة الشِعرية، ويُنظَـر إليها أيضاً باعتبارِها جزءاً من المهمّة التي نهضَ غوته بها باعتباره «محرِّراً»، وفاتحَ آفاقٍ في الثقافة الألمانية، والمجتمع الألمانيّ بعامّةٍ.

صَـيـفٌ بَرليـنـيّ

قطاراتُ الظهيرةِ. . .
كان شــيءٌ من الضَّوءِ اســتوائيٌّ
وكانت ســراويلُ النساءِ تكادُ تَخفى
من القِصَـرِ.
الرجالُ مُـدَوَّخونَ الظهيرةَ.
سوف تمتلئ المقاهي بهم.
حتى إذا ضاقتْ أقاموا موائدَهم على العشبِ.
انتظرْنا مجيءَ السبتِ
يوماً بعدَ يوم،
وها نحن الأُلى يمشونَ دوماً رعاةً غافلينَ. . .
ألم تجدْنا بأبوابِ المحطّاتِ؟
النساءُ استرحنَ إلى براري الـعُـرْيِ
أسْــرِعْ
ولا تَـخَـفِ
. . . .
. . . .
. . . .

القطاراتُ استفاقتْ

ستَصْفِرُ، مرّةً أخرى، قليلاً

لتحملَنا

وترمينا،

بعيداً. . .

حيثُ لن يعوي قطارُ!

برلين، ٠٤/ ٠٧/ ٢٠١٠

اضطرابٌ جَــوِّيٌّ

تَـخــاطَـفَ البرقُ ليلاً
والبحيرةُ والأشــجارُ غابتْ.
ســماءٌ ليس يسـكـنُــها
ســوى تَـخاطُـفِ هذا البرقِ...
....
....
....
ثانيةً
ويقصِفُ الرّعــدُ.
يأتي وابِلٌ هَـطِــلٌ؛
ويشــربُ النـبتُ أمواهاً مقدَّســةً
وتدخلُ الغرفــةَ
الأرواحُ والورَقُ
ويَخْطِفُ البرقُ...
في الـمَـبنى الـمُـواجــهِ بانتْ شُــرفةٌ
وبأعراقِ الجِـيرانيــومِ كانَ الكونُ يأتلِـقُ!

برلين، ٠٥/ ٠٧/ ٢٠١٠

النّـواقيـس

هنا، في برلين، لا تسمعُ النواقيسَ، إلاّ نادراً؛ أوّلاً لأنها خفيضةُ الرنين، وثانياً لأن الكنائسَ والكاثدرائيّاتِ قليلةٌ نسبيّاً.

برلين، على أيّ حالٍ، ليستْ مدينةً كاثوليكيةً، ولا تُـمْـكِـنُ مقارنتُها، في هذه النقطةِ، بباريس، المدينةِ التي تظلّ تئِنّ تحت سطوة الكاثوليكيّة. فرنسا جمهوريةٌ علمانيّةٌ لشعبٍ من المؤمنين الكاثوليك!

يقول بدر شاكر السياب:

بُوَيب

بُوَيب

أجراسُ بُرجٍ ضاعَ في قرارةِ النهَرْ

الماءُ في الـجِـرارِ، والغروبُ في الشّـجَـرْ

هنا يستعملُ بدرٌ كلمةَ «أجراس» ويعني بها النواقيس. البرجُ هو بُرجُ كنيسةٍ ما.

عندما نُقِلَت، إلى لغتنا العربيةِ، رواية إرنَستْ همنغواي الشهيرة:

To whome the bells toll

كان عنوانها: لِـمَن تدقّ الأجراس. . .

لكنّ «النواقيس» هي الأقربَ إلى روح الرواية.

وعلينا ملاحظة أن همنغواي استعمل الفعل

Toll

وليس Ring

الفعل الأول يعني رنيناً فيه حزنٌ، أي أنه ليس قرْعاً أو دَقّـاً كما يعني الفعلُ الثاني.

أرى أن العنوان الأقرب إلى روح رواية همنغواي (المرثيّـة) هو:

لِـمَـن ترِنُّ النواقيس

أو: لِـمَـن تئِنُّ النواقيس

*

في هذه الضاحية البرلينية، حيثُ أقيمُ، ضيفاً شِبْـهَ ثقيلٍ على ابنتي شـــيراز، أدمنتُ الـمشيَ رياضةً ونزهةً، وفي مساءٍ مبكِّرٍ، قُبَيلَ السادسةِ، سمعتُ رنينَ ناقوسٍ خفيضاً. قلتُ لشيراز: لنتبع الصوتَ. أريد أن أرى الناقوس!

في أعلى مبنىً، كنتُ أمُرُّ به فلا أحسبُه كنيسةً، كان ناقوسٌ حقيقيٌّ صغيرُ، ينوسُ جيئةً وذهاباً، ويتردّد صداه بالرغم من السيارات المسرعة عادةً. ظللنا ننصتُ إلى الرنين حتى الخفقة الأخيرة!

برلين، ٠٦/ ٠٧/ ٢٠١٠

حديقـةُ غِـيْزونـد بْرونِنْ
Gesundbrunnen's Garden

مَـصاطِـبُـها (حينَ تَفْرَغُ من نائمِيها)
لها كُلْـحَـةُ الوحلِ.
والنائمونَ الذين مضَوا نحوَ أوَّلِ دُكّانةٍ في الصباحِ
سيأتونَ بالـجُـعَـــةِ. . .
الصبحُ يفتحُ دفترَهُ في الحديقةِ
كي يكشفَ العشبُ تاريخَهُ
من هشيمِ زجاجٍ
ورائحةٍ لـخُـراءِ الكلابِ
وبَـولِ السّكارى.
كأنّ الحديقةَ مهجورةٌ منذُ أن خُـلِـقَتْ والغُراب. . .
كأنّ الذين بنَوا فندقَ «الهوليداي إنّ» جاراً لها
أنكَروا أنّ هذي الحديقةَ تُـسْــمى الحديقةَ
(كانت لهم خِرْبةً أو خراباً)
وقد يُخطىء المرءُ
مِـثلي،
فيأتي ليختارَ زاويةً للتأمُّلِ. . .

لكنهم يجمعون هشيمَ القناني، كما يَقطفونَ الزهورَ
وأعقابَ كلِّ السجائرِ
والإبَرَ،
العُـلَبَ الورقيّـةَ
والقيءَ. . . .
. . . .
زاويةٌ للتأمُّلِ؟

٢٠١٠/٠٧/٠٧

جَــوّابٌ

هذا الصباحَ، جلستُ تحتَ الخيمةِ الخضراءِ
تحتَ الدّوحــةِ. . .
العرَباتُ مســـرعــةٌ وعصفورٌ أتى هذي الدقيقةَ،
كلبُ ســيِّـــدةٍ
وسائحتانِ يابانيّتانِ،
الشمسُ ناعمةٌ
ويَبْلغُني الهديرُ الــمَعدِنيُّ:
قطارُ شَــحنٍ مَــرَّ تحتَ الجِســـر. . .
لا ماءٌ
ولا شجرٌ
قطاراتٌ تَــمُــــرُّ؛
الأرضُ حولي، خَشْــنـــةٌ، بُــنِّــيَّـــةٌ
لا عشبَ تحتَ الدوحـــةِ
امرأتانِ يابانيّتانِ. . .
أهيمُ، منذُ الفجرِ، في طُرُقاتِ برلينَ.
. . . .

. . . .

. . . .

القطارُ يظلُّ يحملُني، كطَـــيرِ الرُّخّ.

برلين، ٢٠١٠/٠٧/٠٩

النّسر البْروسِيّ

كم قِيلَ: نَسرُ بْروسيا قد طارَ!

. . . .

. . . .

. . . .

منذُ نهاية الحربِ الأخيرةِ طارَ عن برلين.

لا ندري إلى أيّ الممالِكِ طارَ، أسحمَ في المساء.

وهل بنى بالصخرِ والفولاذِ والذّهبِ المُخبّأِ وكرَهُ؟

وبأيّ طيرٍ أو طرائدَ كان يقتاتُ...

المدينةُ (وهي برلينُ العجيبةُ) أغلَقَتْ حتى السّماءَ،

وبابَ بوّاباتِها: بْرانْدِنْبَرْغ، والجسرَ القديمَ.

ولن يعودَ النّسرُ

نسْرُ بْروسِيا...

❊

واليومَ...

في الصيحاتِ

في الأبواقِ

في الراياتِ

فِي ما تنفثُ الكُرةُ البعيدةُ، تلكَ، من إفريقِـيا
أبصرْتُ ذاكَ النســـرَ
أسحمَ
مرهَفَ الـمنقارِ
مبسوطَ الجناحِ إلى النهايةِ،
كان نسْـــرُ بْروسِــيا
يختالُ، في المرسيدس السوداء، كالجنرالِ
في برلين . . .

برلين، ١٠/ ٠٧/ ٢٠١٠

الـزاويةُ البـريطـانيّـةُ

إذاً. . . اكتمَـلَ الأمرُ،

وصارتْ لكَ في هذا الكوكبِ زاويةٌ.

حقّاً، إنكَ لا تعرفُ أسماءَ الأشجارِ

ولا ما نطَقَ الطيرُ

وإنكَ لا تعرفُ فيها أحداً

(تلكَ رؤوسٌ من حَجَـرٍ، ووجوهٌ من قارٍ. . .)

ولسوفَ تُحشرِجُ إنْ قلتَ:

إلى أينَ تؤدِّي السككُ؟

الأغربُ أنكَ لم تدخلْ بيتاً لسواكَ

فلا جارَ

ولا أخبار

و لا حتى كلماتُ «صباح الخير. . .»

وإنْ كانت كاذبةً.

. . . .

. . . .

. . . .

لكنك تأوي، مثلَ سواكَ، إلى زاويةٍ
وقد اكتملَ الأمرُ
وصارتْ لكَ في هذا الكوكبِ زاويةٌ. . .
فلماذا تشكو؟
أ لأنّكَ ما صافحتَ، هنا، أحداً؟
أ لأنكَ ما صافحتَ، هنا، حتى نفسَك؟

برلين، ١٣/٠٧/٢٠١٠

مـع مؤيَّـد الراوي

كلّما حللتُ ببرلين زائراً، التقيتُ مؤيّداً.

أنـا حـريـصٌ عـلـى الأمـر، لأن فـي لـقـاء الـرجـل تـجـديـدَ صـداقـةٍ، واستمتاعاً بأحاديث، ومقاربةَ دعابةٍ.

السبت الماضي أمضيتُ معه أربع ساعاتٍ.

التقَينا في منطقة ببرلين الشرقية ليست بعيدةً عن محطة مترو «وارشــو»، منطقةٍ للمقاهي والمطاعم، وأهلِ الفنّ.

كان الناس يتابعون كرة القدم.

أمّا نحن، الأثنين، فلم نكن مسَمَّرَينِ إلى شاشة التلفزيون العريضة جداً.

كان حديثنا مختلفاً.

مؤيد الراوي يتساءل عن «أيّوبيّات» بدر شاكر السياب.

أتحملُ معنىً دينيّاً؟

هل المعنى الدينيّ في نصوص بدر الأخيرة مقصورٌ على فترة المرض، أم أن له تاريخاً أسبقَ في نصوصه؟

يقارن مؤيد بين بدر وناظم حكمت، وكيف أن ناظم حكمت ظلَّ قويّاً حتى النهاية، بينما كانت الرياح، حتى الخفيفة منها، تتقاذفُ بدراً.

يبدو أن المسألة ذاتُ إلحاحٍ.
ما السبب؟
مؤيد الآن يعاني من وطأة السّكّريّ.
بدأ بصرُه يَكِلُّ. ومشيتُه تضعُفُ.
صارت الكتابةُ عسيرةً، بل شبه مستحيلة.
اقترحتُ عليه أن يملي على فخرية البرزنجي، رفيقةِ حياته. قال: لا أستطيع. يجب أن أكتب!

*

لمؤيد الراوي فضلُ وضعِ قصيدة النثر، في وقتٍ مبكرٍ، على المسارِ الجادّ، مع ديوانه المرموق
«احتمالات الوضوح» الصادر في العام ١٩٧٤.
لا أحدَ يعود إلى هذه المعلومة.
«شعراء» المكتب الثاني للجيش، حوّلوا الأمرَ (أعني أمرَ قصيدة النثر) إلى مهزلة عامّــة مُـعَـمّـمـةٍ.

برلين، ١٣/٠٧/٢٠١٠

مَـنْظرٌ صباحيّ

كان عندَ البحيرةِ

مستسلماً لانعكاسِ الغصونِ على الماء.

أخضرُ ماءُ البحيرةِ

والطيرُ أخضرُ

حتى كراسـي السفينةِ في الـجُـرْفِ خضراءُ.

ناقوسُ تلك الكنيسـةِ، يُعلِنُ، وقتاً طويلاً

مجـيءَ الصباحِ.

المطارُ القريبُ استعدَّ ليستقبلَ الطائراتِ المبكِّــرةَ.

الآنَ، تلمُسُ صفصافةٌ بجدائلِها كَـتِـفَـيَّ،

وأهجِسُ أنّ أناملَ تضْـفِــرُ

إكليلَ آسٍ

بأزهارِ دُفلـــى.

. . . .

. . . .

. . . .

البحيرةُ ليستْ بلادَ طيورٍ مهاجرةٍ.

بجعٌ أزرقٌ ظَلَّ منزلِقاً
في مياهٍ بلا موجةٍ
أو طحالبَ.
فاختةٌ تتهجّى اسمَها في مجاهلِ حُرْجٍ بعيد. . .

برلين، ١٤/ ٠٧/ ٢٠١٠

انتهيتُ من تدوينِ هذه القصيدةِ الشاملةِ
صباحَ الرابع عشر من شهر تمّوزَ
العميقِ أبداً، في العام ٢٠١٠.
وكنتُ في زيارةٍ لابنتي شيراز دامت شهرَين
كاملَينِ بين الأول من حزيران والأول من أيلول
٢٠١٠
هذه البانوراما البرلينيّة، فيـها
تقديرٌ ومَحَـبّـةٌ للحاضــرة
الألمانيّةِ التي اتّسَعَتْ وتَحَمّلَـتْ.
وفيها ما يجعلُ الرِّحلةَ الدائبـةَ
أهَمَّ من تمتماتِ فَـرْدٍ، اسمُهُ:
ســعدي يوسـف

برلين، ١٤/ ٠٧/ ٢٠١٠

صـورة أنـدريـا

Andrea's Profile

الأصفرُ بيتي

عند «دلال المفتي»، كان هواءٌ يتضوّعُ بالتبغِ الفرجينيّ،
برائحةٍ من أزهارٍ آتيةٍ من غيرِ مكانٍ، وبفَوْحِ نبيذٍ آتٍ
من مزرعةٍ بجنوبيّ فرنسا. عند «دلال المفتي» كان الصيفُ
شفيفاً مثل قميصٍ من شَبَكٍ. لا أدري كيف اجتمعَ الناسُ
اليومَ بدارِ «دلالٍ». ولماذا اجتمعوا...
كانت ألوانُ الغرفةِ والأثوابِ كما هي، لاتخطِفُ أبصاراً.
لكني، في مثلِ اللسعةِ والبرقِ، لمحتُ اللونَ الأصفرَ، ذاكَ
الثوبَ الأصفرَ...
سيكون الثوبُ الأصفرُ بيتي.
ستكون امرأتي: أندريا...

لندن، ١٤/ ٠٤/ ٢٠١١

---

* دلال المفتي: زوجة بلند الحيدري

Andrea's Profile

At Dalal Al-Mufti's, air was fragrant
With Virginian Tobacco, smell of
Exotic flowers and of wine from a South France farm.
At Dalal Al-Mufti's, summer was transparent as a net shirt.
I do not know how all these people congregated there, and why.
But I met like a sting or a lightning that Yellow, that yellow dress.
The yellow dress will be my dwelling.
Andrea will be my woman.

Translated by the author

London, 14/04/2011

* This is the opening page of my new Poetry Book, titled Andrea's Profile.

تسيرُ أندريا إلى السيّارة البيضاء

سأقولُ: أندِرْيا، لأني كلّما كرّرْتُ أنْدِرْيا ذهبتُ إلى النعيمِ
رأيتُ أندِرْيا لآخرِ مرّةٍ ليلاً
وكانت تحت ظلِّ البابِ واقفةً
وكان البردُ يُرْعِدُني
ويصبغُ وجهها، بالرغمِ من عنَتِ الشتاءِ، بحُمْرةِ الوردِ. . .
أقولُ لها: أسِفْتُ لِما جرى
وأسِفْتُ حتى القهرِ. . .
لكنّ الجميلةَ لم تَرُدَّ.
تسيرُ أندِرْيا إلى السيّارةِ البيضاءِ
لم تعطِفْ عليّ
وسارتْ، شهمةً، لم تنعطِفْ. . . نأتْ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
سأعودُ، مضنىً، نحوَ مَن كانتْ غريمتَهـــا!

١٥/ ٠٤/ ٢٠١١

وادي الجِــنّ

لماذا أبدأُ الأشياءَ، دوماً من نهايتِها؟
كأنّ الحـُلْمَ يأبى أن يدومَ ولو بذاكرةٍ مهلهَلةٍ
كأنّ الـحُلْمَ يَجْلِدُني،
ليخذِلَني
وكأنني أتلو، على قبري الذي عَمَّقْتُهُ بِـيَـديْ، صلاتي. . .
ستظلُّ أندِرْيا، البعيدةَ
بل ستظلُّ تنأى مثلَ ما ينأى الســـرابُ!
أقولُ: أنْدِرْيا!
ولكنْ ليس يسمعُني سوايَ
أليسَ وادي الجِنِّ أرحَمَ؟
لا أظنُّ مساءَ أنْدِرْيا مســـائي
فهي أبعَدُ مِن أسى عربيّتي. . . .
هي، الحـَوراءُ، أبعَدُ عن عواسجَ سوفَ أخْضِدُها لأرقدَ. . .
يا فتىً!
ذهبَ الـنُّعاسُ الوَرْدُ
وابتدأَ السّـــهادُ!

٢٠١١/٠٤/١٥

لا تحاوِلْ في مَشرَب التاج

أطباقُ هذا البارِ، في هيثرو العتيقِ، كما هيَ
الكرسيّ في الممشى، كما هوَ
ثوبُ ساقيةِ النبيذِ، كما هوَ. . .
لكنّ أندِريا العجيبةَ لم تَعُدْ، أبداً، ترافقني!
لقد كنّا عجيبَينِ
اتّخذْنا العالَمَ المجهولَ، لُعبتَنا
ومَلعبَنا.
بلغْنا المنتهى
من قرية نيويورك حتى تَدْمُرَ. . .
ابتلّتْ مُلاءاتٌ بنا.
والآنَ؟
أسألُها، مُـلِـحّـاً أن ترُدَّ
فلا ترُدُّ. . .
تقولُ: إنّ دروبَنا افترقتْ
وفارقْنا الحديقةَ في دمشقَ؛

فلا تُحاوِلْ لَمسَ باطنِ راحتي آنَ المساءِ
ولا تحاوِلْ
لا تحاوِلْ!

Crown Bar Heathrow Airport
١٦/٠٤/٢٠١١

الأصواتُ تأتي من عروق الذهب

ليست الذكرى هي التي تُلهِمُ وتُلْهِبُ. الذكرى، وحدَها لا تكفي. أقولُ لكَ إنني أريدُ أن أستعيدَ. سأستعيدُ ما ليس يُستعادُ. قالت لي: زُرْني تجدْني، أنا في المنزل ذي الحديقة المهملة. أعشابي تنتظرُ. والماءُ منقطعٌ منذ عامٍ.

المنزل في الضاحية اللندنية كان مَشْغَلاً ومتحفاً. قلتُ: أين؟ قالت: الأريكة الضيّقة. اجلسْ ولا تتحرّكْ. لا تَقُلْ حتى كلمةً واحدةً. كنتُ غائباً عمّا هو حاضرٌ. الهواءُ حولي ليس هواءً. رائحةٌ فقط. لكنها لا تستعمل العطور.

من أين الرائحةُ، إذاً؟ قالت وهي تواجهُني، جالسةً على الأرض المفروشة بحَشِـيّـةٍ صغيرةٍ خفيضةٍ: أغمِضْ

عينيك!

فتحتْ أزراراً في ســـروالي.

كنتُ مغمَضَ العينين.

قبلَ أن أُغمِضَ عينيّ، رأيتُها ترتدي ثوباً عريضاً ذا أزهارٍ غريبةٍ، وألوانٍ ليستْ من لندن الكابية.

أحسستُ بشفتَيها تنطبقانِ.

بدأتُ أئِنُّ.

كانتْ تَرضَـعُـنـي.

الحليبُ. حليبي. تدفّقَ كالنافورة!

براغ، ١٧/ ٠٤/ ٢٠١١

رجاءٌ

لَكأنّ أندِرْيا تراقبُني. . .
لَـكأنها تدعو علَيَّ بأن أنامَ على فراشٍ من مساميرٍ
وجَـــمْـــرٍ. . .
خَفِّفي، يا مَنْ عبدتُ سنينَ، من هولِ السّـــوادِ
ولا تقولي: ليتَهُ يهوي إلى سَـــقَـــرٍ!
دعيني لحظةً لأنامَ. . .
شهراً لم أنَمْ!
سـأُجَنُّ لو لم تتركيني لحظةً لأنـــامْ!

براغ، ١٨/ ٠٤/ ٢٠١١

الخـلاص

هذا المساءَ، أُحِسُّ بالبحرِ المزمجـرِ، ليلَه ونهارَهُ، ارتكنتْ عواصفُهُ
إلى مَن كان يمنحُ صوتَها المأوى
ويمنحُ رملَها ما ينبغي للهدأةِ البيضاءِ: أن تقوى لكي تمضي بنا بيضاءَ
في هذا المساء سأستريحُ إلى الهواء وملعب الأمواج
خافتةً
سأسمعُ ما تناديني به تلك الطيورُ
وأسمعُ وهْمَ زحفٍ من سلاحفَ
أو جنادبَ. . .
أسمعُ الريحَ الشفيفَ رفيفَ ريشٍ من ملائكةٍ هبطتْ عليّ. . .
تقولُ: يا سعدي:
أفِقْ!
وأفِقْ!
فلا امرأةٌ بهذا الكونِ أرأفَ!
لا تكُنْ متعلِّقَ الأثوابِ بالعُـلَّـيقِ!
فانفضْ من رُقى السعلاةِ، يا ولَدي، ثيابكَ
مرّتَينِ
ودعْ لَـهُنّ قذارةَ الـمَـبْغى الذي في وحشةِ الصحراء. . .

١٨/ ٠٤/ ٢٠١١

في تَـدْمُـر

في فندق الجيش الفرنسيّ القديمِ، وظـلّ يُصْبَغُ، دائماً، بالـ Jaune Coloniale أي بالأصفرِ المشهورِ في الثّـُكُناتِ، كنّا، أنا وحبيبةُ الأعوامِ، أنْدِرْيا، نراقبُ من زجاجِ الغرفةِ، الطرقاتِ والأحجارَ، أعمدةَ المعابدِ، والحِجارةَ. تلك شمسٌ أقبلتْ من درعِ جنديٍّ وتلك حجارةٌ من معبدٍ للشمس. وجْهُ حبيبتي يغدو ندىً لشقائقِ النُّعمانِ. لم تعرفْ طوالَ العُمْرِ أندِريا بأنّ الشمسَ تُحرِقُ! قلتُ: أندِريا، فدَيتُكِ! ربّما ضربتْكِ هذي الشمسُ ضربةَ تَدْمُرٍ! لكنها أبت النصيحةَ. إنها في غرفة الجيشِ الفرنسيّ القديمِ تَئِنُّ. أركضُ نحوَ من يَهَبُ الدواءَ. الصيدليةُ سوف أبْلُغُها، مُعَنّىً، لاهثَ الأنفاسِ. أنقِذْها إلهي! لم تجيء من بردِ أوربا لتذوي تحتَ شمسِ المعْبَدِ السـوريّ! أندِريا تُفيقُ كأنها انتبهتْ لأولِ مرّةٍ. . . وكأنّها وُلِدَتْ، هنا، مذهولةً، ورديّةَ الوجَنات!

براغ، ١٩/ ٠٤/ ٢٠١١

أندريا في ماء الفرات

مَـن قالَ: أندِريا ستسبحُ في الفراتِ؟
الماءُ كان السلسبيلَ، وكانَ طيرٌ أبيضٌ ضَـلَّ السبيلَ
إلى الفراتِ يظنُّـهُ بحراً...
وأندِريا، وقد غُمِرتْ بأمواهٍ مقدّسةٍ، تلُوحُ غريبةَ الأطرافِ
والأطوارِ...
كان الماءُ يجعلُها خرافةَ طائرٍ متطهِّرٍ بالماء...
كان الماءُ كأساً طافحـاً
ونعومةُ الجسـدِ الشفيفِ بشمس أيلولٍ
نـعِـيمـاَ!

براغ، ٢٠/ ٠٤/ ٢٠١١

أنا وأندريا والسطحُ

لم تكن غرفةً مثل تلك التي نحن نعرفُها كالغُرَفْ
كان فيها من السّطْحِ شيءٌ
ومن شُرفةِ البيتِ شيء. . .
وسيّدةُ البيتِ كانت، كما افتخرتْ، إنجليزيّةً مع كلبتِها المتوحِّشةِ النابحةْ. . .
كنتُ أكره أن أدخلَ البيتَ من رُعْبِ كلبتِها
(وهي كانت تقول لنا: أنتمُ الـمُرعِبون!)
لستُ أفهمُ هذا الجنون. . .
غيرَ أني وصاحبتي سوف نصعدُ ليلاً إلى السطحِ
كي نفعلَ الحُبَّ
تحت ضياءِ القمرْ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
لم أقُلْ إن ذلك كانَ جنوبَ فرنسا
بِـ «لُـودَيف» حيثُ القصائد!

براغ، ٢٠/ ٠٤/ ٢٠١١

رايةُ كارل ماركس

كنّـــا: أعني أندِرْيا، وأنا...
نحملُ رايةَ كارل ماركس، ونهتفُ في الشارعِ
في ترافلغار سِكْوَير
ومقابلَ ١٠ داونِنْغ ستريت...
نهتفُ حتى يختنقَ الصوتُ
وتُخْفِقَ، تحتَ هِراواتِ الشّرْطةِ والريحِ، تَظاهرةٌ.
ما كانت أندِرْيا تتردّدُ
أشجعَ مني كانتْ
وأرَقَّ...

براغ، ٢٠،٠٤،٢٠١١

مزرعة الكُروم

نحن كنّا، بمنتصَفٍ للمسافة، ما بين لِـنْتــس، وبين فِـيَـنّا
وكان على النهر، أعني الـدُنافَ، اسمَ دانوبِهِم، ههنــا. . . نسَماتٌ ربيعيّةٌ
(نحن في الصيفِ)
قلتُ: أندِرْيا هل نبلغُ الليلةَ، العاصمةْ؟
لم تُجِبْ
ربّما تعِبَتْ من قيادةِ سيّارةٍ
ربّما تعِبَتْ من حديثي عن العاصمةْ. . .
ضحكتْ، فجأةً، ثم قالت:
نبيتُ، هنا، الليلةَ!
تعنِينَ، نغفو قليلاً، على ضفةِ النهرِ؟
- لا!
سوف ننعَمُ بالـحُبِّ في المزرعةْ!
. . . .
. . . .
. . . .
هكذا ابتدأتْ ليلةُ الحبّ في غرفةٍ
وسْطَ مزرعةٍ للكروم!

لندن، ٢٢/ ٠٤/ ٢٠١١

أُقَلِّدُ العُذْرِيّين!

وقد أتَهَجّى بينَ حُلْمٍ ويقْظةٍ
حروفَ اسمِها. . .
لكنْ، تَروغُ المَشاهدُ
كأنّك لم تذهبْ إليها ولم تَنَلْ
وأنّ الذي تَرضى به، أنتَ، واحدُ!
سلاماً إذاً
واذهَبْ مع الحُلْمِ
مرّةً
فأُخرى
ولا تسأمْ. . . فأنتَ المجاهِدُ!

لندن، ٢٢/ ٠٤/ ٢٠١١

تلك الظهيرة البرلينيّة

تقولينَ، أندِريا، إذاً. . . كيف أطبقَتْ جُوانُ عليكَ؟
الحقُّ أنني تلَبّثْتُ في برلينَ
أكثرَ. . .
كانت إبنتي، دائماً معي
وشيرازُ تدري أنني لستُ عارفاً بعنوانِ مَن خانَـتْـكِ
لكنّنا معاً ذهبنا، صباحاً، بل دخلْنا بَساطةً
إلى غرفة جوانَ البسيطةِ. . .
لم يكنْ لدَيها، بحقٍّ، أيّ شـــيءٍ!
وفي غدٍ
ذهبتُ إليها، دون شيرازَ، قلتُ: مطعمٌ قريبٌ!
وهذا الذي قد كانَ. . .
قد كانَ ثمّتَ النبيذُ، وخنزيرٌ شواءٌ، وموعدٌ مع النجمِ. . .
عُدْنا
كنتُ كالـتّيسِ، قد ثمِلْتُ. . .
ولم أشعرْ، وفي محْضِ لحظةٍ، بأنّ جوانَ استفتحَتْ بعد لحظةٍ
تُفَتِّحُ أزرارَ القميصِ. . .
وقرّبَتْ، وفي مِثلِ فِعْلِ السِّحْرِ، خُصلاتِها

ثمّ أطبقَتْ على العضوِ
حتى كدتُ أصرخُ. . .
هكذا بدأنا
فلا تستغربي!
نحنُ أُمّةٌ نموتُ، طويلاً، في الغواني، ونُـبْـعَـثُ!

لندن، ٢٢/ ٠٤/ ٢٠١١

أيُّ كَــرَمٍ!

مُـنِـحْتُ فراشَ أُمِّـكِ
كنتِ تعـبى
مُـنَعّمةً
ولم يَـضِقِ السريرُ. . .
كأني أسمعُ الشهقاتِ تُمسي
مُـكَـتَّـمةً. . .
كأني الـمُكَـرَّمُ، بين ساقَيكِ، الأميرُ
غفَونا لحظةً
لنقومَ أُخرى
وكان فِـراشُ أُمِّـكِ ضوعَ آسٍ
. . . .
. . . .
. . . .
أهذا البحرُ شـــرشـــفُـنا الوثيرُ!

لندن، ٢٣/ ٠٤/ ٢٠١١

صباح عيد الفِصْح

لم أنَمْ لَـيلـتَين

منذ أن جاءَ صوتُكِ في هاتفِ الليلِ

أنتِ التي تعرفين انثناءةَ هُـدْبي إذا استأتُ. . .

ماذا جرى؟

أنتِ تدرينَ ماذا جرى

أنا أعرفُ ماذا جرى. . .

يا صديقةَ تِسْــعٍ من السنواتِ العجيبةِ

هل آنَ لي أن أقول :َ

أُحِـبُّـكِ؟

لندن، ٢٣/ ٠٤/ ٢٠١١

That Rainy Day

Not because a rainy day is strangely knocking at my window like a thief.
Not because I am dwelling in this watery steppe. Not because the sun has dwelt
In the books of travelers and poets. And not because...
I say: I am burdened by waiting angels; the trees are only trees, while I am looking for shade. The falling rain is not deep water. Through the skein of its pulse
Surge rivers, ships of timber and boats of papyrus. The rain does not reach me.
The rain does not moisten my lips. But the green railings there are shimmering
With watery light. And in the distance flowers and headstones quench their thirst.
No more squirrels or birds. My very pores open to the music.

She was in the balcony. The sun rose in the corner of her garden, a bower for
Grassy tones and dry, rustling leaves. The woman was neither looking nor being looked at. The woman was absent. I, alone, was collecting the fragments of her
Image, her limbs, and the memory of a kiss one day in the corner café.
What planted this green in the blue?
Music. A sun from volcanoes islands. The woman is about

moving, about taking a form. Now I glimpse a tress of straight hair, the fullness of a lower lip. Music. The balcony becomes the balcony of a house: a small table, two chairs, a bottle of wine, two glasses and some Spanish peaches. And in the corner a cactus. The woman turns. Now we are two. We shall dwell on the balcony. The sun will come to our glasses. We shall see the moment. Music.

The falling rain is falling.

We are behind the balcony's glass screen. The room is a bit cold. Her room
Was charged with the smell of paint and the aroma of the Kirghiz carpet. The wetness of the day is sticky beneath my shirt. The woman gave me the ember of her lips. Did she slip the ember under my shirt? I feel like a wanderer in a land of Hot Springs and tores. My breathing is the continuous music of strings. My fingers are the bars. My breathing is the continuous music of strings. The music throbs. I don't see any rain. A crystal light falls across the glass screen.
This falling rain is falling.
Falling...

I feel the hot rain.

Minutes.
Minutes only and I shall make with your love a narrow bed.
Music.

Translated by the author
London, September 2001

ذلك النهار الممطر

ليسَ لأنّ نهاراً ذا مطرٍ يطرقُ نافذتي مثلَ اللصّ عجيباً
ليس لأني في هذي الصحراءِ المائيّةِ. ليس لأنّ الشمسَ
أقامتْ في كتُبٍ للرحّالةِ والشعراءِ، وليس لأنّ. . .
أقولُ: أنا مضنىً بملائكةٍ ينتظرون. الأشجارُ هي الأشجارُ
ولكني أبحثُ عن ظلٍّ، والمطرُ الـمُسّاقطُ ليس مياهاً.
عبرَ خرائطَ في النبضِ، تَـمَـوَّجُ أنهارٌ وسفائنُ من لوحٍ،
وزوارقُ من بُرديٍّ. . . مطرٌ لا يبلغُني. مطرٌ لا تبتَلُّ
الشفتانِ به. تلتمعُ القضبانُ الخضرُ (سياجُ المقبرةِ البولونيّةِ)
بالنور المائيّ. وأبعدَ، أبعدَ، تشربُ أزهارٌ وشواهدُ.
لن ألمحَ سنجاباً أو طيراً. أُرهِفُ أضلاعي للموسيقـى.

كانت في الشرفةِ. والشمسُ أقامت في ركنِ حديقتِها
بيتاً لتلاوينِ العشبِ، وللورقِ اليابسِ. لم تكن المرأةُ
تنظرُ أو تنتظرُ. المرأةُ كانت غائبةً. أنا وحدي كنتُ أُلَملِمُ
صورتَها، والأعضاءَ، وذكرى القُبلةِ في زاويةِ المقهى يوماًما.
ما أنبَتَ هذا الأخضرَ في الأزرقِ؟ موسيقى.
شمسٌ من جُزُرٍ ذاتِ براكينَ. المرأةُ توشكُ أن تتحرّكَ، أن تبدو،

أن تتشكّلَ. هاأنذا ألمحُ خُصلةَ شَعرٍ سَبْطٍ. مكتنَزاً من شفةٍ سفلى. موسيقى. والشرفةُ تغدو شرفةَ بيتٍ. طاولةٌ صغرى. كرسيّانِ. زجاجةُ خمرٍ. قدحانِ. وحبّاتٌ من مشمشِ إسبانيا. في زاويةِ الشرفةِ نبتةُ صبّارٍ. تلتفتُ المرأةُ. ها نحن اثنانِ. سنسكنُ في الشرفةِ. سوف تجيء الشمسُ إلى كأسَينا. سوفَ نرى اللحظةَ. موســـيقـــى.

المطرُ الـمُسّاقطُ يَسّاقَطُ.
كنا خلف زجاجِ الشرفةِ. والغرفةُ باردةٌ شيئاًما. غرفتُها كانت تلتَزُّ برائحةِ الأصباغِ. وضَوعِ السجّادِ القرغيزيّ. كأنّ رطوبةَ هذا اليومِ التصقتْ تحت قميصي. تمنحني المرأةُ من شفتَيها الجمرةَ.
هل غلغلَتِ الجمرةَ تحت قميصي؟ أحسستُ بأني طوّافٌ في أرضٍ ذاتِ عيونٍ ساخنةٍ وتضاريسَ.
أصابعيَ القَدمانِ. وأنفاسي موسيقى وتَرٍ لا تتلاشى.
موسيقى تَصّاعَدُ أو تهبطُ. لستُ أرى مطراً.
عبرَ زجاجِ الشرفةِ كان الضوءُ شفيفاً.

لكنّ المطرَ الـمُـسّاقِطَ يَسّاقَطُ
هذا المطرُ الـمُسّاقطُ يَسّاقَطُ
يَسّاقَطُ...
أشعرُ بالمطرِ الساخنِ

بعدَ دقائقَ، حسْبُ. . . سأفعلُ حُبّكِ

مثلَ سريرٍ ضيّقْ.

. . . .

. . . .

. . . .

موسيقى.

لندن، ٠٦/٠٩/٢٠٠١

الفـنـادق

للفنادقِ

تلك التي قد أقَـمْـنـا بها

والفنادقِ تلك التي ما أقَـمْـنـــا بها. . .

سأقول: السلام!

أنحني الآنَ للغرفةِ الدافئةْ

لقماشِ الستائرِ

للقهوةِ التي وصلتْ أمسِ من شمس إفريقيـــا

للوسائدِ إذْ تُسْـنِـــدُ الإلْـيـتَـين

أنحني لارتعاشِ اليدَين

قبلَ أن نفعلَ الـحُـبَّ. . .

لن أنحني بَـعْـدُ

إنّ الفنادقَ قد رحلتْ، بَـغْـتـةً، في الضَّـباب.

لندن، ٢٧/ ٠٤/ ٢٠١١

باب اللــوق

كنّــا: أندريا وأنـــا في «باب اللوق»

كنّا نمشي كلَّ صباحٍ من باب اللوق إلى «طلعت حرب»

نجلسُ، أحياناً، في دكّانٍ للقهوةِ

أو نمضي، قُـدُمــاً، لكنّا لا نجرؤُ ثانيةً أن ندخلَ «ميدانَ التحرير»

فقد اختنقتْ أندريا ذاتَ صباحٍ

من أدخنةِ السيّاراتِ

ومن أبواق السيّاراتِ

وقالتْ: سأغادرُ مصرَ إذا كانت مصرُ تُسَـــمّى ميدانَ التحرير!

لندن، ٢٩/ ٠٤/ ٢٠١١

زفافٌ ملَكيّ

كاترين ووِلْـيَـــمُ صارا اليومَ، أخيراً، زوجَين
نحن نودِّعُ نيسانَ
(الشهرَ الأقسى مع ت.س. إليوت)
لكني مع أندِريا كان لنا، أيضاً، ما كان لنا...
قبل سنينٍ وسنين
في نيسانَ كما أتذكّرُ.
(كان زفافاً ملَكيّاً!)

....
....
....

في المرآبِ
بقبوِ الـمـبْنى
في مقعدِ سيّارتِها الخلفيّ.
كان زفافاً حرّاً
كان زفافاً حارّاً
كان زفافاً أرهفَ طَعْماً من ملَكيٍّ...
(نحن على أيةِ حالٍ جمهوريّون!)

لندن، ٢٩/٠٤/٢٠١١

البحيرة المتجمِّدة

لستُ أعلَمُ، بالضبطِ، أينَ الـبُحيرةُ تلكَ...
لقد مَرَّ قَرنٌ علينا،
وتقطّعتِ السُّـبُـلُ:
البنتُ تلك التي كنتُ أعرفُها، وأُغَنِّي اسمَها
أندرِيا
ذهبتْ دون أن تنحني لحظةً للوداع.
وهي كانت معي عند تلك البحيرةِ
هيَ مَن دلّني...
هي مَن قالَ لي إن هذي البحيرةَ قد تصِلُ القلبَ بالألْبِ.
مَن قال لي إن هذي البحيرةَ أعمقُ من فُوّهاتِ البراكينِ
في هضْبةٍ هي إثيوبيا!
الآنَ أذكرُ أني ارتعدتُ لـمرأى البحيرةِ
أني ارتجفتُ
وما كان بَرداً...
هل كنتُ أحدِسُ؟
هل كنتُ أعرفُ أنّا سنفقدُ يوماً خرائطَنا نحوَ ما يصِلُ الألبَ بالقلبِ؟

. . . .

. . . .

. . . .

تلك البحيرةُ. . .

لندن، ٢٩/ ٠٤/ ٢٠١١

مرّاكش يا أندريا!

حبيبتي التي أحببتُ دوماً
والتي عذّبتُ دوماً
والتي أسألُها الليلةَ أن تهدأَ كي نبْلغَ مرّاكشَ
أعني الرّوضَ في مرّاكشَ الحمراءِ
آنَ الزمنُ الوَرْدُ
وآنَ الليلُ ضوعٌ: ياسمينٌ وندىً. . .
حبيبتي التي أحببتُ:
ماذا حلَّ؟
هلْ هلَّ زمانٌ آخرُ؟
الساحةُ لَمّا تزل الساحةَ
والمقهى الذي نعرفُه لم يزل المقهـــى
وخبز الفجرِ والزيتون والجبنةُ
برنار نُوَيل
إيزابَلاّ. . .
وأزهارُ النباتاتِ التي لا نعرفُ. . .
الليلةَ

أندِريا
أُصَلّي كي أرى ما كان في مرّاكشَ الحمراءِ
يبدو مترَعاً في شفتيك!

لندن، ٠١/ ٠٥/ ٢٠١١

هذا الأوّل من أيّار

لم أشعرْ، أبداً، أني ناءٍ
ووحيدٌ
مثل شعوري في هذا الأوّل من أيّار...
ما حدّثَني أحدٌ
وأنا، لم أتحدّثْ، حتى في السِّـرِّ، إلى أحدٍ.
والعمّالُ احتفلوا في الباراتِ
وأُغلِقَت الساحةُ
لا أعلامَ
ولا أحلامَ...
وأندِرْيا تركت لندنَ كي تسكنَ روما، شهراً
....
....
....
حسناً يا ولدي!
نَمْ
وانتظرِ الأوّلَ من أيّارَ يُلَوِّحُ في أحلامِكَ
بالرايات الـحُمْــرِ
وبالقبَضات...

لندن، ٢٠١١/٠٥/٠٢

قصــائد فارمـونـد
The Warmond Poems

كُتِبَت النصوص الثلاثون الأولى، بين الثالث من أيّار (مايو) ٢٠١١ والثاني عشر منه، في قرية فارموند الهولندية من أرباض لايدِن.
القصائد ممسوسةٌ.
بمعنى أنها كُـتبَتْ تحت وطأة حُمّى شديدةٍ أصابتني في الفترة هذه.
لـم أحاولْ إعادةَ نظرٍ أو مراجعةَ كتابةٍ، وتركتُ النصوصَ عاريةً.
لكنها ليست مسوّداتٍ.
إنها التجربةُ على أيّ حالٍ.
تجربة الكتابة المتواترة، المتوتِّرة، في ظروفٍ غيرِ مساعِدةٍ.
القصائد الإثنتا عشرة المتبقّية، قد تكون ذاتَ ارتخاءٍما.
(قصائد فارموند) تُشكّـلُ متناً أساساً في ديوان (صورة أندريا)
Andrea's Profile

*

أكثر من سماءٍ واحدةٍ

الآن، صرتُ أقتنعُ، بأننا، أنتِ وأنا، يا أندريا
لسنا تحت سماءٍ واحدةٍ. لِمَ أقولُ هذا بعدَ الأعوامِ
كلِّها؟ بعدَ أنْ لم يَعُدْ لدينا ما يلسعُ في جسدِ الآخرِ
وارتعاشةِ الهـُـدْبِ؟ هل اللغةُ سياجٌ؟ واللونُ؟
أعني البشَرةَ والعينين ورايةَ الشَّعرِ؟ الأتراك الذين كادوا
يقتحمون بوّابةَ فِـيَيـنّا؟ أم تظنينه الصيفَ؟ الصيفَ
بهوائهِ الخفيفِ ونبيذِه الأبيض؟ دعي الستائرَ مُسْدلةً.
مَن قال إن الصراحةَ فضيلةٌ؟ ألم يكُنْ خيراً لكِ لو تجاهلتِ
المرأةَ الأخرى؟ ألم يكُنْ خيراً لي (ثم لنا نحن الإثنين)
أن أتجاهلَ الرجُلَ الآخرَ؟ هل سيختلفُ العالَمُ؟
أعني هل ستَغرُبُ الشمسُ من الشرقِ؟ شجرةُ التينِ
في حديقتِكِ المنزليّةِ لا تزالُ تُثمرُ تيناً أخضرَ مُرّاً.
والزيتونةُ التي زرعتِها أنتِ بيدَيكِ القويّتَينِ، في حديقتي
المنزليةِ بهَيرفيلد، لن تثمرَ أبداً. لكني أنتظرُ. على المرءِ
أن ينتظرَ الشجرةَ. الشجرةُ، وحدَها، تعرفُ مواعيدَها.

فارموند، ٠٣/ ٠٥/ ٢٠١١

في نيويورك

هل نحنُ في تفّاحةِ نيويورك؟
ماذا لوتناوحت الرياحُ، وأقفرتْ ليلاً مقاهي الجازِ؟
هل سـنُـعِـــدُّ مائدةً لشخصَينِ؟
وهل سنعودُ من ذاكَ الدُّوارِ بمتحفِ الفنّ الحديثِ؟
أكان بيكاسو يناقِشُ مَن تكونينَ:
الفضاءَ الحُرَّ
والموديل
والعنقاءَ. . .
أمْ في كنائسِ هارلِم. . . المأوى؟
وآخِرُ خلْـجـةٍ للجازِ؟
والتْ وِيتمان يعْبرُ، قبلَنا، الجسرَ الصديءَ
ونحن منتظِرانِ
في مقهىً بلا جازٍ
ولا أزهارِ مائدةٍ لشخصَينِ
. . . .
. . . .
. . . .
الرياحُ تناوَحَتْ.

فارموند، ٢٠١١/٠٥/٠٤

الخيمة النمساويّـة

خيمتُكِ النمساويّةُ
قد نُصِبَتْ منذ ثلاثةِ أيّامٍ
في أرضِ الصوماليّينَ
بلندنَ،
لكنْ منذُ ثلاثةِ أيّامٍ
وثلاثِ ليالٍ أيضاً
لم يدخلْ في الخيمةِ طفلٌ صوماليٌّ!
كان هنالك موسيقى
مسرحُ سحرٍ وعرائسَ
رقصٌ هنديٌّ للمطرِ. . .
لكنْ
منذُ ثلاثةِ أيّامٍ
وثلاثِ ليالٍ
لم يدخلْ طفلٌ صوماليٌّ
خيمتَكِ النمساويّةَ
خيمةَ تلكَ الساحرةِ النصرانيّةِ
خاطفةِ الأطفالِ الصوماليّين إلى الجنّةِ،
جَـنّـتِـــها!

فارموند، ٠٥/ ٠٥/ ٢٠١١

نانتاكِيتْ Nantucket

كيف كان العبورُ إلى نانتاكِيتْ؟

ربما كانَ رأدَ الضحى

غيرَ أني أظلُّ أراه. . . غريباً وملتبِساً

لا زمانَ لـهُ،

هل عبرْنا على غيمةٍ من ضَبابٍ وأبخرةٍ؟

والجزيرةُ؟

مرعىً لحيتانِ هِرمان مَلفيل. . .

مقهى

ومقهى

ومقهى

وليس سوى موبي دِكْ

كأنّ الزمانَ توقَّفْ. . .

كأنْ لا إله سوى موبي دِكْ.

. . . .

. . . .

. . . .

أتذكّرُ جلستَكِ: البارَ... كأسَ النبيذِ
قلنسوةَ البحرِ،
عينَيكِ
شاخصتَينِ إلى جُزرٍ هي أبعَدُ من نانتاكيت!

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

المرسَم الأوّل

يبدأُ المرسمُ حيثُ تنتهي السلالِــمُ. لن يأتي أحدٌ هنا
غيركِ، وغير رسّامَينِ: أحدهما محترِفٌ، والآخرُ مِسكين.
موظّفو المبنى البلديّ والباحثون عن عملٍ لن يرتقوا هذه
السلالِـمَ التي تكادُ لا تنتهي. كأنّكِ في غرفةِ خادمـةٍ
في السماء السابعةِ لباريس. لم نتحدّثْ من قبلُ. كنتِ ترسُمين.
مغرمةً بالمثلّثِ، كما أنتِ الآنَ. مغرمةً بالدلتا. كنتِ ترسُمين
الدلتا ربما للمـرّةِ الألفِ. زجاجةُ نبيذٍ أبيضَ أسفل حاملِ
اللوحةِ. وحبّاتُ عنبٍ. الظهيرةُ اللندنيّةُ كانت واضحةً ذلكَ
اليومَ. قلتُ لكِ: دلتا فينوس. سألـتُكِ: أقرأتِ «دلتا فينوس»
لأنابيس نين؟نظرتِ إليّ نظرةً طويلةً. ابتسمتِ في داخلِكِ.
كانت شفتاكِ الدقيقتانِ شِبْهَ مزمومتَينِ. ملأتِ الكأسَ حتـى
نِصْفِها بالنبيذ الأبيض. لم يكُنْ فرنسيّاً. قدّمتِ لي ثلاثَ حبّاتِ
عنبٍ. قلتِ: قرأتُ أنابيس نين. لم أسألْ بأيّ لغةٍ؟ هل
تفَضِّلينَ الألمانيّةَ بلهجةِ الجنوبِ الألمانيّ؟ أنتِ من لِينتس.
LINZ
لم أفارقْكِ تلكَ الظهيرةَ. لا أتذكّرُ الآنَ إلى أيّ مكانٍ انتهَينا.

إلى بار «الأسد الأحمر» في هانوَيل؟
غرفتِكِ المحتشدةِ في نورثهولت.
أم إلى اللامكان؟

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

في قريةٍ هولنديّةٍ

أريدُ أن أراكِ الآنَ
أندريا...
صباحٌ باردٌ في قريةِ فارموند
Warmond
بالقُربِ من لايدِن...
والأشجارُ لا ترتعشُ
الشارعُ لا يرتعشُ...
الطيرُ
زجاجُ البابِ
حتى الجسرُ
لا يرتعشُ...
اليومَ، الضحى عالٍ، ربيعيٌّ
ولكنّ النهارَ الجهْمَ لا يرتعشُ...
القضبانُ قد أطبَقَت
البابُ الحديدُ امتدَّ حتى أُغلِقَ العالَمُ،
أندريا...
أريدُ أن أراكِ الآن!

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

يوم التحرير

في حديقة المنزلِ شبهِ المهملة
الحديقةِ التي لا يجلسُ فيها أحدٌ
الحديقةِ التي لا يُجالسُني فيها أحدٌ
الحديقةِ ذاتِ الأصُصِ شبهِ الميّتةِ
أفكِّرُ فيكِ
وأنا أسمعُ للمرّةِ الأولى أصواتَ بَشَـــرٍ
تَبْلغُني
هنا
في هذا المكان
في هذه القرية الهولندية
إنه «يومُ التحريرِ»
. . . .
. . . .
. . . .
هذا النهارَ أحتفلُ
وأنا في الحديقةِ المهجورةِ
أحتفلُ:
لقد سمعتُ أصواتَ بشَـــرٍ!

فارموند، ٠٥/ ٠٥/ ٢٠١١

في الغـابة

تلك الغابةُ

التي بلغناها بعدَ القائلةِ العسلِ

في منزل البحيرةِ

حيثُ ما زالت دِنانُ التكيلا نصفَ ملأى

من عرسِ العامِ الفائتِ

لفتى الفتيانِ (ابنِ عمِّكِ)

تلك الغابةُ

كادت تشهدُ عُرِيَنا

. . . .

. . . .

. . . .

الآن

في زاويةٍ مهملةٍ من حديقتي بهيرفيلد

يبزُغُ كلَّ ربيعٍ، نبْتٌ متسلِّقٌ

أتيتُ ببذورِهِ من تلك الغابةِ.

أسألُكِ الآنَ:

هل نتعلّمُ من النبتِ المتسلِّقِ

كيفَ نعودُ؟
كيف نعودُ في الربيعِ؟
في هذا الربيعِ مثلاً. . .

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

تحوّلاتُ أندريا

من التشخيص إلى اللاتشخيص
من الملموس إلى المجرَّد
من التجريديّ إلى التزيينيّ
من الرسم إلى اللارســــم
من نجمة الصباح إلى نجمة
من امرأةٍ إلى مفهومِ امرأة
. . . .
. . . .
. . . .
لكني أحبُّها
ماذا أفعلُ الآنَ؟

فارموند، ٠٥/ ٠٥/ ٢٠١١

السـفينةُ تدخـلُ في حائطٍ

الأشجارُ التي لم تَعُدْ غريبةً
هذه الأشجارُ التي لاأعرفُ أسماءَها
مطمئنّةٌ، هذا المساءَ، إلى طيورِها الآيبةِ
مطمئنةٌ، إلى أنّ مصباحاً وحيداً سيبدِّدُ عتمةَ الليلِ
مطمئنةٌ إلى أنني أتبعُها مثلَ عاشقٍ. . .
لكنْ، يا صديقتي التي لم تَعُدْ ترسُمُ سفينةً
تدخلُ في حائطٍ. . .
كيف لي أن أراكِ مطمئنةً؟
كيف لي أن أطمئنَّ إليكِ؟
كيف لي أن أطمئنَّ عليكِ؟
في الهواءِ الفاسدِ
الهواءِ الذي ظلَّ ينأى بالسفينةِ عن الحائط؟

فارموند، ٠٥/ ٠٥/ ٢٠١١

السُّـــلَّـم

عليكَ أن تدفعَ الأخشابَ ناحيةً
وبَعدها، عُلبَ الألوانِ، والورقا
عليكَ أن تتحرّى أنّ ما علِقا
بثوبِكَ القطنِ ليسَ الزيتَ. . .
رُبّتَمـــا
أفلحتَ في أن ترى، كالبرقِ، سُلَّمَها
لترتقيهِ
فتلقى الغصنَ والأُفُقـــا. . .
هناكَ
عند سريرٍ ضيّقٍ
سترى، في بغتةٍ، سِـــرَّ أندريا
وقد نطـقــا!
كأنّ متنَ الفراشِ، البحرُ
قد نهدَتْ أمواجُهُ
لتكونَ العِطرَ والعرَقــا. . .

فارموند، ٠٥/ ٠٥/ ٢٠١١

في منزل محمد بنّيس بالمحمديّة

نؤومَي ضُحىً كنّا
إذا ارتفعَ الضحى دخلْنا إلى البستانِ؛
غرفتُنا
تُطِـلُّ رأساً على البستانِ
ثمّتَ موزةٌ
ودوحةُ ليمونٍ
ووردٌ
ومنهلٌ
وأغصانُ زُلَّـيجٍ،
كأنّ سريرَنا
سيدخلُ في البستانِ. . .
أهلاً
ومرحبا!

فارموند، ٠٦/ ٠٥/ ٢٠١١

Ground Zero

تتذكّرين كيف هبطْنا
من منزل سامية حلبي
حيث الأتيلييه، الذي تسكنُه غيومٌ سودٌ
ثابتةٌ، تتشكّلُ نساءً فلسطينيّاتٍ؛
من هناك
سنواصلُ السيرَ
إلى مانهاتِن السّفلى...
مبنى الرزَم البريدية مستقرٌّ ثقيلاً
مثل سفينة ركّابٍ محيطيّةٍ أخطأتْ
مرساها البحريّ...
سنقرأ على لوحةٍ كابيةٍ:
Ground Zero
المكان مسوّرٌ
وعمّالٌ خفيّون ما زالوا يرفعون ما بقي من أنقاضٍ...
تقولين: الأفضلُ ألاّ نتكلّمَ هنا.
وتزيدين: الأفضلُ أن نغادرَ.

. . . .

. . . .

. . . .

ذلكَ النهارَ

أحسستُ بوطأةِ نيويورك!

فارموند، ٠٦/ ٠٥/ ٢٠١١

تطمينٌ

أيتها النفسُ المطمئنّةُ
تباركتِ!
النهار رائقٌ
والربيع يكثِّفُ ألوانه.
زجاجةُ نبيذٍ توسكانيّ أحمرَ على الطاولة الصغيرةِ
والخبزُ
والجبنُ
ولَسوف أتمشّى حتى أبلغَ
ساحةَ القريةِ الهولنديّةِ الصغيرةِ.
أيتها النفسُ المطمئنةُ
تباركتِ!
وليظلَّ النهارُ رائقاً
فقد تنكسرُ كوابيسُ الليلِ:

نهاري نهارُ الناسِ
حتى إذا دجا بيَ الليلُ
هزّتْني إليكِ المضاجعُ!

فارموند، ٠٦/ ٠٥/ ٢٠١١

أنتظرُ حزيران

كأس نبيذٍ توسكانيّ
في حديقةِ منزلٍ، هولنديّةٍ، مهجورةٍ.
الإشكالُ هنا
أنك تعرفُ توسكانيا
وأنك تعرف كيف تطلبُ، وباللغةِ الإيطاليةِ
في أيِّ مقهىً أو مَشربٍ:
Toscana Firma!
أي كيف تطلبُ كأسَ نبيذٍ أحمرَ توسكانيّ
غيرِ غازيّ.
....
....
....
أنت تحبُّ الأشياءَ أصيلةً
في الشِّعرِ
كما في النبيذ.
لا إضافةَ
لا فضْلةَ

لا فقاقعَ. . .
لكنّ ما تريدُهُ لن تبلغَه. . .
وكما قالت أندريا:
علينا أن ننتظرَ حزيران!

فارموند، ٢٠١١/٠٥/٠٦

الأرَقُ

لم أنَم البارحةَ
جفنايَ لا ينطبقانِ حتى لو أرغمتُهُما
حتى لو ضغطتُهما بيدي.
أصابعي النحيلةُ ترتجفُ
وأنفاسي تتلاهثُ وتتلاشـــى،
لا أتقلّبُ
لأنني أوهَـنُ من أن أتقلّبَ...
الصباحُ في نهاية العالَم
وأنا منتظِرٌ النهايةَ.
....
....
....
أعرفُ جيّداً
أنكِ ستهدهدينني
بأنفاسِكِ
إنْ كنتِ نائمةً في الغرفةِ التي تحملُ رسوماتِكِ
أي في غرفتي.
هل لي أن أتذكّـــرَ؟

فارموند، ٢٠١١/٠٥/٠٧

ســاحةُ جورج أورويل

في برشلونة
في ساحة جورج أورويل الصغيرةِ
سوف ترتفعُ
بدلاً من راية الأحمر والأسوَد الفوضويّةِ
رايةٌ تقول:
عاشت كاتالونيا!
Viva Catalonia!
أين نذهبُ إذاً؟
العالَمُ ضيّقٌ كعنقِ زجاجةٍ.
. . . .
. . . .
. . . .
لنذهبْ، إذاً إلى البحرِ
إلى برشلونةَ الأولى
حيثُ ساريةُ كريستوفر كولـمـبُس
أعلى من الملكة إيزابيلا.
أفكِّرُ:
هل ستقبلين؟

فارموند، ٢٠١١/٠٥/٠٧

أغنيــةٌ للمَشــي

على امتدادِ القناهْ
يا ما مشَينا معا. . .
يا ما رأينا المياهْ
تكادُ أن تلمعا.
هل ستكونُ الحياهْ
مَرْكبَنا الـمُشْـرَعا؟
نمضي إلى مُـنـتـهاه
ونبلغُ الأروَعا
آنض تُغَنّي الشفاه
عينينِ لن تدمعا
. . . .
. . . .
. . . .
على امتدادِ القناهْ
ونحنُ لسنا معا!

فارموند، ٠٧/ ٠٥/ ٢٠١١

التـــاج

أفكِّرُ:
لو رأيتُكِ بعدَ خمسٍ من السنواتِ
كيفَ سألتقيكِ؟
أضُمُّكِ؟
أم أشمُّكِ
أم أنادي:
المليكةُ أنتِ!
تاجُكِ من مَحارٍ
ومن غارٍ
ومن شَـذْرٍ سـبيكِ
. . . .
. . . .
. . . .
كأني، دونَ عِلْمِكِ، أصطفيكِ!

فارموند، ٠٧/ ٠٥/ ٢٠١١

سـؤالٌ أسـاسٌ

لماذا أكتبُ إليكِ؟
أنتِ لا تعرفين لغتي
وقد تكرهينها
(وإنْ كانت لغةَ أهلِ الجنّةِ)
هي لغةُ برابرةٍ كادوا يفتحون باريس
ثم فِـيَـينّا. . .
هي لغةُ قراصنةٍ روّعوا ساحلَ أوربا الجنوبيّ
هي لغةُ الكتابِ الآخرِ
هي لغةُ نبيٍّ يكرهه دانتي
وهي الآن
لغةُ المستعبَـدِ الذي يريدُ الاستعبادَ
وقد يرفضُهُ أحياناً.
إذاً. . .
لِمَ أكتبُ إليكِ؟
ألأنني لم أجدْ مَن أُكاتـبُـهُ؟

فارموند، ٠٧،٠٥/ ٢٠١١

طـائرةٌ إلى رومـا

هاأنذا في الأحدِ الأوّلِ
في فارموند
Warmond
شمسُ ربيعٍ فاترةٌ تدخلُ عبرَ ستارِ الغرفةِ
طيرٌ مائيٌّ
اسمعُهُ. . .
أسمَعُ صيحتَه كالطاووسِ؛
هنا، تُنصتُ للطيرِ. . .
فأنصِتْ!
لن تسمعَ صوتاً من إنسانٍ
لن تسمعَ حتى صوتَكَ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
في هذا الأحدِ الأوّلِ
فكّرتُ بأن آخذَ طائرةً
وأطيرَ إلى روما
حيثُ تكونين الآن. . .

فارموند، ٠٨/٠٥/٢٠١١

مَرْكبـةُ فضـاءٍ

سوسنُ كانت معنا في النادي اليونانيّ
ونبيذٌ أبيضُ
(مصريٌّ أيضاً)
كنتِ نبيذاً أبيضَ نمساويّاً،
نصفَ متعتعـةٍ بنبيذٍ أبيضَ مصريٍّ،
كان النادي اليونانيّ يدورُ بنا،
سوسنُ، دامعة العينينِ، تعانقُكِ.
. . . .
. . . .
. . . .
النادي اليونانيّ
يطيرُ كـمَـرْكَـبـةٍ
سوف نراها
فجراً
تهبطُ في «باب اللوق»!

فارموند، ٠٨/ ٠٥/ ٢٠١١

أكـورديون

تأخذين الأكورديون، أكورديون المحترفين
وتدخلين المقبرةَ البولونيّةَ
في ساوث إيلنغ
South Ealing
تجلسين على مصطبةٍ
قربَ شاهدِ قبرٍ. . .
وتؤدِّينَ على الأكورديون
موسيقى مرِحةً
من فِـيَيـنّـا الإمبراطورية.
أجلسُ إلى جانبكِ:
الموسيقى للنائمين طويلاً بلا أحلامٍ،
أمّـا أنا
فأُتابعُ أناملَكِ
وجهَكِ
ونَهدَيكِ الصغيرَين. . .

فارموند، ٠٨/ ٠٥/ ٢٠١١

البُرْكةُ ذاتُ السلاحفِ

نتركُ فطورَ الصباحِ
في الدارةِ الفرنسيّةِ التي ترجمتْ سيّدةٌ فرنسيّةٌ فيها
القرآنَ، قبلَ قَرنٍ ما،
ونذهبُ إلى السوقِ العربيّ
عناك
سنُفطِرُ مع العمّالِ المغاربةِ
والطيورِ المبكِّرةِ
حريرةً في طاساتِ فخّارٍ غيرِ مزوَّقٍ
وخبزاً خشناً طازجاً.
في الساعة السابعة صباحاً
تكونُ قِدْرَةُ الحريرةِ فارغةً. . .
آنذاكَ
نعودُ إلى الدارةِ
ونُفْطِرُ
مع برنار نُوَيل
وإيزابيلاّ. . .

عند البرْكةِ ذاتِ السلاحفِ.

. . . .

. . . .

. . . .

كأني أتحدثُ عن قَرنٍ سالفٍ!

فارموند، ٠٨/ ٠٥/ ٢٠١١

مـعارِك

أنا، حنّا السكران
أغنِّي لكِ في محطة مترو دالستان:
Oh lady
With tiny breasts!
كنّا خرجنا للتوّ، من المطعم التركيّ
عرَقٌ حقيقيٌّ من اسطنبول
وكبابٌ
باذنجانٌ متبِّلٌ
وجبنٌ أبيضُ غارقٌ في زيت الزيتونِ والزعتر.
المطعمُ يملكُهُ يساريّون أكرادٌ من تركيا...
ذلكَ اليوم
كان الفريقُ التركيُّ لكرةِ القدم
يخوضُ معركتَه في كأسِ العالَمِ...
بينما هنا
على أرضٍ بريطانيّةٍ
يخوضُ اليساريّون الأكرادُ
معركتَهم مع الأتراك!

فارموند، ٠٨/ ٠٥/ ٢٠١١

مقصوصةُ الشَّعرِ، غلاميّةٌ

شَعرُكِ الطويلُ
الذي طال ما مسّدتُهُ
ونحن في وضعٍ أُفُقيّ: في غابةٍ أو غرفةِ فندقٍ
شَعرُكِ الطويلُ
الذهَبُ
اصفرَ
وأبيضَ. . .
كيفَ قصَصْـتِـهِ؟
كيفَ صرتِ غلاميّةً، في فُجاءةِ المستحيلِ؟
لم أسألْ
لكنَّ شَعركِ الطويلَ
الذهبَ، أصفرَ، وأبيضَ
هو لي أيضاً. . .
لي أيضاً أن أُمَـسِّـدَهُ
حتى وأنتِ مقصوصةُ الشَّعرِ
غلاميّةٌ. . .
هكذا
احتفظُ بكِ كاملةً، متكاملةً. . .

فارموند، ٠٨/ ٠٥/ ٢٠١١

سؤالٌ بسيطٌ

ليس لي ما أُحِبُّ بهذي البلاد
لا الحدائقُ
لا الغيمُ
لا الشمسُ فاترةً
لا الطعام. . .
ليس لي مَنْ أُحِبُّ بهذي البلاد
لا تفاصيلَ. . .
فلأقُل الآنَ:
كيف انتهيتُ إلى أن أكونَ هنا؟
هل لأنكِ غادرتِ في أوّلِ الشهرِ
تلكَ الجزيرةَ؟
غادرتُها بعدَ يومٍ.
. . . .
. . . .
. . . .
تُرى. . . هل نكونُ معاً
في البلادِ التي لا تُشابِهُ هذي البلاد؟

فارموند، ١٠/٠٥/٢٠١١

الـزنزانـةُ

لم أنَـمْ منذُ سبعٍ هنا. . .
أنا ميْتٌ من السُّهْدِ؛
ميْتٌ من البردِ
حولي هواءٌ ثقيلٌ كأني بزنزانةٍ أسفلَ الأرضِ
ألهَثُ
لا أتنفّسُ.
هذا الهواءُ الثقيلُ سيقتلُني
امتلأتْ رئتايَ من القيحِ
وامتلأتْ مقلتايَ من الـقُبْحِ
قريةُ فارموند هامدةٌ
ليلَها والنهارَ. . .
الطيورُ تموءُ، بها، كالقطط. . .

فارموند، ١١/ ٠٥/ ٢٠١١

ثوبٌ على الدانوب

أتظلُّ تكتبُ عن حديقتِها التي أسمَيتَها سِــرِّيَّةً؟
عن منبِتِ الأعشابِ،
والأزهارِ
عن تفصيلةِ الدلتا؟
ولكنّ الحديقةَ، منذُ خمسٍ، سُــوِّرَتْ
فظللتَ كالمحرومِ
أو أشقى من المحرومِ؛
أنت الآنَ، حتى اللحظةِ العمياءِ، تحلمُ بالشميمِ
بأنْ تُمَــسِّدَ عشبةً
وتَمَسَّ أزهاراً
وتلمُسَ، مرهفاً، تفصيلةَ الدلتا. . .
إذاً
حاوِلْ
وحاوِلْ
ربّما بلَغَتْ أغانيكَ الرهيفةُ ثوبَ أندريا
على الدانوبِ
أوتعريشةِ الأعنابِ (غرفتِنا التي بِتْنا بها)

حاولْ

وحاوِلْ

ربما بلغتْ أغانيكَ الحديقةَ

واختفى في لمحةٍ كالبرقِ

ذاكَ الســـور. . .

فارموند، ١١/٠٥/٢٠١١

المتـفـائـلُ

تَـطْـلُـعُ الشمسُ فاترةً
بعد ليلٍ طويلٍ ثقيلٍ. . .
طيورٌ تموءُ
ضفادعُ من قنَواتٍ تلاصِقُ بيتَ المعيشةِ
(حيثُ أنامُ على الأرضِ)
كانتْ تنِـقُّ
تنِـقُّ
وظلّتْ تنِقُّ إلى مطلعِ الفجرِ
. . . .
. . . .
. . . .
ديكٌ يصيحُ
أباركُـهُ
وأقولُ: انتهتْ ليلةٌ.
صاحَ ديكٌ
وها هي ذي الشمسُ!
. . . .

. . . .

. . . .

يا صاحبي
أيظلُّ التفاؤلُ أفيونَكَ؟
الليلُ أثخنُ من أن يزولَ!
تَـحَـسَّـسْ قميصَكَ. . .
أنصِتْ إلى ما يقول.

فارموند، ١٢/ ٠٥/ ٢٠١١

مثلّثٌ على الأطلس

أتظنُّ البلادَ التي قد وُلِدتَ بها

هي نفسُ البلاد؟

ربّما. . .

حين تقرأُ، منسرحاً، أطلسَ العالَمِ:

الرسمَ شِبْهَ المثلّث،

ذاكَ الـمَـعِـيْنَ المحايدَ عند السعوديّةِ. . .

الرسمُ تعرفهُ

منذُ أن كنتَ في صفِّكَ الإبتدائيّ،

حاولتَ أن تتقرّى الخريطةَ

ترسُمَها. . .

وإلى هذه اللحظةِ، الرسمُ باقٍ

ليطْلُعَ من بينِ ذاكرةٍ للأصابعِ. . .

أنتَ

سترسُمُ ذاكَ العراقَ المغادِرَ في لحظةٍ

سوف ترسمُهُ. . .

الآنَ أسألُ:

لكنْ، لماذا؟

أنتَ من أربعينَ خلَتْ
لم تَعُدْ تتنفّسُ ذاكَ الهواءَ الملوَّثَ بالذلِّ
ذاك الهواءَ الثقيلَ:
الرطوبةَ، والنفطَ، واللائذينَ بما لا يُلاذُ بهِ. . .
الحشراتِ، وأضرحةَ السائرين إلى حتفِهم
واليورانيوم. . .
من أربعين خلَتْ لم تعُدْ تتقصّى
خياناتِ ساستِهِ
ومثالبَهم
والفضائحَ. . .
تلكَ السجونَ التي قيلَ: سرّيّـةٌ
والمعاركَ خاسرةً. . .
أنتَ
من أربعين خلَتْ لم تحبَّ هناك امرأةْ
و لا امرأةٌ من هناكَ أحبَّـتْـكَ. . .
من أربعين خلَتْ
أنت تسكنُ نفسَكَ.
. . . .
. . . .
أيُّ البلادِ أحَبُّ إلى النفسِ؟
أيُّ البلادِ الحقيقةُ؟

نفسُكَ؟

أمْ رسمُ خارطةٍ كنتَ تتقنُهُ في الطفولةِ؟

. . . .

. . . .

. . . .

هَـوِّنْ عليك!

فارموند، ١٣/ ٠٥/ ٢٠١١

محاولةُ تعويضٍ

هو، بالضبطِ، منتصفُ الشهرِ

مايو. . .

وأمسِ ذهبتَ إلى مخزنِ القريةِ

ابتعتَ خبزاً وجبناً وقنّينتَينِ من الخمرِ

خمرِ فرنسا الجنوبِ

الجنوبِ الذي كان يوماً به عرسُكَ. . .

الآنَ

هل تذكرُ الصيفَ؟

صيفَ البحيرةِ؟

إذّاكَ، كانت فتاتُكَ تبْلغُ أقصى البحيرةِ سابحةً. . .

أنتَ ناديتَها قلِقاً:

أ. . . ن. . . د. . . ر. . . ي. . . ا!

وهاهي ذي

يَقْطرُ الماءُ والشّهْدُ منها،

و هاهي ذي

تتقطّرُ بين ذراعَيك ماءً وشُهداً

وها هي ذي. . .

. . . .

. . . .

. . . .

ولكنك الآنَ في القريةِ.
الصيفُ يرحلُ حتى ولو نحن في شهرِ مايو
شآبيبُ من مطرٍ
ورياحٌ على الجسرِ باردةٌ
أنت تحملُ قنّينتَينِ من الخمرِ
خمرِ فرنسا الجنوب...

فارموند، ١٦/ ٠٥/ ٢٠١١

محاولةٌ أخرى في التعويض

هكذا حالُكَ الآنَ يا صاحبي:
حينَ يُرْعِدُكَ البردُ
تندَسُّ تحتَ اللحافِ، وتُحْكِمُ تثبيتَهُ حولكَ. . .
الأمرُ قد كان مختلفاً
لقُلْ قبلَ عامَينِ أو أكثرَ.
البردُ كان النعيمَ
وبوّابةً نحوَ ما يجعلُ العيشَ أشهى.
لقد كنتَ تنْدَسُّ في البردِ
لِصْقَ التي لم تحِبَّ سواها امرأةْ
وهي كانتى تُمَسِّدُ حتى عروقَكَ
كانت تعلِّمُكَ الحُبَّ
كانت تغمغمُ باسمِكَ
كانت تؤجِّجُ ما أرعدَ البردُ. . .
كانت تضيء!
. . . .
. . . .
. . . .

قد اختلَفَ الأمرُ:
لا تبتئسْ!
سوف تأتي سواها
فلا تُحْكِـمَـنَّ اللحاف!

فارموند، ١٦/ ٠٥/ ٢٠١١

في القرية المنسيّـــة

في قرىً مثل هذهِ
يهبطُ الليلُ سريعاً، ويستقرُّ طويلا
ربما لم يكُنْ كذلكَ
لكنّ ظلامي في غرفتي يستطيلُ. . .
الليلُ أعمى
وسوف أدخلُ، عمْداً، في العمى
والعماءِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
يا مَن أراها
من شقوقِ الستارةِ:
الوقتُ ما عاد انتظاراً،
فأينَ كفّاكِ؟
أين اللفتةُ اللُّغْزُ؟
أينَ
أينَ

الفضاءُ؟

ليس من منتهىً هنا،

لا ابتداءُ. . .

فارموند، ١٧/ ٠٥/ ٢٠١١

السجن

شجرٌ مترَفٌ،
دروبٌ بها العشبُ طويلٌ.
تبدو السماءُ لنا بيضاءَ
بردٌ.
غيثٌ خفيفٌ، ونورٌ باهتٌ.
هذا طريقٌ في القريةِ
امتدَّ حتى لامَسَ الرملَ في البحيرةِ؛
لا طفلَ
ولا كلبَ
لا مسافرَ. . .
أين الناسُ؟
هل فرّوا جميعاً؟
لكنّ بوّابةَ سجني قد أُوصِدَتْ بالحديدِ. . .
عجباً!
هل أكونُ، وحدي، سجينَ القريةِ؟
العشبُ في الممرّاتِ نَضْرٌ
لامعٌ، والسماءُ فيها حريرُ. . .

فارموند، ١٧/ ٠٥/ ٢٠١١

طـيـورُ الـموت

. . . وأيَّ الطيرِ أسمعُ في نهاري وليلي

يا سهامُ؟

تقولُ:

«هذي طيورُ الماءِ

في القنواتِ تمضي

وفي تلك البحيرةِ».

يا سهامُ:

الطيورُ الريشُ ليسَ لها عُواءٌ

و لا رجْعٌ

ولا صوتٌ مديدٌ. . .

كأنّ أنينَ سِـنَّورٍ جريحٍ

بأقصى الغابةِ، استرْوحْتُ ُ صبحاً، مساءً،

وفي حلُمي. . .

كأنَّ الموتَ ذئبٌ يرفرفُ

يُطْلِقُ الصرخاتِ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

أيُّ الطيورِ الذئبُ،

ينهشُني

ويمضي

مع القنَواتِ والماءِ الغريبِ!

فارموند، ١٨/ ٠٥/ ٢٠١١

المنزل الأوّل

أمضَيتُ في فارموند ما يكفي:
الأسابيعُ الثلاثةُ كانت الـمِحَنَ الثلاثَ،
وكان ممّا لايُصَدَّقُ أنْ نجَوتُ. . .
غداً تعودُ إلى بلادِكَ:
لندنَ الكبرى
وشاطـئِـكَ البريطانيّ. . .
قد خلّفتَ هولندا التي لا طَعْمَ فيها غير برْدِ الصيفِ
والسمَك الذي أكلوه نَـيْـئـاً عند مقهى السوقِ،
فاحمَدْ ربَّكَ الرحمنَ:
إنكَ قد نجَوتَ!

. . . .

. . . .

. . . .

غداً ستفتحُ بابَ بيتِكَ
سوف تجلسُ في الحديقةِ
هادئاً، تلتذُّ بالويسكي، ظهيرةَ كلِّ يومٍ. . .

أنت تنتظرُ التي تأتي
وحتماً سوف تأتي،
آنَـها، ستكونُ في شجرِ الحديقةِ خضرةٌ أخرى
وسوف يكونُ نحلٌ عند كأسِكَ،
سوف تبتديءُ الأغاني. . .

فارموند، ١٩/ ٠٥/ ٢٠١١

نصـائـح

حين تفقدُ مفتاحَ بيتِكَ في البحرِ
لا ترتبِكْ!
حين ينفَضُّ عنكَ رفاقُكَ في أوّلِ الدربِ أو آخرِ الدربِ
لا ترتبكْ!
حين تنسى اسمَ أُمِّكَ في الحـُلمِ
لا ترتبكْ!
إنْ صبَوتَ إلى امرأةٍ وهي لم تَصْبُ
لا ترتبكْ!
إنْ رأيتَ القطارَ يفوتُكَ عبرَ المحطّاتِ
لا ترتبِكْ!
إنْ رأيتَ الذي هو أبيضُ أسودَ
لا ترتبكْ!
وإنْ صفعَتْكَ العشيقةُ مترَعةً بنبيذِكَ
لا ترتبكْ!
إنْ رأيتَ السماءَ تضيقُ كما ضاقت الأرضُ
لا ترتبكْ!
حينَ تعرفُ أن الثيابَ التي ترتدي هي أثوابُ غيرِكَ

لا ترتبكْ!
إنْ توهَّمْتَ نخلَ السماوةِ نخلَ السماواتِ
لا ترتبكْ!

. . . .

. . . .

. . . .

لك أن ترتبكْ
حينَ يأخذُكَ الشِّـعرُ
أخْذاً
إلى موجِهِ الـمُشتبِكْ!

فارموند، ٢٠/ ٠٥/ ٢٠١١

الـربّـةُ البيضـاءُ

هذا هو اليومُ الأخيرُ
وثَـمَّ شمسٌ في الحديقةِ
بضّـةٌ
بيضاءُ
باردةٌ. . .
ستجلسُ، أيّها المتيبِّسُ الأطرافِ، في طرَفِ الحديقةِ
(بل أراك الآن تجلسُ!)
فـلْتُحاوِلْ دعوةَ الشمسِ الكريمةِ
قُلْ لها:
يا شمسُ كوني ضوءَ عينيَّ اللتَينِ تعانيانِ غِشاوةً!
يا شمسُ
كوني، مثلَ ما كنتِ، السبيلَ
فقد تداخلت المسالكُ
واختفَتْ في الـمَهـمَـهِ الشرسِ، الـمعالمُ؛
فلْتكوني الربّةَ البيضاءَ
يا شمسَ الحديقةْ!

فارموند، ٢٠/٠٥/٢٠١١

استعدادٌ أوَّليٌّ

فكّرْتُ:
سوف تعودُ أندريا إلى طرُقاتِ لندنَ
في حزيرانَ...
انتهى الشهرُ المقدّسُ
شهرُ إيطاليا،
وسوفَ تخِفُّ، والأيّامَ، ضربةُ شمسِتهِ...
ستكونُ أندريا مهيّأةً
لتسمعَ...
....
....
....
لستُ قارعَ طبلةٍ
سأكونُ عوداً خافتاً
سأكونُ مسحوراً!

فارموند، ٢٠/٠٥/٢٠١١

لِنمزحْ قليلاً!

أنتِ
دوماً لديكِ مُحِبّانِ
أو أكثرُ.
مُذْ عرفتُكِ من قبلِ عَشْـرٍ
وأنتِ لديكِ مُحبّانِ:
أنا والآخرُ...
الآنَ
أنتِ تقولينَ: لي عاشقٌ!
هل تظنّينَهُ خبراً؟
أنتِ أدرى بمَنْ أنا.
أدرى بأنيَ أرضى بكِ.
أنا أرضى بكِ
حتى وإنْ كنتِ عاشقةً بالثلاثةِ...
....
....
....
هل تضحكين؟

فارموند، ٢٠/٠٥/٢٠١١

ارتبـاطٌ

القطارُ الذي مرَقَ الآنَ
قد كان يمرُقُ دوماً
وفي هذه الساعةِ. . .
الأمرُ أنيَ لم أنتبهْ لمرورِ القطار
طيلة مَكْثي هنا؛
والأسابيعُ مرّتْ
ولم أنتبه لمرورِ القطار
سوى هذه اللحظةِ. . .
الحقُّ أني هنا في سُباتٍ ثقيلٍ
نهاريَ ليلٌ
وليلي نهارٌ
تمرُّ الأسابيعُ بي، والسحابُ يسافرُ
لكنني مثْقَلٌ بسُباتي
أسيرٌ لنفسيَ، تلكَ البعيدةِ، في الركنِ. . .
كيف انتبهتُ، إذاً، لمرورِ القطار
وفي هذه اللحظةِ؟

الآنَ

أُدرِكُ ما السـرُّ. . .

. . . .

. . . .

. . . .

بعدَ قليلٍ سآخذُ حافلةً للمطـــار!

فارموند، ٢١/ ٠٥/ ٢٠١١

المحتويات